لمَ العقل ؟

تأليف
برجن ايفانز
ترجمة
موفق الحمداني
مريم شرارة

دار الطليعة - بيروت

برجن ايفانز

لِمَ العقل

ترجمة

الدكتور موفق الحمداني   مريم شراره

منشورات دار الطليعة - بيروت

مقـدّمة

قد نكون انتهينا من الماضي ولكن الماضي لم ينتهِ منّا. فلا زالت أفكار العصر الحجري تعيش جنباً الى جنب مع أحدث الاكتشافات العلمية . ولم يخرج من ظلمات القرون الوسطى إلا جزء ضئيل من البشرية . ولا زالت الخرافات والأوهام والأساطير تعشش حتى في العقول النيرة المثقفة .

فهناك بشر يبدون أسوياء العقول ولكنهم يضعون مستقبلهم بين أيدي السحرة والمنجمين وكاشفي البخت . وتشق عنان القضاء طائرات عملاقة جبارة، يحمل قسم من ركابها التعاويذ السحرية لتقيهم المخاطر والأهوال . وأما الفنادق الفخمة التي تفخر بمصاعدها الكهربائية السريعة ، وبالتلفونات في كل غرفة ، وغير ذلك من المخترعات الحديثة ، فإنها تأبى أن تضع الرقم (١٣) على أبواب غرفها كي لا يشعر ساكنوها بالقلق وعدم الارتياح .

ولا زالت تقاليد الشعوب تزخر بمخلفات الماضي الوثنية . فمن ذلك احتفال المسيحيين بتزيين أشجار الصنوبر في عيد الميلاد وهم لا يعلمون بأن ذلك من مخلفات عبادة الشجر في العصر الحجري الحديث .

وتقوم الجامعات الغربية بصرف الأموال الطائلة على دراسات في قراءة الأفكار . ويجد أحد الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء أن الحقائق مستعصية الفهم ؛ فيقرر أن كل ما يستعصي على الفهم حقيقة ناصعة. وتنشر الصحف اليومية عن أحدث المبتكرات العلمية وعن اكتشاف القمر والصواريخ والأقمار الصناعية وما اليها مما يبهر الإنسان، ولكن هذه الصحف نفسها تحمل أبواباً «كحظك هذا

الاسبوع » .

الأرقام البسيطة ما زالت ، كما يبدو ، تفعل فعل السحر في تفكيرنا، فالسبعة رقم سحري وهو من مخلفات الحضارة البابلية ، وكذلك الرقم ١٢ ، فنسمع بالبحار السبعة ، والعصور السبعة ، وطبقات الأرض السبع ... الخ ويؤمن الكثير بأن الطفل الذي يولد بعد سبعة أشهر يعيش، بينما يموت الطفل الذي يولد بعد ثمانية أشهر من الحمل ، وهكذا دواليك .

هذا الكتاب هو محاولة بسيطة لدحض هذه الأوهام وتخليص العقول النيرة المثقفة منها . وما ترجمنا في هذا المجال لم يكن سوى النزر اليسير مما يعج به العقل البشري من الخرافات والأوهام. ولو شاء أحد أن يستفيض في البحث ، لكان عليه أن يقضي العمر كله في التأليف ولا ينتهي .

وبعد لقد قضينا في ترجمة هذا الكتاب زمناً طويلاً ، وبذلنا فيه جهداً لكي نحافظ على أصالة النص ووضعه بنص عربي يقارب الأصل قدر الإمكان . ونرجو أن يجد فيه القارىء الكريم من المتعة والفائدة ما يبرر جهدنا ، وما يشعرنا بأننا قمنا بجهد مهما كان بسيطاً في خدمة القارىء العربي ، من أجل فكر أسلم ومنهج علمي صحيح والسلام .

المترجمان

الفصل الأول

أفكار سامية على مستوى واطىء

كان علم الحيوان في الماضي خادماً لعـــلم الأخلاق . ولم تجرِ حينذاك دراسة الحيوانات لملاحظة خصائصها بل لاكتشاف المواعظ الخلقية في سلوكها وطبيعتها. وهكذا فقد وضح لنا توبسل الأمر في مقدمـــة كتابه « تاريخ الوحوش ذوات الأربع » – ١٦٠٧ – فقال بان الغرض من طبـع كتابه هذا هو دعوة للقراء الى « التأملات السماوية في مخلوقات الأرض » . ولذلك فقد نصح بقراءة كتابه أيام الأحد .

ولقد تنازل كتاب هـــذه المؤلفات عن الدقة في سبيل المواعـظ الخلقية . فكتب السر توماس براون مبرراً ذلك يقول « تحتوي معظم المغالطات على قيم خلقية ثمينة ، وهي لذلك تبرر الخروج عن الحقيقة . » (م ٢٤ ، ص ١٨٠) أما اليوم فالفكر الحديث يضع في موضع الشك القيم الخلقية التي تستند إلى المغالطات، بل ويتضمن جوهر الفكر الحديث رفضاً لكل ما ينافي الحقيقة . ولكن الماضي لم يحفل بالحقيقة إلى هذا الحد ، وهذا أسبغ أغرب الأشياء على مختلف الحيوانات لكي يجعلها ذات فائدة خلقية .

يروي كتاب فزيولوكس الشهير وصفاً ممتعـــاً للفهد . إنه حيوان أليف ، صديق لكل الحيوانات عدا التنين . اعتاد أن ينام لثلاثة أيام بعد أن يأكل . وعندما يفيق يطلق زفيراً عطراً يقود البشر إليه . أما أن الفهد الحقيقي الكاسر لا ينتمي إلى هذا الفهد بأي من الصفات فأمر غـير مهم . إذ لم يكن الهدف من وصفه التحدث عن وحش كاسر ، بـــل وضع حقيقة سماوية . فالفهد يرمز إلى المسيح . أما التنين فيرمز للشيطان بينما تمثل الأيام الثلاثة الهبوط في أعماق جهنم ، ويرمز العطر الذي يفوح منه لتعاليم المسيحية ، أمـــا فروه البديع فيمثل رداء يوسف الجميل . (م ٣٩ ، ص ٧٥ – ٧٧) .

وهكذا وضع كل حيوان في خدمة الفضيلة . فكان الحوت يتعمد أن يبـدو كأنه جزيرة وسط المحيط . وما إن ينزل عليه البحارة الغافلون حتى يغطس في الماء غادراً بهم فيقودهم إلى الهلاك. وهو بسلوكه هذا يرمز لإبليس الذي يضع الناس في طمأنينة كاذبة ليفتك بهم . وإذا لحق النـــاس بالقندس فهو يعض خصيانه ويلقي بها إلى الذين تبعوه . وهو بذلك يقول للبشر تخلصوا من ثرواتكم لتخلص أرواحكم . (من الجـــدير بالذكر أن خصيان القندس كانت ذات قيمة عظيمة ، فهي تؤدي إلى الإجهاض ، كما يقول أوجلبي ، وهي دواء لوجع الأسنان وعندما تفرم تضفي نكهة بديعة على التبغ) !!! (م ١٣٧ ، ص ١٧٤) .

بالرغم مما تبدو عليه هذه الخرافات اليوم من طرافة فإن الفكرة التي تنطوي عليها لا زالت سائدة إلى اليـــوم كما كانت في الأمس . وملخصها مـا سلوك الحيوانات إلا عبرة وانتقاداً للأخلاق البشرية . فـــلا زالت الحيوانات في نظر الكثير لا تعدو كونها عظات صغيرة ذات فراء . ولا زال البحث جاداً وبشكل واسع عن نظام غيبي في عادات الحيوانات . فالسيـــد ارنست تومبسن سيتن – الذي عيّن من نفسه شاعراً للغابات – يقول في كتابه الشائع عن قصص الطبيعة انها تمثل بشكل لا شعوري الجمال الأخاذ للقوانين الاخلاقية التي وضعتها الطبيعة. ولقد ذهب إلى الحد الذي كتب فيه كتاباً كاملاً يحاول أن يثبت فيه ان كافـــة الأحياء تطيع الوصايا العشر ، ثم عرض فيـــه حوادث من حياة الحيوان تمثل

أخطار السرقة والقتل والخداع والتجاوز على نساء الغير وإهمال حكمة الوالدين. ولكنه وجد صعوبة في أن يثبت أن علم الحيوان، يسند الوحدانية ويعارض الاختلاس. أما العمل في أيام العطل الدينية واستعمال القسم فقد كانا أكثر بكثير مما يحتمل ؛ إذ انسل في نهاية الكتاب دون الإشارة اليهما فكيف يستطيع التحدث عنهما والقندس مثلاً يعمل بجد طول أيام السنة كما أن الحيوانات في الغالب لا تنطق !!! (م ١٥٧) .

ولكنه كان يسير في الطريق الصحيح . إذ إن هذا هو ما يريده الجمهور من الحيوانات الآن ، أراد ذلك في العصور الوسطى . ومن المدهش حقاً عدم تأليف كتاب جديد إلى الآن في أخلاق الحيوان . لقد تعلمنا الكثير عن الحيوانات في القرون الماضية وبالامكان الاستفادة من هذه المعلومات في جهد مثل هذا. لنأخذ الطفيليات مثلاً . اننا نعتقد ان الإنسان طفيلي كبير ولكن البشر لا يعرف حتى المبادىء ! ان أكثر رجال العصابات قسوة ليعتبر عاطفياً إذا ما قيس بطير – السكوا Skua – وهو نوع من طيور البجع يخر في الجو صائحاً بضحاياه فيرعبها بحيث تتقيأ في أعالي الجو ثم يلقف هذه الوجبة التي هضمها له الطير الآخر قبل أن تصل الأرض . وما الرجل الذي يعيش على حساب النساء سوى شخص مستقل إذا ما قيس بذكر البونيليا (نوع من الأسماك) الذي يعيش معظم حياته غير الموقرة في داخل الأنثى ملتصقاً بجهازها الابرازي .

أما الذين يبحثون عن مبررات للاقتصاد الحر في التنافس فيجدونها فعلاً في حياة الحيوان !. اذ إن الكلاب قد تأكل وقد لا تأكل الكلاب الأخرى ولكن كل شيء تقريباً يعيش على أشياء حيّة أخرى . فالعناكب تأكل الذباب وهناك أنواع من الذباب تأكل العناكب . وبيوض ذبابة الميفلاي لا تتحرر حتى يتفسخ جسم الام – يجب خدمة الشباب! يولد صغار الولك (Whelk) بكبسولة مقفلة حيث يأكل بعضه البعض الآخر – تنافس صحيح –! ان الحشرات تأكل الكثير من النبات. وعندما نفكر ونتذكر أن هناك من النباتات ما يقتات على الحشرات نشعر بشيء من الراحة . ولكن حتى أكثر الفرديين تطرفاً قد يشعر بشيء من

القلق حينما يعلم أن هنـاك من الحشرات مـــا يعيش على النباتات التي تعيش على الحشرات . وإن هناك من الحشرات ما يعيش على الفضلات المتبقية من الحشرات التي اقتاتت عليها النباتات – ولكن على تلك الحشرات الحذر فهنـاك أنواع من الطيور تجثم منتظرة افتراسها (ص ٦). تمثل دودة الارضة وحدها مجموعة من المواد التي تصلح للاستعمال في المقالات الافتتاحية. فعمال دودة الارضة عُمْي ، ولذلك لا يستطيعون الاضراب (نقطة لرأس المال). ولكن محاربي الارضة لا يستطيعون اطعام أنفسهم ، وهم لذلك تحت رحمة العمال. (نقطة للعمال) . والملكة تضخمت فأصبحت وكأنها جهاز تناسلي ضخم [والتي يختبىء خلفها الملك] تبيض ستين بيضة في الدقيقة الواحدة طول أيام السنة (نقطة للنظام الملكي) . ولكنها مـا إن تتأخر عن افراز البيوض حتى يلتهمها المحاربون (نقطة للانقلابات العسكرية).

ولكن الواعظ الأخلاقي الاعتيادي ، الذي لا يعلم بوجود مثل هـذا الحصاد الوفير الذي ينتظره في أي كتاب جامعي لعلم الحيوان ، لا يفتأ يضع نفسه ، في معظم الأحيـــان ، في اطار التعميات . وهو يود أن يفكر بشكل خـاص في « عجائب الغرائز » الحيوانية . هذه الخصائص المدهشة التي تذكرنا أكثر من أي شيء آخر بالوحدانية الغيبية . وقـدرة الحيوان على التنبؤ بالمستقبل من أكثر « الغرائز » التي يستند اليها الأخلاقيون . وقد يكون هـذا التنبؤ كما يراه بعض هؤلاء لا شعورياً تماماً كتنبؤها بالشتاء القارص المقبل فينشأ لهـا فراء طويل – مفهوم عـام يثبت بطلانه العدد الوفير من الحيوانات التي يقضي عليها برد الشتاء القارس .

ويرى قسم آخر أن هـذا التنبؤ قريب من مستوى الشعور ، – ولذلـك يعتقدون أن القندس والسنجاب يخزن كميات مناسبة من الغذاء لمـا يتنبأ به من طول الشتاء المقبل . ويرى قسم – غير من مضى ذكره – أن هذا التنبؤ في غاية الدقة فيقول إن التماسيح تضع بيوضها على الحد الذي سيصله النيل عندما يفيض . ويرى آخرون أن تنبـؤ الحيوان سحري فتستطيع الغربان أن تتنبـــأ بالفراق والفواجع كما تكشف الكنوز وتحل جرائم القتل باكتشاف القتلة ! وقـد يكون

ذلك لشعورهم – بدون شك – بالموت . وهذه « الغريزة » تعم برأيهم كافة الحيوانات .

وهكذا نجد أن اليونايتد برس أرسلت خبراً من هارتفورد بعد حريق سيرك مفجع في تموز عام ١٩٤٤ مفاده أن اللبائن التي كانت في السيرك أحست بالحريق قبل حدوثه . ففي الليلة التي سبقت الحريق كانت اللبائن في السيرك كثيرة القلق فقد ملأ – كاركانتوا – (الغوريلا) الليل عويلاً . بينما رفض أحد الاسود الاقتراب من طعامه . كما انزوى النمر في قفصه وهو يموء بشكل مؤلم . وقد رفض أصحاب السيرك أن يعلقوا على هذه « الظاهرة » بشيء – اذ كان لديهم ما يفكرون فيه – ولكن أحد المتفرجين شرح للمراسل الصحفي الهمام أن « الحيوانات تعرف تماماً الوقت الذي يقترب فيه موتها » . وهكذا نجد لشديد الأسف أن الجريدة التي نشرت هذا الخبر في شيكاغو لم تكلف نفسها مشقة ارسال مراسل صحفي الى مسالخ شيكاغو الشهيرة للتأكد من مدى شعور اللبائن بقرب موتها . (م ، ص ٥)

وهكذا نجد أن « الكل » يؤكد بأن الحيوانات تعلم بدنوّ ساعتها فالذئب يبتعد عن قطيع الذئاب ليموت وحيداً . كما تقطع البجعة صمتها الوقور الهادىء لتغني اغنية أخيرة غاية في العذوبة . ويوقد أبو الهول ناراً من الهيكل ، وتسير الفيلة بجلال نحو مقبرتها السريّة . والجرذ الحقير هو الوحيد الذي يهرب من موته حينما تغرق السفن !

إن التعريف الدائري[1] « للغريزة » ، التي يمتلكها الحيوان ، يسند غالباً بالفرضية القائلة بأن الحيوان يولد وهو يمتلك امكانية البقاء ومؤهلاته من معرفة ومهارات . فرضية يجب أن يتضح خطؤها لكل من راقب كلاباً أو قططاً حديثة الولادة . انها تولد عمياء فلا حاسة للاتجاه لديها ؛ ولا تستطيع تمييز امها كما لا تستطيع التفريق بين الملعقة والثدي !

والحقيقة أن كافة الحيوانات التي تعلو الأسماك في سلم التطور، تولد وهي عديمة

---

١ – كتعريف الماء بعد الجهد بالماء .

الامكان تماماً . فالطيور والخفاش تتعلم الطيران . وألوف الفقمات وكلاب البحر تقضي نحبها غرقاً كل عام إذ تولد وهي لا تستطيع العوم، فتقوم الامهات بتعليمها السباحة . والبلبل ، مثل بقية الطيور ، يستطيع ان يغرد بعد أن ينمو قليلاً ، ولكنه لا يستطيع التغريد الصحيح حتى يسمع البلابل التي هي أكبر منه سناً وأكثر تمرساً بالتغريد . وتبني فئران الحقول المسنة أعشاشاً أفضل من الصغيرة منها . ويقول فرانك بك إن الفيل الصغير لا يعرف ماذا يفعل بخرطومه حينما يولد فيتعثر به حتى يعلمه أبواه استعماله .

تولد الحشرات وهي تمتلك كافة الاستجابات الانعكاسية التي تؤهلها للحياة حقاً . ولكن حتى هنا نجد أن مفهوم « الغريزة » بحاجة الى تعديل وتحوير . اذ تحسن الحشرات سلوكها بالتمرين . فالعناكب الصغيرة تبدأ بنسج خيوط غاية في البدائية تتحسن كلما ازداد تمرينها . وحينما تستأصل غدد افراز الخيوط لدى هذه العناكب نجد أنها تبدأ بتعلم الصيد والقنص . (م ٧٦ ، م ٥ ، م ٢٥ ، م ١٠٥ ، م ١٥٠) .

حتى الأكل الذي يفترض الإنسان أنه « غريزي » ، إذا كانت هناك غريزة ، يبدو أنه على الأقل جزئياً ، قائم على التعلم . ففراخ الدجاج الصغيرة لا تستطيع التمييز بين طعامها وأية مادة أخرى، كما لا تعلم ماذا تفعل به حتى تريها الأم. وفي تجربة لأحد علماء النفس ماتت الفراخ الصغيرة من الجوع والأكل متوفر أمامها إذ لم يعلمها أحد كيف تنقر . (م ١٠٥ ، ص ٥٦) .

ولكن الفولكلور يعتقد بأن الحيوان يولد وفي حوزته أنماط من السلوك ومعارف معقدة . نسمع مثلاً أن الحيوانات تولد وهي تمتلك غريزة تميز اعدائها الطبيعيين . ويقال لنا إن الفراخ تركض رعباً حينما يمر ظل طائرة فوقها ! بالرغم من عدم رؤيتها للصقر في حياتها . ونسمع قصصاً عن القردة التي تخاف الافاعي بالرغم من أنها لم تشاهد أفعى في حياتها . ويقال إن قرداً ولد في بيت بعيد عن الغابة كان يرتجف رعباً لرؤية خرطوم ماء مطاطي. ولكن العالم النفسي يركيس وزوجته اللذين لاحظا سلوك القردة بشكل علمي، واللذين رأيا قردة أكثر من أي

شخص يعيش الآن يؤكدان أن هـذا الحديث هراء ويصران على أن القرد الذي يخاف الأفاعي قد مرت به تجربة سابقة معها . (٣ ، ٢٠ ، ص ١٥٧) .

ومن الأوهام الأخرى الشائعة ما يعتقده البعض من أن الحيوانات التي تعيش متجمعة ليست سوى أمثلة بديعة للتعاون المتبادل . فيقال لنـــا أن الكثير من الحيوانات تدرك منافع المشاركة مع رفيق تكتنفه الأزمة أو الثأر لمحبوب اعتدي عليه . فيقول داكليش أن الدببة « ترحـــل عشرات الأميال لتثأر لأطفالها » وتهجم قطعان الفقمة بكاملهـــا لتثأر لأحـــد أفرادها (م ٤٣ ، ص ١٧٠) . (وتستطيع أن تتخيل مـدى سرور دب قطبي جائع اذا هاجمـــه قطيع من الفقمات الغاضبة) .

والثأر قريب جداً من قلوب كاتبي قصص الحيوان . وكل واحد منهم ينافس صاحبه في مـدى « فروسية » أبطال قصصه . وفي أسفل درجات الاقاصيص تنحدر مواضيع الحقد الشخصي مثل أسطورة « هنرى وليامسن » عـن قرده « تشاكاما » الذي أورد الخنزير الوحشي « فان در ونتر » حتفه لأنه غلبه مرة. وأعلى من ذلك « تام أو شانتر » بطل قصة « ألبرت بيسون تيرهيون » ، الذي لم يجازف بحياته فحسب بل بسمعته ليثأر لصديقه . وأعلى من ذلك أيضاً أولئك الذي يفعلون كل شيء من أجل الحب مثل بطل قصة « سيتون » ، النائب العظيم لوبو ، الذي يموت بقلب كسير بعد أن انتهت حياة حبيبته الذئبة الجميلة بلانكا ! ولكن أرفع الحيوانات أمثال « داب » الدب و « فوم » الخنزير اللذين يوقفان حياتهما للبحث عن قتلة أميهما . أو الأرنب راكيلك الذي كافح حتى قتل أرنباً تعرض لشرف أمه (حيث نجد مفاهيم أكثر دقة !) . (م ١٦٠ ، م ١٥٩ ، م ١٥٨) .

إنكار الذات هذا ، يكون أحسن وقعاً ، دون شك ، إذا وجّـه ونظّـم . لذلك فلا يدهشنا ، والحق يقـــال ، إذا وجدنا عدداً كبيراً من القصص عن مجتمعات الحيوان التي تمتلك حكومات وقادة بل وحتى جيوشاً . فيقولون إن الغربان وبعض الحيوانات تضع حراساً لتنذر البقية لدى اقتراب الخطر . وإذ

يقال إن هؤلاء الحراس يخضعون للتدريب اليومي ، فلا علم لنا إن كانوا يطبقون الخدمة الإلزامية ...!! (م ١٥٨) .

ويعتقد البعض أن كثيراً من الحيوان يمتلك جهاز إشارات دفاعي . فالقندس يضرب على سطح الماء بذيله المسطح ويدق الأرنب على الأرض برجليه الخلفيتين ويضرب الدراج الهواء بجناحيه كالطبل ... الخ . ويذهب البعض الى أبعد من هذا . فيقال إن بعض المجاميع تستعمل وسائل خاصة لتبقي حارسها يقظاً . فيقول بلني مثلاً – وقد نقل عنه ذلك عدد آخر – إن طيور الكرين تطلب من حراسها أن يقفوا على رجل واحدة ويمسكوا بالأخرى حجراً مرفوعاً عن سطح الماء، فإذا ما غفا الحارس ارتخت رجله فيسقط الحجر في الماء محدثاً صوتاً يوقظه. ويقول لنا الآخر إن حيوان الأيّل يضع حارساً لا يدع نفسه للراحة إلا إذا تقدم منه أيل آخر وأعطاه ما يقابل كلمة السر لدينا ، فيأخذ الحارس الجديد مكانه بشيء من المراسيم العسكرية (م ، ٥) . ويقول البعض إن قردة البابون تذهب أبعد من هذا فتخطط الهجوم وتستعمل الأسلحة والتدريب وتطبق (إذا وثقنا بما تقوله جريدة النيويورك تايمس) كتاب التعليمات العسكرية ولو بشكل غير متكامل ! ويقول لنا الفردس إن قردة البابون حينما تهجم تضع حراساً للمؤخرة والمقدمة ثم تضع كشافة لحماية الأجنحة . وتقدم الاسعافات الأولية لجرحاها إذا انكسرت ، وتتراجع بنظام وهي تحمل جرحاها وقتلاها (م ، ٥) .

إن معطيات هذا الحديث تدلنا على وجود القيادة . والخيال الشعبي كان نشطاً جداً في تقديم هذه القيادة . ليس ثمة اعتقاد سوقي أكثر رسوخاً من الاعتقاد القائل إن الحيوانات التي تعيش جماعات يسيطر عليها حيوان كبير حكيم . ان الإنسان نفسه حيوان يعيش في جماعة ولكن قادته تعوزهم الحكمة على الأغلب بالرغم من كبرهم في السن . ومع ذلك يعتقد الكثير أن « غرائز » الحيوانات الدنيا تقودها الى اختيار أحكمها للقيادة دون خطأ، وتقبل قيادته بطاعة تامة .

فيقول بلني مثلاً ان المحار له قـــائد يمتلك قدرة وحدانية على تجنب الخطر ومنعه فإذا قضي عليه تفرقت جماعته أيدي سبأ .

ولكن بالرغم من بلني وكتاباته فليس ثمة اليـــوم عاطفي يجرؤ على القول بوجود قيادة لدى المحار. ولكن هؤلاء لا يترددون في الحديث عن قادة الحيوانات الاكثر ارتقــاء . فالأوز وكلاب البـــحر والذئاب والماعز والصرصار النطاط والقردة قسم من الحيوانات التي يقال لنا انها تخضع لقادة تقدم لها الولاء وتتسلم منها بالمقابل الارشاد والحماية (م ٣٣٥) ومما يؤسف له ، غياب التقادير المشابهة من العلماء الذين درسوا سلوك الحيـوان بطريقة موضوعية بعيدة عن التـــحيز العاطفي . فيقول لنا العالم برادلي إن اللبائن ، التي تعيش في جماعات ، هي أقل الحيوانات ، في الحقيقة ، اجتماعية وذكاء وسلوكاً أبويـــاً إذا ما قيست بالقطاع الأعلى من سلّم التطور . أما لوزر ، العالم النفسي ، فيقول ان ليس ثمة في عـــالم الحيوان أي مجتمع صحيح كما نفهمه . إن ما نجده من سلوك جماعي لدى بعض فصائل الحيوان لا يتجاوز الاكتفاء الأناني لاحساسات خاصة . وهــذا يعني أنه ليس ثمة سلوك لدى الحيوانات يستهدف معونه فرد آخر لغرض المعونة نفسها . فهذه الحيوانات تسلك سلوكاً متناسقاً ولكنه سلوك أناني في نفس الوقت .

ويقول العالم البايولوجي زوكرمن بعدم وجود أي قيادة لدى قردة البابون ؛ كما انه لم يجد أي أثر للتخطيط في هجمات هذه القردة . ثم يرتأي ويقرر إهمال كافة القصص التي تشير إلى وجود عمليات إنقــاذ مستهدفة . ويقرر بأن القردة تهرع فعلاً لسماع صرخة رفيق مجروح ولكنها قد تعمد إلى إثخان جراحه كما قد تساعده أو تهمله . (م ٢١ ، م ١٠٥ ص ٨٩ – ٩٠ م ٢٠٩ ، ص ١٣٩) .

لا يحتمل أن تؤثر مثل هذه التقارير تأثيراً كبيراً على الاعتقاد الشعبي السائد حول وجود التعاون بين الحيوان اذ لا يعود هــذا الاعتقاد الى حقيقة بايولوجية أكثر مما يعود الى سبب اخلاقي صرف . يضفي البشر على الحيـوان مثلهم العليا المستحيلة التحقيق، ثم يعذبون أنفسهم بالخجل، يُقرّعونها بشعور من الخطيئة لاعتقادهم بتفوق الحيوان عليهم . وهكذا نجد ان الكثير من العقول تردد بشيء

من إتهام الذات بالإثم صدى قول فيبر الشهير « ان الحيوان يقوم بأعماله المنزلية بشرف » .

وقبل خمسين عاماً كانت البيوت الأميركية تعلق على حيطانها صورة من الفولاذ المنحوت ، تمثل حصاناً يقاتل ببطولة قطيعاً من الذئاب . وتقف خلفه فرس جميلة ومهر صغير وقد اتسعت حدقاتهما ، ولكنهما ينظران بثقة تامة إلى الفحل المدافع عن حياتيهما – مثال لرب البيت يحتذى ، دون شك – . ولكن الشعور بالإثم الذي يكتنف الزوج المهمل وهو ينظر إلى مثل هذه الصورة لا مبرر حقيقي له . اذ إن المجهود الجبار الذي تبذله فحول مختلف فصائل المخلوقات ذات الحافر للدفاع عن قطعانها المستضعفة ليس إلا أسطورة نبيلة !!.

ولا سيما الخيول ، كما يبدو ، ففحولها تهرع هاربة لدى أية إشارة يظهر فيها الخطر ! يقول « ألي » ، في كتابه ، الحياة الاجتماعية للحيوان ، إن ذكور الخيل تهرب من وجه الخطر تاركة وراءها الإناث ثم تعود إليها بعد ذهاب الخطر ! ثم يستنتج في نهاية كتابه أن ذكور دودة الأرضة ، هي الحيوانات الوحيدة التي تقوم بواجباتها المنزلية بشكل مشرف ، ولكن ... من يعلق في غرفة استقباله صورة لدودة الأرضة وهي تقوم بواجباتها المنزلية؟. (م ٩ ص ٢٦٠ – ٢٦١).

وإذا محصنا ودققنا في حياة القادة في الأساطير للفصائل الأخرى من الحيوان .... فاننا سوف لا نجد صورة أكثر بهاء مما مضى الحديث عنه فتتأخر الثيران إلى الخلف حينما تهاجم الذئاب القطيع بحيث تكشف أنفسها للخطر وتصبح أول الضحايا ... ولكن لا اختيار لها في الموضوع إذ أنها لا تستطيع الركض بسرعة بقية القطيع فتتأخر عنه .

لربما لا يوجد من يستطيع إخراج القائد الفحل ، الحكيم المسن ، من علم الحيوان الشعبي لسبب تافه مثل كون علماء الطبيعة لم يستطيعوا حتى الآن تشخيصه من بين صفوف الحيوان ! إن استمرار وجوده كأسطورة تسنده أسطورة أكبر ألا وهي تفوق ذكور الإنسان على إناثه ! نعم إننا نضحك ونستمرىء الفكاهات عن المرأة المتفوقة المسيطرة على زوجها ولكن لب الفكاهة

يكمن في أننا « نعلم » أن الرجل هو الأقوى والأحكم ... !

هكذا يقول علم الحيوان الشعبي . ولكن علم الحيوان بشكله العلمي لا يحمل مثل هذه المفاهيم . وفي الحقيقة ، إذا أحصينا فصائل الحيوان وحددنا المسيطر منها ذكوراً أو إناثاً وجدنا أن الإناث هي المسيطرة في أغلب الأحيان ، إننا نجـد أن ذكور اللبائن وبعض أنواع الطيور هي المسيطرة فعلاً . ولكن بين الأسماك والزواحف نجـد الذكور تخضع لمختلف أنواع الإهانات . فإناث فرس البحر وإناث ضفادع شيلي تضع بيوضها داخل الذكر وتجعله يعاني مشاكل الحمل . كما أن معظم فصائل السمك التي تعنى بصغارها ، يقوم فيها الذكر بهذه المهمة . (م ٥ ، م ٢٠ ، م ١٢٦) .

أما في عالم الحشرات (وهي أكثر الحيوانات عدداً على سطح البسيطة إن كنت لا تعلم !) فإن الحالة تدعو للقلق فعلاً . ففي حياة النمل والنحل والدبابير نجد « الذكور ليست سوى حادثة في حياة الإناث » حسب تعبير العالم هويلر في كتابه الحياة الاجتماعية لدى الحشرات . فإناث العناكب تكفي جوعها الناجم عن النشاط الجنسي بأن تلتهم أزواجها . ولدى أنواع أخرى من الحشرات نجد أن التلقيح الذاتي قـد وجه الى الذكور لطمة يُعتبر الافتراس بالقياس إليها مديحاً ، إذ لا حاجة للإناث بالذكور إلا في فترات قصيرة كل سلسلة من الأجيال !. (م ، ١٩٢) .

مثل هذه الأمور يمكن صرف النظر عنها لأنها « فلتات في الطبيعة طبعاً » . ولكن ما يقلق فعلاً هو نتائج البحوث البيولوجية التي أجريت في علم الأجنّة (علم دراسة الجنين وتطوره قبل الولادة) علاوة على نتائج الإحصائيات البشرية التي تراكمت مؤخراً . إن هذه النتائج ترينا بوضوح مؤلم لا يقبل الشك والجدل أن ذكور البشر في الواقع أضعف بيولوجيا من الإناث . إن نسبة عالية جداً من حالات الإجهاض يكون الجنين فيها ذكراً بالرغم من أن عدد الذكور الذين يموتون خلال السنة الأولى من حياتهم يزيـد على الإناث بمقدار الثلث . وهكذا يستمر الحال في زيادة نسبة وفيات الذكور على وفيات الإناث في جميع مراحل

الحياة البشرية . وعندما يبلغ الذكور والإناث مرحلة النضج تكون الإناث أكثر عدداً من الذكور حتى تصل النسبة في مرحلة الشيخوخة أنثيين لكل ذكر !!! (م ١٥٤) .

ولحد الآن لا نعلم المسببات . وربما كان الأمر يعود الى حقيقة زيادة جينات (حاملات الصفات الوراثية) الإناث على الذكور . وهذا يعني أن الذكور اناث ناقصة التكوين . وإن كان الأمر كذلك فهذا دون شك قلب للفرضية القديمة التي تقول أن الإناث ذكور ناقصة التكوين !

إن الضربة التي وجهتها هـذه البحوث لاعتزاز الرجل بنفسه لم تكن لتؤثر كثيراً لو لم تسندها ضربة أخرى وجهتها بحوث تختلف عما سبق ذكره ولاسطورة أخرى لها نفس القدسية وتلك هي « عاطفة الامومة » .

ان الكثير من الفقريات تظهر ، دون شك ، تعلقاً كبيراً بصغارها ولكن ما نقضته البحوث هو «غريزية» هذا السلوك أو ثباته وعدم تغيره. ولاسيما الاعتقاد القائل أن الامومة لدى الحيوان تتميز بنفس الخصائص الانفعالية لدى الانسان !

اننا نعلم ، طبعاً ، أن لكل قاعدة شواذ حتى ولو كانت القاعـدة بيولوجية وذات قدسية كبيرة . فصيادو الكنغر يعلمون أن الأم كثيراً ما تلقي باطفالها من الكيس الذي تحتفظ بهم فيه عندمـا تهرب من خطر محدق . ومشهور عن اناث الخنازير أنها تفترس صغارها . ولكن مثل هذا « الشذوذ » حينما لا يحـكم عليه بأنه غير طبيعي فإنه يصرف على أساس أنه عاطفة متدفقة . ويرى البعض الآخر فيه أبعد من ذلك فيقول انه عمل نبيل أو ضرورة بطوليـة . (م ٤٣ ؛ م ٢٠٩ ، م ١٠٥) .

يقول سيتن أن احدى اناث الثعلب قدمت لابنها الصغير طعاماً مسموماً حينما وقع في مصيدة لأن الموت خير من الحياة في الاسر . وتؤكد جريدة شيكاغوسن لقرائهـا بأن اللبوة في حديقة الحيوان تأكل أشبالهـا لكي لا يشبوا في الاسر والعبودية . وبعد اسبوعين كتبت مجلة لايف عن لبوة افترست أحد اشبالهـا معلقة على الموضوع بأنه عمل كان يتصف بالرحمة وقد قامت به اللبوة وعيناهـا

مغرورقتان بالدموع ، إذ اكتشفت وجود نقص في أحد أثدائها .

وبالرغم ما تبدو عليه هذه التعليلات من الاعوجاج حينما تصرف على سلوك اللبائن فانها تبدو أكثر اعوجاجاً حينما تطبق على الحيوانات الأوطأ من اللبائن. إن اناث السمك تلتهم بيوضها بكثرة ولكن حتى مجلة لايف لا تستطيع أن تنكر بأن سبب ذلك هو اعجابها بطعم الكافيار والبطارخ بدلاً من اصرار الام الحنون على أن لا يصبح صغارها مسقوفاً لذيذاً أو فرجة للعالمين في جرار السمك. واذا نظرنا أسفل من ذلك في سلم التطور يصبح الموضوع على جانب كبير من السخف . اذ حتى الأساطير الشعبية ترى أن انكار الذات محصور على الفقريات . ولا يمكن أن تروى القصص عن صرصار أو مردان يضحي بنفسه من أجل أطفاله . ولكن هناك قصاصون حاولوا اكتشاف حب الام في هذه الأعماق !

ويشيرون بذلك الى بعض الخنافس والعناكب التي تحضر أموراً معقدة بانتظار صغارها ولكنهم يهملون الحقيقة الاخرى وهي أن هذه الحشرات تموت قبل أن تفقس البيوض وبذلك يكون سلوكها موجهاً لغرض أناني. فمن المعروف علمياً أن النمل يلعق بيوضه بعناية ويهرع بها بفزع اذا ما الخطب دهم . ولكن بيوض الحشرات تفرز عصيراً لذيذاً والنمل يعنى ببيوض حشرة طفيلية Lomechusa Strumosa لنفس السبب وحينما تنمو هذه الحشرة تفترس بيوض النمل ذاته وتسطو على طعامه . (م ١٩٢) .

الفصل الثاني

الطيور في أعشاشها الصّغيرة

إن العاطفي الذي تفل عزيمته عادات الحشرات قد يجـــدد ايمانه بقدسية الفضائل البيتية عن طريق تأمل حياة الطيور السعيدة ، بشرط عدم تأمل هذه الحياة بعمق .

إذ بين الطيور يجد العاطفي ضالته المنشودة ، فكثيراً مــا بطـّنت الطيور أعشاشها بالريش الناعـم المنتزع من صدورها حتى أصبح العش مرادفاً لمسكن الحب ، وجمال البيوض الصغيرة ، والفراخ الضعيفة الصغيرة والأم الحنون ، كل هذا جعل من العش مثالاً للحياة العائلية الهانئة ووحياً لالهام البشر في كل مكان وزمان .

ولا سيما حنان الأم. ان الزوج قد يعاونها بفروسية لكن للأم القدح المـُعلـّى دون شك . فالصبر الذي يتطلبه الجلوس على البيض حتى يفقس وعملها الدؤوب في ملء المناقير المفتوحة أمامها باستمرار ، والشجاعة التي تبديها في الذود عــن عشها السعيد تجعلها تتصدر قائمة الحيوانات التي تبدي الأمومــة . وهي تستحق هذا الشرف بالتأكيد . ولكن البحث العلمي وضع علامــة استفهام كبيرة حول

أي تفسير انفعالي لسلوك اناث الطيور .

فيدلنا البحث العلمي أن هذه الطيور لا تجلس بصبر جميل على البيوض وهي تنتظر الحدث المبارك . بل لتحصل على شعور مهدىء بأن تلصق صدرها على سطح ناعم بارد نوعاً ما . إذ يتكون نتيجة لافرازات الهورمونات التي تحدث للدجاجة حين موسم « التكريك » في جلد صدرها ، التهاب ذو درجة واطئة يبدو أنه غير مريح. وهذا الالم أو على الاصح الرغبة في التخلص من الالم يكوّن الدافع الأساسي لجلوس الدجاجة على البيض . وفي تلك الفصائل من الطيور التي يجلس فيها الذكر على البيوض أيضاً نجد انه يعاني من المشكلة نفسها . وهكذا نجد ان تدافع الذكر مع الانثى من أجل الجلوس على البيوض لدى بعض فصائل الطيور ليس عملاً فروسياً كما تصوره الاساطير ، بل تدافعاً على تخفيف آلام التهاب بسيط !

وازدياد حرارة الصدر لدى الدجاجة يعطي البيوض الدرجة اللازمة من الحرارة للتفريخ . وإذا أردت التأكد من ذلك فما عليك الا ان تضع صدر الدجاجة في موسم التفريخ في اناء ماء بارد لفترة قصيرة حتى تجد أن رغبتها في الجلوس على البيض تختفي مؤقتاً . واذا رفعت درجة حرارة البيوض بحيث تصبح مساوية لدرجة حرارة صدر الأم تجد انها تترك البيوض !

وكل من عمل في تربية الطيور يعلم أنها لا تتعلق ببيضها . ولا مانع لديها من الجلوس على بيوض من خزف أو حتى على مقابض الأبواب الكروية الشكل . ويجدر القول أن الدجاج يلقي من عشه البيضة الغريبة ان وجدت بين بيوضه حيث يفسر العاطفي ذلك على أساس الولاء للعائلة . ولكن الأستاذ جوهان لوزر يرى أن السبب في القاء البيضة الغريبة لا يعود الى كونها غريبة عنه بل لأنها لا تساوي بقية البيوض حجماً مما يعرقل تجانس السطح الذي تجلس عليه . لذلك فقد عمد الاستاذ جوهان لوزر الى رفع أربعة من خمسة بيضات لدجاجة ووضع أربع بيضات متجانسة من نوع آخر مع بيضة الدجاجة المتبقية ، حيث القت الدجاجة الأم بيضتها هي خارج العش ! . ولذلك نجد أن الدجاجة قد

تفقس بيوض البط كمجموعـــة أو بيوض الدراج ... الخ ولكنها لا تجلس على مجموعة غير متجانسة من البيوض . (م ١٠٥ ص ٣٧) .

أما عدالة الطيور في إطعام فراخهافقد ثبت أيضاً انها استجابة أوتوماتيكية وليست نتيجة لحكمة الأم وإنكار الذات . اذ يبدو ان الطيور تستجيب لسبب كيميائي أو فزيولوجي لأصوات زقزقـة الفراخ ومنظر المنقـــار المفتوح بلونه الصارخ من الداخــل وبتحديده الواضح على الجوانب . ولقد اكتشف العلماء ان الفرخ اذا أغلق منقاره ، فإن الأم لا تحـــاول اطعامه أو فتح منقاره كما ان الملاحظات تشير الى أن الأم تقوم بإطعام فراخ طيور من نوع آخر في عش آخر غير عشها فيما إذا قدم هؤلاء الفراخ منقاراً مفتوحاً وزقزقة مناسبة . (م ١٠٥ ص ١١٤) .

واستجابة الأم في اطعام الصغار تتناسب تناسباً طردياً مع الضجة التي يفتعلها الفرخ الصغير .

وقد شاهد ملاحظو حياة الطيور الترتيب الصارم الذي تتبعه الأم في اطعام صغارها . فوجد الاخلاقيون في ذلك رفضاً للمناضلة بين صغـــار البشر اذ تولد الانقسام بينهم . ولكن لوزر يؤكد أن الطيور لا تعلم ما هو عدد فراخها ولا تعلم ما أُطعم منها وما لم يُطعَم . ولكن عدالة الأم في الإطعام أمر لا مفر منه . ويشرح لوزر الأمر كما يلي : تقترب الأم من العش عادة من جهـة معينة ، وأول فرخ يقابلها يحظى بالطعام، بالرغم من أن كل الفراخ تفتح مناقيرها بتوسل محموم . والذي حظي بالطعام يتوجب عليه أن يتخلى ـ لا عن حكمة ـ بل لأن الضغط من الجانبين يجبره على ذلك ـ فيرفع مؤخرته على حافة العش فيحتل مكانه فرخ آخر يصبح أول من يلاقي الأم والطعام ... وهكذا يصبح الذي أُطعِمَ أولاً في آخر الخط الدائري المتحرك باتجاه الطعام . نظام بديع حقـاً ، وبالرغم من أن أسسه تعتمد على العادة والطمع والمدافعة والرغبة بالإبراز فإنه ربمـا كان أكثر عملية من الشعور الأبوي بالعدالة . (م ١٠٥ ص ١١٨) .

وهؤلاء الذين يجدون التفسيرات الميكانيكية للعالم منفـرة سيقولون ، دون

شك ، اذا كان الاستاذ لوزر محقاً في تفسيراته فإنه قد استنزف الكون وعذوبته وجعل مجموع الأشياء ميتـــاً لا روح فيه . ولكن هؤلاء البشر ينسون (أو على الأكثر لا يرغبون بالاعتراف) ان الكثير من مجموع الاشياء هو في الواقع قــاسٍ وقبيح اذا قيس بمقياس العذوبة والجمال الذي يستعملونه . وهكذا فإن التفسيرات الميكانيكية للاشياء تقلل من قبح وقساوة الكون كما تقلل من جماله وعذوبته .

وهكذا إذا كان الاستاذ لوزر قد دمّر اسطورة جميلة عن الحب الأبوي بتفسيره هذا فإنه قد دمّر في الوقت نفسه أسطورة قبيحة عن طــير الكوكو [Cuckoo] الذي يرمي صغــار الطيـور التي يعيش معها من أعشاشها . (يضع طير الكوكو بيوضه في أعشاش طيور أخرى فتقوم تلك الطيور بتربية صغار الكوكو) .

إن الأخلاقيين منذ قرون وللآن يهزّهم إنكار الجميل الفظيع الذي يبديــه صغار الكوكو . فكيف يجازي أي طفل مُتَبنّى أبويـــه بالتبني بأن يلقي أطفالهم من العش، ولأخس الأغراض الأنانيـة ألا وهو الاستئثار بعطف الأبوين وعنايتهم دون إخوته بالتبني ؟ ولكن لوزر يرينا بأن الأمر ليس كما ترويــه الأساطير . فإن الطير يرمي فعلاً إخوتـــه بالتبني (العصافير) خارج العش ، ولكن سبب ذلك ليس سوء نيّة من جانبه بل استجابة لحالة جلدية طارئة .

فيقول لوزر ان طير الكوكو الصغير يولد أعمى وعارياً تماماً . ويمتلك خلال الأيام الأولى من ولادته متسلمات جلدية على ظهره وجانبيه بنسبة تفوق كثيراً مثيلاتها لدى بقية الطيور . ولمس هـــذه المتسلمات يؤدي الى استجابة عنيفـة لديه كما لو وخز بإبر محميـة ، فيقوس ظهره ويحرث في العش محاولاً الابتعاد عما يلمسه . وبما أن فراخ الكوكو أكبر حجماً من فراخ العصافير فهي التي تكون في الوسط . وبحركتها هذه تبعد أشقاءها الى الخارج نحو حافة العش حتى تسقط وراءه ! وهكذا نجـد أن الكوكو المسكين لم يخطط مسبقاً لمثل هـــذا الأمر وبالرغم مما يبدو في نتائج هذا الأمر من إنكار للجميل فالكوكو غـير مسؤول عنه ولا يمكن استعمال هذا الأمر ضده . (م ١٠٥ ص ١٢٨) .

ونكران الكوكو للجميل يبدو منفراً للنـاس لأنهم يعتقدون ان العش هو مسكن يسوده الرخاء والسعادة والانسجام لولا حوادث شاذة كالتي ورد ذكرها.

وهناك خطأ آن فاضحان في هـذا الاعتقاد . فبالرغم من قصص الصغـار والأفلام المتحركة، فإن الأعشاش ليست مساكن بل هي أمكنة للتفريخ ومهود. اذ تعيش الطيور عادة على بعد غير قليل عن عشها . وفي شجرة أخرى حتى في أثناء موسم التفريخ . وهكذا فإن الرجال الذين يعاركون زوجاتهم لا يحتاجون ان يطأطئوا رؤوسهم خجلاً لدى مقارنتهم لحياتهم بحياة الطيور . فلدى الطيور ترتيب للنقر خاص وصفه شليدر آب — وهو نظـام هرمي الترتيب سداه القوة ولحمته العنف ، في قمتـه أقوى الطيور وفي قاعدته أضعفها . (م ٩ ص ١٧٦ — ١٨٤) .

إن الجمهور يعتقد ان للطيور مواهب غيبية خاصة . وبالرغم من أن الخرافات حول البوم والغربان قد تلاشت نوعاً ما على الأقل بين المثقفين ، فان الخرافات حول الطيور الأخرى لا تزال سائدة فالكثير من الناس يعتقد ان الطيور ما هي إلا بارومترات حية ، وبأفعالها تستطيع التنبؤ الجوي . وأشمل من هذا الاعتقاد السائد بأن الطيور المهاجرة تقودها في طيرانها غريزة غيبية عجيبة. ولكن العالم كاورد يؤكد لنا بأن تنبؤ الطيور بالأحوال الجوية ينقصه عدا الكثير من المعلومات الأخرى طيران مجاميع من الطيور في أحوال جوية تؤدي الى هلاكها. (م ٤٠، ص ٨٤) .

أما الاعتقاد السائد حول الحاسة الغريبة التي تجد فيها الطيور المهاجرة طريقها فكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن هناك الكثير مما ينقض هـذا الاعتقاد ، وقليل يسنده . فليس هناك من الحقائق المعروفة حول هذا الموضوع إلا القليل . ولكن المعلومات والحقائق التي بدأت تتجمع في الآونة الأخيرة عن طريق البحث العلمي الشاق الطويل تشير الى أن هجرة الطيور تقودها معالم خاصة من الخصائص الجغرافية . حتى إعتقد ستفانس أن الطيور تهاجر بناء على ذكرياتها من الخط البحري — البري (الخط الساحلي القطبي) . وقـد لاحظ كاورد نفس

الشيء بالنسبـــة لطيور (السنونو) . وعلاوة على ذلك فإننا نجد أن الطيور الصغيرة التي تضل طريقهـــا أكثر بكثير ممـــا هو معتقد . (م ١٥٠ ص ٨٤ ، م ١٧٤ ، م ٤٠ ، ص ٣٦٥) .

للطيور بدون شك قوة تستحق الذكر لتعيين الاتجاه ولكن ليس ثمة دليـل يثبت أن هذه القوة تختلف اختلافاً نوعياً عما هو موجود لدى بقيـــة الحيوانات الأخرى. فالحمام الزاجل يشار اليه على أنه دليل قاطع لا يقبل المناقشة على غريزة تعيين الاتجاه الغيبية لدى الطيور كافة « فالكل » يعلم انك تستطيـع أن تأخذ حمامة زاجلة في قفص مقفل لمئات الأميال بل ألوفها ثم تطلقها من عقالهـا لتطير وتدور في الجو دورتين أو ثلاث ثم تعود الى بيتها . وهي تطير فوق أراضٍ لم ترها من قبل .

ويعرف هذا « الجميع » عدا مدربي الحمام الزاجل . إن هؤلاء الذين يقضون حياتهم وهم يدربون الحمام الزاجل يؤكدون بأن هذه الطيور يجب أن تعلم أن تطير الى أقفاصها باطلاقها من مسافات قصيرة تبدأ بما لا يزيد على العشرة أقدام . وبتكرار هذه العملية وزيادة المسافات واطعامها لدى كل عودة (وتقترف هذه الطيور عدداً كبيراً من الأخطاء) . كما يؤكدون بأنك اذا أخذت الطيور هـذه بعيداً عن أي جزء مرئي من معالم الطريق فمن الواجب أن لا تتوقع عودتها ممـا يؤكد أقوال العلماء في أن الطيور تقودها ذاكرة بصرية ؛ كما هو الحال في معظم الحيوانات الاخرى . هذا وتشير الدراسات الى أن هذه الذاكرة القويـة تختلف بين أفراد النوع الواحد كما أمكن انتاج أفراد ذوي ذاكرة قوية بتحسين النسل. ولعل جهاز الاشارات لجيش المشاة الأمريكي هو أكبر منظمة في العـالم لتدريب وانتاج الحمام الزاجل؛ وهذه الدائرة لا تأمل برجوع أي حمامة من حمامها الزاجل على مسافة تزيد على الخمسة والعشرين ميلاً . هذا بعد تدريب دقيـــق ومضن . (م ١٥٠ ص ٨١ ؛ م ٢٧٣ ، ص ١٤ ؛ م ٢٢٤ ص ١) .

أما النحل والدبور فهي لا تترك خليتها بعيداً إلا بعد أن تدور حول هـذه الخلية مرات (م ١٩٢) . وهناك رابطة أخرى غيبية بين الطيور والعالم الغيبي

بالنسبة للجمهور فهم يعتقدون أن الديكة تصيح بانتظام زمـــني دقيق . فقسم يعتقد انها تصيح كل ساعة وقسم يعتقد انها تصيح كل عشرين دقيقـة وقسم يعتقد انها تتبع اختلافات الزمن في المناطق المختلفة . مع أن الكثير من البشر لا يعرف بوجود اختلافات زمنية بين مدينة وأخرى . وهكذا نجد أن للديكة امكانيات ومعلومات أوسع من تلك التي لدى البشر !

ويعتقد البعض أن الطاووس يخجل خجلاً فظيعاً من رجليـــه القبيحتين فهو ينزل ذيـــله الجميل انكساراً ومـذلة حين رؤيتها . إن الواقعة صحيحة ولكن التعليل ملون حتماً بالرغبة القديمة في استخلاص القوانين الخلقية من سلوك الحيوان. إن الطاووس يجب عليه أن يرفع رأسه الى أعلى لـكي ينشر ذيله وحينما ينخفض رأسه الى أسفل ينخفض ذيله بصورة اوتوماتيكية وهذه الظاهرة تظهر بشكل أقل في الديك الرومي . أما أن نعلل ذلك بالكرامة المجروحة فذلك خيـــال محض . [م ١٩ ، ص ٢١٢] .

ولكن أغرب الأساطير هي التي نسمعها عن النعامة التي تدفـــن رأسها في الرمال حين اقتراب الخطر. إن هذه الأسطورة قد تخلفت عن أساطير أبي الهول وغيرها الكثير . إن النساء والرجال قد يستطيعون ان يعيشوا بدون ريش النعام ولكن كيف يعيش الواعظون السياسيون والمتنبؤن دون مثال النعام الخرافي...؟

الفصل الثالث

ذوات الفراء

لو حاولنا تعداد الأخطـــاء الشائعة عن ذوات الأربع فحسب لملأنا مجلدات ضخمة . إذ أدرك الإنسان منـذ فجر التاريخ أن ذوات الأربـع تشبهه شبهاً كبيراً فاجتاحت الأساطير عنها فكره بشكل لا مثيل له . أما إذا درسنا مجمل ملاحظاته وانطباعاته التي كونها عن هذه الحيوانات ، فسنجد أنهـــا لا تشكل مديحاً لقدرته على الملاحظة الموضوعية .

وقد يعتقد البعض أن الصلة الوثيقة بين حيوان معيّن والبشر تؤثر في فهمه له فتقل الأوهام عنه . ولكن الأمر ليس كذلك .

هناك القليل من الحيوانات التي تتمتع بصلة مع الإنسان أقوى من صلة الكلاب به . ولكنها بالرغم من ذلك تتمتـع بأوفر نصيب من الأوهام والأساطير . ولربما كان ذلك بسبب حاسة الشم القوية لدى الكلاب . إن الإنسان يعتمد بالدرجـة الأولى على حاسة الأبصار فلذلك يصعب علينا إدراك ماهيـة السلوك المعتمد على حاسة الشم بالدرجة الأولى . ولذلك لا تمر أمسية مع عائلة ذات علاقة بالكلاب بأي شكل من الأشكال وإلا ونسمع عن قدرات الكلاب الخارقة .

أمـــا إذا بذلت أي مجهود ، مهما كان تافهاً لاختبار القصص التي تسرد على مسمعيك ، أو إذا أبديت الشك فيها فإنك ستثير الكثير من الجدل والكراهية والنفور .

بناء على هذه الأوهام للكلاب قدرة على التنبؤ بالكوارث ، وشعور غريزي باقتراب الموت . حتى لو كان الموت يتعلق بشخص بعيد غاية البعد .

وتجري القصص عن الكلاب دون انقطـــاع . فنقرأ يوماً عن كلب أرسله جنـــدي على ساحل المحيط الهــادي فينطلق إلى أواسط الولايات المتحـــدة ويتعرف الكلب على زوجة صاحبه دون أن يكون قد التقى بهـــا من قبل !!! أو نقرأ عن كلب أمريكي جلس بوقـــار واحتشام عندمـــا عزف السلام الملكي البريطاني ولكنه انتصب واقفاً على الأربع إجلالاً للنشيد الوطني الأمريكي !!! (م ٢٢٦ ص ٧ ، ١٧) .

وللكلاب قــدرة في التعرف على أخلاق البشر ، بأعجب الطرق خاصة إذا كانت الأخلاق شريرة . فقد كتبت سيدة الى مصلحة القمامة الأمريكية رسالة حانقة ، تقول فيها إنها تجاهلت زمجرة كلبها عندما أقبل أحد الزبالين لجمع القمامة وانتهرت الكلب . ولكن ما أن ذهب الزبال حتى اكتشفت بأنه سرق أربعـة فلوس وتفضلت مصلحة القمامة فوعدت السيدة بإعادة الأربعة فلوس إليهـــا . (م ٢٨١ ، ص ١٥) .

وتستطيع الكلاب اكتشاف التغييرات في أخـــلاق البشر أيضاً ، وحتى المؤقت منها . خبرنا ألبرت بيسون تريهيون شارحاً « يبدو على الكلب أنه يدرك التغيّر الخفي الذي يحدث في أخلاقي بعد أن أُنهي كأسي الثالثة . »

وتتمتع هــذه الخرافات بثبات تام في المخيلة الشعبية لذلك لا ندري لم تنفق المصارف والبنوك الأموال الطائلة في تركيب أجهزة التنبيه المعقـــدة ومختلف طرق التأمين ضد السرقة،وشتى أنواع الحراسة والتحصين على أموالها بينما يكفي كلب واحد ممـــا مرّ ذكره لاكتشاف لا اللصوص فحسب بل وحتى المختلسين والمزورين والمضاربين بالشركات الوهمية بل وربما حتى مدققي الحسابات . قـد

يكون السبب ، هو خوف مدراء البنوك من أن يكتشف الموظفون سكرهم !!

ويعتقد البعض أن الكلاب كالحمام الزاجل تتمتع بحاسة غيبية تحدد الأبعاد والاتجاهات . فالكلب بناء على ذلك يسافر مئات بل ألوف الأميال عبر مساحات شاسعة من الأراضي الغريبة ليصل الى هدفه . وتمتلىء أعمدة الصحف بالقصص عن الكلاب التي تظهر فجأة على عتبة أبواب أصحابها الذين تركوها في مدن بعيدة . ولكن نفس هذه الجرائد لا تخجل من أن تنشر في صفحات الإعلان ، إعلانات لأناس أضاعوا كلابهم في نفس الحي الذي يقطنون فيه وهم يرجون من القراء إعادتها لهم مقابل مكافأة .

ويحدثنا ستفنسن الذي يتمتع بخبرة واسعة عن الكلاب وخاصة كلاب الزحافات ، لدى الاسكيمو ، فيقول إن كلاب الزحافات لا تستطيع أن تجد طريقها بل وكثيراً ما تضل هدفها في الثلوج . ولقد كاد أحد الصيادين من الأسكيمو أن يفقد حياته إذ ضل طريقه في عاصفة ثلجية بعد أن ترك المقود لكلابه ظناً منه أنها ستجد طريقها الى القرية . ولعل الطريف في أمر هذا الصياد أنه التقط هذه الفكرة من الأوروبيين . للأسكيمو إيمان عميق في القضايا الغيبية ولكن إيمانهم بذكاء الكلاب لا يرسخ دون أن نساعدهم مساعدة جدية . (م ١٧٣) .

أما القطط فلم تألف الإنسان إلا مؤخراً (نسبياً) ، لذلك لم تزل على جانب من الوحشية وبالتالي مصدراً للخوف . ولم يخفف من هذا الخوف تعاليها واستقلالها وعاداتها في النوم ، والتباين الشاسع بين ما تظهر من الوداعة وما تبطن من الشراسة .

وغالباً ما تقمصت الشياطين شكل القطط . ولكل ساحرة شمطاء رفيق دائم يرضع من ثديها ويطير معها في جولاتها في الليل البهيم . ويكره الكثير من البشر القطط . وهو شعور غامض بالنسبة للبعض والبعض الآخر لا يطيق وجودها . ويدرك وجودها في الغرفة وان لم يرَها . كما يعتقد البعض أن القطط تجلب سوء الحظ وخاصة القطط السود ... وهكذا دواليك . (م ٦٢

ص ١٤٩ – ١٥١) وإذا الححت عليهم بطلب تفسير لمثل هذا الموقف ضد القطط قيل لك أنها « تمتص أنفاس الأطفال » ثم يبدأون بسرد القصص المروعة عما يدّعون . فيما عدا هذه القصص ليس ثمة دليل واحد يؤيد ذلك . وبالرغم من أن بعض القطط قد جثمت أو نامت على وجه طفل على سبيل الصدفة الأمر الذي قد يودي بحياة الطفل عن طريق الاختناق فإن هذا التعليل ليس حتى بتشويه لمثل هذه الحوادث . انه امتداد لخرافات مصاصي الدماء وما شابه . هذا علاوة على خوف الإنسان من الحيوانات التي تحتفظ بشيء من استقلالها بالرغم من صغرها ، وارادتها في الدفاع عن نفسها لدى أي اعتداء عليها .

وهنالك عدد من المعتقدات التي تخص بعض الحيوانات الأليفة لا بد من المرور عليها ولو سريعاً .

يعتقد الناس أن الثيران تغضب لرؤية اللون الأحمر اعتقاداً راسخاً يصعب اقتلاعه أو حتى مناقشته . ولكن علماء النفس أثبتوا بشكل لا يدعو إلى الشك أن الثيران مصابة بعمى الألوان . والطريف في الأمر أن مصارعي الثيران يعترفون بأن ما يثير الثور هو حركة القماش لا لونه. (١٩٣٢ ص ١٣٧ ، م ٥٩ ص ١٢٩) .

والفئران حيوانات بيتية وإن لم تكن أليفة ، مصدر خوف شامل ، ولموجبات جيدة ، ولكنها لسبب ما لم تصبح مصدر إلهام في الأوهام الشائعة فيما عدا الوهم في أنها تهجر السفن الموشكة على الغرق . فالمعتقد أن الفأر يمتلك « حاسة غريزية » تستشف الكوارث وتدفعه إلى طلب النجاة بدناءة وفي الوقت المناسب . أما ما يفعله الجرذ فعلاً ... فليس مهما بالنسبة للعامة ولكن الفأر الكنائي يهرب من السفن المشرفة على الغرقة .

ولقد حاول بعض المفكرين ، الذين يعتقدون أن لا بد للمعتقدات الشائعة من جذور في الحقيقة والواقع أن يحللوا نشوء هذا المعتقد فقالوا إن سبب هروب الفئران من السفن لا بد أن يكون ناشئاً في الأساس عن تشقق السفن القديمة بحيث يتسرب الماء إلى أعشاش الفئران ومساكنها فتظهر الفئران على

السطح ، ولكن خاب فألهم . فالجمهور لا يريد فأراً تعيساً مهجوم الدار ، بل فأراً خسيساً يستشف الغيب . إذ حتى المثاليين من البشر يهجر السفينة حينما يبدو أنها ستغرق . ولكن الفأر الكنائي يهجر السفينة المشرفة على الغرق بالرغم من أنها تبدو صالحة للإبحار... ولكنها ستلقى مصيراً مفجعاً لا يدل على حدوثه سوى هرب الفأر .

وهذا المعتقد ، هو خير مثال على ما يمكن أن يؤكد بثقة تامة لانعدام وسائل إثبات عكسه . إذ لكي نستطيع أن نثبت عكسه علينا أن نعمل على استخلاص ما لا يحصى من السفن الغارقة من البحر ثم ندرسها لنثبت صلاحيتها للابحار ثم نبحث في كل منها عن بقايا الفئران التي غرقت فيها ان وجدت . ولكن بما أن الفرض لا يستحق الجهد المبذول ... فأنت تستطيع دون خشية من معارضة أن تصر على أن الفأر يهجر السفن الغارقة ... وتستمر في هذا الإصرار .

والمعتقد أن الثعلب ماكر خداع وحكيم فيما يخص مصالحه بشكل يدعو الى الإعجاب . ويصوّر الثعلب في الأدب الشعبي بأنه متمكن من خداع صياديه . فهو ينفخ نفسه وكأنه قد مات ثم يهرب ويسير عكس اتجاه الماء في السواقي الجارية لكي يحتال على الكلاب التي تقتفي أثره ، ويركب ظهور الأغنام لنفس الغرض . ويؤكد لنا أحد الكتاب أن الثعلب يجري على سكة الحديد تماماً قبل أن يمر القطار لكي يدمّر القطار آثار رائحته ولاحتمال دهس القطار للكلاب التي تقتفيه . أما المصدر الذي حصل منه هذا الثعلب على نسخة من جداول مرور القطارات فلا يذكره الكاتب لنا مع الأسف . (م ١٥٨) .

وهذا الكاتب لا يحصر خداع الثعلب على كلاب الصيد ومساعديها (الصيادين) . فهو يخبرنا أن بعض الثعالب تحمل الطعم المسموم الذي يترك لها وتضعه في جحور الحيوانات الأخرى التي أساءت إليها . ولقد كتبت مجلة أمريكية مؤخراً عن ثعلب تخلص من البراغيث بطريقة مبتكرة . إذ تراجع في بركة ماء وقد أمسك بفمه بقطعة من الصوف . فالبراغيث تخلصاً من الغرق

تجمعت كلها في قطعة الصوف . وما إن غمر الماء الشعب حتى ترك قطعة الصوف تطفو وبذلك افترق عن « معذبيه الصغار » .

وهؤلاء الذين لا يستطيعون الحصول على هذا العدد من المجلة ، يستطيعون أن يجدوا هذه القصة في Speculum Mumdi لجون سوان عام (١٦٤٣) (م ١٧٩ ص ٤٤٣) وهو يقول إنه استقاها من Historica لاولاوس ماكنس عام (١٥٥٥) واولاوس لا يخبرنا من أين استقاها !

والذئاب تظهر بشكل أوسع من غيرها في الأدب الشعبي ، وصورتها على العموم أكثر الحيوانات اللاأليفة تشويهاً في هذا الأدب . وفي مخيلة هذا الأدب تتجمع الذئاب بقطعان تحت قيادة ذئب كبير حكيم أشهب اللون عادة . وهي متوحشة وتأكل لحوم البشر وتتعاون لنصب الكمائن وشن الهجمات . وحين تريد أن تخفي عددها تسير بصف واحد يقتفي فيه كل ذئب موقع مخلب الذي قبله . وهي تحب لحم البشر حباً جماً وخاصة لحم العرائس . وتحاصر القرى وتهاجم المدن التي تزيد نفوسها عن مليون نسمة . وتهاجم القطعات العسكرية وتعتلي القطارات السريعة . ولعل مسافري القطب قد تفوقوا عليها بامتطاء متن الجو . ولكنها مع ذلك تتجمع لدى رؤية الطائرة ثم تركض وتقفز تحتها . (م ٣٢ ؛ م ٢٤٨ ص ٥٢١ ؛ م ١٧٤ ص ١٧٨) .

وهناك خصائص أخرى « معروفة » : فهي تعوي في أوقات معينة من الليل وتشع عيونها ضوءاً يجعلها ترى في الظلام الدامس . وبعضها يتبنى صغار البشر وخاصة تلك التي في الهند !! (أنظر فصل خمسة)

هذه هي صورة الذئب في الأدب الشعبي اليوم ، ولعلنا نجد بعض الراحة في أن هذه الصورة أقل إرعاباً مما كانت عليه في الماضي ، إذ إن نظرة واحدة منها كانت تفقد الانسان نطقه ، كما كانت تتمثل بزي الآدميين لكي تباغت ضحاياها ولكن الزمن خفّض هذه الأوهام ، وبقي منها ما يرعب على أي حال .

لعل أعنف صدمة يتلقاها قارىء المجلات تظهر في اكتشافه أن الذئاب لا تتجمع بقطعان . إنه مستعد للاعتراف بأن الكثير من القصص عن الذئاب مختلق

ولكن من لم يسمع « بقطعان الذئاب » ؟ لعـله من الأسهل القول بأن الخراف لا تتجمع بقطعـان !!! ان ستفانسن الذي رأى ألوف الذئاب في حالتها الطبيعية يؤكد أنه لم يرَ في حياته قطيعاً من الذئاب ، بمعنى أنـه لم يرَ مجموعة من الذئاب تزيد عن الأب والأم وصغارها . ولقد سلّى نفسه لعـــدد من السنين بتعقب كل الأخبار عن قطعان الذئاب التي سمع بها ولم يتحقق أي منها. وهو مقتنع تمـــام الاقتناع أن « قطعان الذئاب » خطأ شائع . ويشاركه في هذا الاقتناع الدكتور نلسن رئيس مكتب المسح البيولوجي في الولايات المتحدة ، الذي شاركه في هذا البحث . (م ١٧٤ ص ١٦٤ ، م ١٧٥ ص ٣٣٤) .

وكذلـــك الأمر في كل القصص التي تروي مهاجمـة الذئاب للبشر صغارهم وكبارهم ، عرائسهم وعرسانهم ومدعويهم ، صياديهم وجنودهم ... الخ . ليس هناك حادث مسجّل واحد أكيد على أن أي انسان قد تعرضّ لهجوم ذئب أو قد تمّ افتراسه . ولقد قام مكتب المسح البيولوجي في الولايات المتحدة بالبحث في كل خبر نشر أو وصل اليه عن انسان قتلته الذئاب في الولايات المتحدة وكندا ولقـــد توصل الى النتيجة التالية « دون أي استثناء ثبت انها مختلقة » . إن الذئاب مثل بقية الحيوانات المشابهة لها كثيرة الفضول فعلاً ، ولكنها غايـة في الحذر . ولقد كتب السيد اكسل نيلسون Axel Neilsen وهو تاجر فراء قضى ١٥ سنة في شمالي كندا وكانت له تجارب واسعة مع الذئاب حول قصة نشرتهـا مجلة التايم . فيقول « طوال خبرتي ، ومن خلال محادثاتي مع الهنود الحمر ، مـع العلم أني أتكلم لغتهم بطلاقـة ، لم أكتشف ذئباً واحداً يفوق في خطره أي ثور اعتيادي أو أنثى خنزير مهتاجة أو ذكر وز غاضب » (م ٣٠٠) .

أما أسطورة عواء الذئاب حسب توقيت الساعة ، فلا تصمد أمام الاختبار العلمي أكثر من سابقتها. تدل الملاحظات في حديقتي حيوان سنسناتي وبروكفيلد على عدم وجود أي انتظام في عواء الذئاب . ولكن قـــد لا تعتبر الملاحظات هـــذه صحيحة ، على أساس ان الذئاب تعوي مع دقات الساعة في حالتهـــا الطبيعية فقط .

يعتقد العامة أن أعين الحيوانات التي تلتمع مثـــل أعين القطط والذئاب ، تضيء في الليل . وقد يكون هذا صدى لنظرية الاشعاع الاغريقية القديمة والتي قالت بأن العيون ترسل ضياء بشكل خيوط رفيعة تلمس الاشياء المرئية فتحدث الرؤية . ولكن الاحتمال الأكبر ان هـــذا خطأ مستمد من رؤية بريق أعـين الحيوانات في الظلام . فيعتقدون بأن هذا اشعاع وليس انعكاساً . ويؤدي انعدام مـادة التبتن Tepetun في أعين البشر الى عـــدم بريقها بالرغم من اننا نسمع أحياناً عن عيون البشر المضيئة . (م ٢٧٧ ، ص ٢٢٥) .

ويؤمن البشر بقدرة الكثير من الحيوانات على الرؤية في الظلام التـام بالرغم من عدم وجود حيوان واحد يمتلك مثل هــذه القدرة . وتمتلك بعض الحيوانات فعلاً عيوناً تستطيع الرؤيـــة في الظلام النسبي . ولكن معظم الحيوانات تمتلك أعضاء حسية تساعدها في حركتها . فتتمتع كثير من المخلوقات بشعيرات حسية طويلة على شفاهها العليـا تساعدها كمجسات . كما يستعين عـــدد من الحيوانات بذبذبات الهواء والماء .

والخفاش من هذا القبيل ، فهي الحيوانات الوحيدة التي تستطيع الطيران في الظلام المطلق . ولكن هذه القدرة ليست ناجمة عن الرؤية بل عن قدرة سمعية خارقة . وهذه حقيقة تلقي ضوءاً على عملية التطور العلمي .

لقد عرف البشر منذ قرون ان الخفاش ، إذا أصابـــه العمى ، يستطيع الطيران متجنباً العقبات الدقيقة التي قـــد تعترض سبيله . فهـــو يتجنب حتى الاسلاك الرفيعة المعلقة في طريق طيرانه. ولقد ابتكرت شتى التجارب لتحليل هــذه الحقيقة . فقد قـــام الباحث الايطالي « سبالانزاني » بسد أنوف الخفاش وافواهها ووجد بانها تفقد قدرتها هذه . وقد استنتج من ذلك انها تتمتع بحاسة شم قوية تقودها في تجنب العقبات . اما التجارب الحديثة فقد دلت بأن ذلـك استنتاج خاطىء . فقد وجـــد بأن الخفاش يطلق صريراً رفيعاً باستمرار اثناء طيرانه . وتبلغ ذبذبات هذا الصرير حوالي (٥٠،٠٠٠) ذبذبة في الثانية وهذا يفوق سمع البشر. كما تطلق هذه الاصوات بسرعة خمسة وعشرين صريراً في الثانية

الواحدة وقـــد تصل الى خمسين صرخة في الثانية لدى الاقتراب من العقبات . وهكذا نجد بأن الخفاش يمتلك جهازاً حسياً يشبه الرادار . فهـو يصيخ لاصداء صريره المتواصل : فاذا كان ثمة عقبة في الطريق فهو يسمع صدى صريره عنها . وهذا مثال رائع على الطريقة التي يساعد فيها التقدم في مجال معين على اكتشاف حقائق في مجال آخر . وهو يدل على تشابك المعرفة فلم يستطع علماء الحيوان فهم هذه الظاهرة حتى تمّ التقدم في مجال علمي يبدو بعيداً عن علم الحيوان ، ألا وهو حقل الألكترونيات . وهكذا ظهر لنا بأن « سبالانزاني » عندمـا أغلق أفواه الخفاش منعها من اطلاق صريرها المتواصل .

ويلي الذئاب ، في الاساطير عن الحيوانات الوحشية ، الفيلة والقردة فيقـال لنا إن الفيلة تتمتع بذاكرة اسطورية . وتروي لنـــا الاسطورة الكلاسيكية الآتية : يقوم متفرج مغرم بالمزاح وهو يزور السيرك باعطاء الفيل شيئاً من التبغ أو التمباك بدلاً من قطعة الحلوى أو الفول السوداني الذي يحبه الفيـل . وتمضي سنون وسنون على هذا الحادث ، وإذا بالفيل يرى في مدينة أخرى ذلك الذي قام بمزحته السمجة ، ويكون ذلك الرجل قد نسى كل شيء عنها . وإذا بالفيل يقتلع كل السلاسل التي تقيده ، ويقطع كل الحبـــال التي تربطه ، ثم يهجم مرة واحدة على الرجل ويسحق دماغه بلطمة من خرطومه ، ثم يعود الى مكانه بوقار وجلال وقد ثأر لنفسه .

أما اذا شرحت لأحدهم خطأ هذا الاعتقاد مبيناً أن التاريخ لم يسجل حدثاً واحداً من هذا النوع بدا ردّك ضعيفاً متهافتاً بالنسبة له . ولكنه قـــد يجد في تصريح فرانك بك ، صاحب السيرك الشهير ، وزناً فيصدقه عندما يقول بانـه لا يعتقد بأن الفيلة تتمتع بذاكرة قوية . (م ٢٥) .

أما القردة فلم تشكل في هذا العصر مصدراً للاخطاء الفاحشة . وذلك لأن حدائق الحيوانات قد جعلت منها منظراً مألوفاً.كما ان « داروِن » قلب بنظريته التسلية التي كان يمارسها البشر في التفرج عليها إلى شعور يشابه الضيق وعـــدم الراحة .

وبالرغم من ذلك لا زالت بعض القصص تدور عن نوع من التنظيم الاجتماعي والتعاطف العائلي فيما بينها . ولكن أبسط الناس اليوم يرفض رفضاً باتاً تأكيدات « أوجلبي » بان القردة تدخن وتقامر وتنفق ما تحصل علية من النقود في دور البغاء كما يرفض قصص « بلتي » عن القردة التي تلعب الشطرنج . ويؤكد لنا اللورد « مونبودو » بأن هناك أصنافاً من القردة تبني البيوت وتستعبد البشر لكي تتمتع بوقت الفراغ في العزف على القيثار . ولكن القرن الثامن عشر اعتبر « مونبودو » « متحمساً » بينما أخذ القرن التاسع عشر مأخذ الجد تصريح « ستانلي » بأن القردة تحمل المشاعل لدى سفرها ليلاً . (١٣٧ ص ٥١٥) (م ١٨٥ ، ص ١٨) (م ١٦١ ص ٤٤٩) .

لقد تدهورت القصص عن القردة حتماً . فليس لدينا اليوم ما يماثل هذه القصص الذهبية. ولم يتبق منها سوى الرأي القائل بان القردة تفلي بعضها البعض بحثاً عن القمل ، وان الغوريلا هو أكثر الوحوش ضراوة .

بالرغم من أن القردة تبدو وكأنها تفلي بعضها الآخر بحثاً عن القمل فهي في الحقيقة تمارس عملية أغرب من عملية التفلية وتدعى عملية « التجميل » . وإذا وجدت القردة أثناء عملية التمشيط هذه وهي تحك لبعضها الآخر قملة فالاحتمال كبير بانها ستأ كل القمل ولكن ذلك لا يحدث غالباً . ويشير « زوكرمن » إلى ان القمل قلّما يوجد في القرد،وانوجد فانه يكون قد انتقل إليه من المتفرجين. (م ٢٠٩ ، ص ٨٦) (م ٢١٠ ص ٨٦) .

أما عن الغوريلا فمن الطبيعي أن ينتشر هذا الرأي . فهناك من الناس من رأى غوريلا في حياته ، ولكن معظم الناس رأوا الأفلام المتحركة وصفحات الاعلانات والصور الكاريكاتورية التي تؤكد بان الغوريلا حيوان ضارٍ ، يعلو فمه الزبد ، يحمل في يمناه عذراء قد أغمي عليها ، وفي يسراه خنجراً يقطر دماً . كما يرسم أحياناً وهو يدوس بأقدامه البيوت فيسحقها بساكنيها .

وقد يجد عالم النفس في ذلك شيئاً مثيراً . إذ اختار البشر أقرب الحيوانات اليهم ليرمز لقِمّة القسوة والعنف . ولكن سيجد عالم الحيوان في ذلك تشويهاً

كبيراً للحقيقة. الغوريلا في الواقع حيوان ضخم يفوق البشر في قوته عدة مرات. يصل وزنه إلى خمسمئة رطل أحياناً. ويبلغ عرض صدره خمساً وخمسين بوصة وطول ذراعيه، من أقصى أصبع لأقصى أصبع، ثمانة أقدام. انه يستطيع ن يهشم بندقية كما نكسر عود ثقاب. ويستطيع أن يقتل رجلاً بلطمة واحدة من يده.

ولكن بالرغم من قدراته الكامنة هذه فهو لا يطلب شيئاً من البشر سوى أن يدعوه بسلام، انه في حالته الطبيعية، حيوان عائلي صرف. إنه نباتي ومحب للسلام ضمن الحدود المعقولة. ولا يقاتل حتى يستثار. وحتى عندما يهاجم يحاول الهرب وان لم يستطيع ذلك فهو يحاول أن يخيف مهاجميه. انه ليس حيواناً أليفاً، ويصبح أقل ألفة عندما يكبر ويزداد حكمة، شأنه شأن مثيله الانسان. ولكنه لا يهاجم البشر. وان أي انسان هاجمه الغوريلا يكون قد أنفق الكثير من الجهد في استثارة الحيوان. وعندما يقنص الغوريلا وهو طفل رضيع يكون شكله مثيراً للشفقة لانه عديم المقدرة تماماً. ولكنه حين يكبر يصبح مستقلاً فردياً وأقوى من أن يسيطر عليه ويرعاه أحد، فيوضع لذلك وراء القضبان، وهو لا يحب ذلك مطلقاً. ويوضع الانسان وراء القضبان أحياناً ولكنه لا يحب ذلك أيضاً. ويفعل غالباً مّا يفعله الغوريلا فهما يدوران داخل القفص متجهمي الوجوه، يكرهون حراسهم كما يكرهون هؤلاء الذين يتفرجون عليهم.

إن هذا التمجيد للقوة العاتية – إذ أن الخوف المبالغ فيه هو شكل من أشكال التمجيد – يعتبر اتجاهاً جديداً في علم الحيوان الشعبي. ولربما كان ذلك انعكاساً عن تنامي عبادة القوة الضارية. إذ إن كل عصر يحاول أن يوسع مفاهيمه لكي تشمل الأفكار المختلفة عن الحيوان. وهؤلاء الذي رأوا في السماء رمزاً لمجد الآلهة لم يروا سبباً يعتق المخلوقات الأرضية من هذا الأمر. ولقد وجد هؤلاء الذين يؤمنون بحكمة الطبيعة براهينهم فيما أطلقوا عليه اسم الغرائز. أما القرن الثامن عشر الذي مجّد العقل فوجد الطبيعة عاقلة منظمة، بينما فضل القرن التاسع عشر أن يتأمل في « قانون الغاب » و « البقاء للأصلح ». وثمة

توضيح طريف لهذه الظاهرة في مثال الفئران التي تدعى « لمنج » ، وهي فئران صغيرة تقطن سلسلة الجبال الوسطى في السويد والنرويج . ويعتقد أنها « تهبط الى السفوح في أعداد هائلة وهي تعدو بخط مستقيم حتى تصل البحر ثم ترمي نفسها فيه لتغرق » . أما التحليل الذي يعطى لهذه الظاهرة فهو « بقايا من سلوك كانت تمارسه الفئران هذه عندما كان بحر البلطيق والبحر الشمالي جافاً فكانت تسيطر عليها غريزة مستبدة تدفعها الى الهجرة في هذا السبيل . وبينما كانت هذه الغريزة مهمة في العصور الماضية للبقاء فقد أصبحت الآن مميتة » . (م ٣٢٨ ، جزء ١٣ ص ٩٠٥) .

أما « اللمنج » فلا يفعل أي شيء من هذا القبيل . (م ٥٦ ، ص ٢١٣ — ٢١٦) وما هبوط الفئران من الجبال الى السفوح إلا نتاج لتكاثرها بشكل يؤدي الى هجرة بعضها بحثاً عن الطعام . وهذه الحركة هي حركة فردية عشوائية غير منتظمة وتطول لسنين عديدة . وتستطيع هذه المخلوقات السباحة ، فتعبر الغدران والجداول الصغيرة وقد يصل بعضها الى البحر فيسبح فيه الى أبعد مما يستطيع ثم يغرق . أما مسيرة الموت المخيفة وهذه الغريزة القاتلة فما هي إلا نتاج لتشاؤم العصر الحديث. إنها نتاج للبحث عن أدلة « للجيل الضائع » في مخلوقات الطبيعة ونتاج للبحث عن أدلة « للجميع الضائع » في مخلوقات الطبيعة ونتاج للبحث عن إثبات لغريزة الموت .

إن مثل هذا الخطأ لا يمكن أن يعتبر خطأً فاحشاً سوقياً فهو خطأ المثقفين. والاحتمال كبير بأن رجل الشارع لم يسمع بهذا مطلقاً ولكن مثل هذه الأساطير تظهر في المجلات الأدبية الرفيعة التي تركع أمامها كرمز للحياة . (م ، ٢٥٣ ؛ م ٢٥٤ ، م ٢٥٥) .

كان « توبسل » يعرف عما يتحدث « فالتأملات السماوية عن المخلوقات الأرضية » قاعدة ناجحة . وهكذا نجد من المجلات ما تصطرع في صفحاتها الحرب الضارية بين المخلب والناب كتعبير عن مبدأ التنافس ، بينما نجد مجلات أخرى تعبر عن جمال الطبيعة وحكمتها ، ويقوم غيرها بالبحث عن فئران تدفعها غريزة الموت الى لقاء حتفها .

الفصل الرابع

الطبقات الدنيا البكماء

لقد استحوذت الحيّات والأفاعي على خيـــال البشر دائماً . واعتبرت ، في القدم ، هذه المخلوقات عناصر ورسلاً إلهيّة تفعل الشر عادة ، وتؤدي العقاب . أمـــا في العصور الوسطى ، فقد نسي البشر قربها من الآلهـــة ولكنهم كانوا « يعلمون » أنهـــا ترضع من البقر ليلاً (والأمر جلي لمن يلاحظ كما يقول توبسل) كانت لديها القوة أن تعيد ربط أوصالهـــا بعد أن تقتطع . وهي تبتلع صغارها لدى الخطر ، ثم تستفرغها عندما يزول . وتحمل لسعها في ذيلها .

ولقد أضاف عصرنا النيـّر هذا ، لهذه المعتقدات القديمة ، معتقدات جديـدة فنسب للحيّات نظرة مغناطيسية تشلّ ضحيتها فلا تستطيع حراكاً . والحيات نفسها ، ولا سيما الكوبرا يمكن « سحرهـــا » بالموسيقى . وفيما عـدا الموسيقى كدفاع ضد الأفاعي والحيات ، لا توجد وسيلة أفضل من حبل مصنوع من شعر ذيل الخيول . إذ حالما تحصر الأفاعي في دائرة من هذا الحبل لا تستطيع الخروج من هذه الحلقة المغلقة . وبالرغم من أن الأفاعي تعتبر مرادفـــة للخيانة والغدر فلديها قيمها الأخلاقية الخاصة . فالحية ذات الأجراس تنـــذر أعداءها بشهامة

وفروسية قبـل أن تهاجمهم . أمـا الحيّات ذات الأجراس التي تشاطر كلاب البراري مساكنها فهي تمتنع بشهامة عن عض مضيفها . كما يعتقد أن بعض أنواع الأفاعي تسافر أميالاً ومسافات شاسعة للثأر لزوج مقتول . والكثير منها يلدغ نفسه بأنيابه السامّة مفضلاً الموت على العار . ليس ثمة من هذه المعتقدات القديمة والحديثة مـا له أساس في الحقيقة والواقع ، فأفاعي الحليب استمدت اسمها من أسطورة Topsell توبسل . واستحقاقها لهذا الاسم أو جدارتها به لم يكن جلياً إلا لتوبسل وحـده . فالحية لا تمتلك الشفاه المتحركة ، ولا القـدرة على خلق الامتصاص اللذين لا تتم الرضاعـة بدونهما . ولذلك يستحيل على هـذه الحيات الرضاعة من البقر ؛ حتى لو وجدت البقرة الصبور التي تتحمل أنيابهـا الحادة . أما الحية الزجاجية (وهي في الواقع سحلية عديمـة الأرجل) فهي تستطيع فعلاً أن تسقط جزءاً من ذيلها شأنهـا شأن السحالي ، ولكن لم يرَ ، حتى الآن ، أي شخص سحلية تعيد إلصاق ذيلها . وتقوم بعض أنواع الأسماك بحمل صغارها في أفواهها . ولكن حية الطوق (Hoop Snake) لا تفعل ذلك رغماً عن المعتقد الشائع . كما أنها لا تضع ذيلها في فمها ولا تدحرج نفسها كالعجلة بالرغم من اسمها . (م ١٣٢ ، ص ٢ – ٣) (م ١٣٢ ، ص ٧ و ص ٣١) .

أما هؤلاء الذين يعتقدون أن الأفاعي تلسع[١] فينقسمون الى قسمين :

قسم يعتقد أن الحيّة « تلسع » بلسانها المشقوق ، وقسم يعتقد أنها « تلسع » بمؤخرتها كالنحل . وينتمي شكسبير للجماعة الأولى فهو يشير الى لسع الأفـاعي إثني عشرة مرة كما يشير الى اللسان المشقوق بالتخصص مرتين . أمـا ملتن فقد أسند النهاية الأخرى . فهو يؤكد أن الذيل هو موضع اللسع . ويتفق مع ملتن ، جوسر والانجيل ، وكذلك ألوف من الناس الذين يعيشون اليوم . فلقد أجريت في جامعة أمريكية دراسة كشفت أن مـا يزيد على نصف التلاميذ يعتقدون أن الحيات تلسع . ولقد انقسم هؤلاء بالتساوي بين النهايتين. [م١٦٣، م٣٥، م١٢٤] .

وتتأصل فكرة شل الأفـاعي لضحاياها في نفوس البشر بشكل أعمق ؛

---

١ – نفرق هنا بين لسع Sting ولدغ Snake bite . (المترجمان)

ولكن لم يلاحظ مثل هذا الأمرفي حدائق الحيوانات حيث تطعم بعض الأفاعي الضخمة بفرائس حية . فالوجبة المسكينة الصبورة تنتظر في القفص أياماً قبل أن يقرر الأفعى ابتلاعها . وخلال تلك الفترة يبدو أن الآكل والمأكول لا يشعر نهائياً بوجود الآخر . [م ١٢٦ ، م ٢٠ ، ص ٥٢] .

لا يمكن أن يعتبر أي تمثيل للهند في الوقت الحاضر « واقعياً » إلا اذا احتوى على صورة ساحر الحيات وهو يراقصها على أنغام نايه . ولكن الحقائق تقول عكس ذلك . فقد قام ديتمارس بدراسة طريفة توصل بنيجتها الى أن الموسيقى كموسيقى لا تهم الحيات مطلقاً ، بل على العكس من ذلك يبدو أنها تستجيب بانزعاج شديد لبعض النغمات شأنها في ذلك شأن الكلاب . ويعتقد بعض العلماء ان اهتزاز الكوبرا هو نتيجة لحركة جسم المدرب واهتزازه. (م٤٩، م ٢٣ ص ٧٩ م ١٤٩ ص ٢٦٥) .

ويبدو ان معظم الحيوانات تكره الموسيقى . فلقد قدم تومي دوروسي وجوقته الموسيقية خدمة من أجل تقدم العلم عندما اقاموا حفلاً خاصاً للقردة في حديقة حيوانات فيلاديلفيا وعزفوا فيه . ولقد وجد علماء الحديقة أن استجابة القردة كانت سلبية قطعاً . وتقدم مدينة (سنسناتي) حفلات الاوبرا الصيفية في حديقة الحيوانات ويبدو أن أصوات مغني ومغنيات الاوبرا تدفع كلاب البحر والفقمات الى اطلاق صيحات متقطعة ، ولم يقرر الى الآن فيما إذا كانت صيحات اعجاب أو استياء .

أما أخلاقيات الأفاعي فلا تصمد أمام البحث العلمي أكثر من جمالياتها . ففروسية ذات الاجراس معتقد لا أساس له . وعلماء الحيوان ليسوا مقتنعين ان الغرض من الصوت الذي تطلقه هو الانذار ، وقد اعتقد دارون مثلاً أن اطلاق هذا الصوت وسيلة للجذب الجنسي . والملاحظ ان أية استثارة تؤدي بالأفعى إلى ان تطلق هذا الصوت. وطبعاً إذا ربط أي حيوان بين هذا الصوت والأفعى ذات الاجراس فليس ثمة ما يمنعه من اعتباره انذاراً . ولكن هذا أمر آخر .

إن الأفاعي ذات الأجراس تعيش أحياناً في جحور كلاب البراري ولكن

هذا التزامل ، كجميع أنواع التعايش الحياتي ، لا يمكن اعتباره اتفاقاً تعاقدياً كما يشيع بين الناس . فالافعى في هـــذه الحالة دخيلة ، كما يمكن ان نفترض ، ودخيلة غير مرحب بها . ولكن ليس هناك ما يستطيع ان يفعله هـــذا الجرذ المسكين . وإن لم يلدغ فبفضل نشاطه وسرعة حركته . (م ١٣٢ ، ص ١٠٨).

وتحتل السلاحف والحرباء والضفادع ، وهي زواحف أخرى ، مقامـــاً مرموقاً في الأدب الشعبي . فيعتقد الأطفال أن السلحفاة لا تموت إذا قطع رأسها بل تبقى حتى غياب الشمس . أما الحقيقة فانها تموت شأنها شأن كل الفقريات في اللحظة التي ينفصم فيها حبلها الشوكي . ولعل ذلك ناتج عن اعتقاد البعض أن الحركات الارتكاسية ، والتي يحـــدث قسم منها بعد الممات ، مظهر من مظاهر الحيــاة . وطبيعي أن هذه الأفعال الارتكاسية تتناقص قوة مع برودة المساء .

ولقد أصبحت الحرباء رمزاً للتلون والتشبه بالمحيط وغالبــاً ما تعاني الحرباء المسكينة الكثير من الاساءات لفشلها في بلوغ توقعات هذه الاسطورة . ويقوم بائعو الحرباوات بتشجيع هذه الاسطورة لكي يشتريها النـــاس . فيكسبون من الوقت ما يكفي لتـأمين السعر في جيوبهم عن طريق التعلل بان تحول اللون يتطلب شيئاً من الزمن . ويعتبر هؤلاء التجـــار سخط المشترين عليهم جزاء من ظروف العمل ومتاعبه .

والحقيقة العملية ان الحرباء تغير لونها فعـــلاً عندما تنفعل (والبشر مثلها ولكن لدرجة أقل) كما تفعل ذلك عندما تحدث تغيرات مفاجئة في درجـــة الحرارة والضوء.و قد تشابه تغيرات لونها لون المحيط ولكن ضمن حدود ضيقة. (١٣٢ ، ص ١٢٠) .

أما الضفدع المسالم المسكين فلقد كان منذ زمن مصدراً للخوف والخرافات. ولقد كان المعتقد سابقاً انه يخفي جوهرة في رأسه . فهو عندما ينط يعبّر عن قانون خلقي مفاده أنّ الفضيلة غالباً ما تختفي تحت مظهر قبيح . أما القانون الخلقي اليوم لمثل هذه الظاهرة فهو يعبر عن حكمة أكثر إيلاماً ألا وهي « ليس ثمة جريمة كالقبح » .

يعتقد الأطفال في الريف ان الفالول ينجم عن لمس الضفدع. ان جلد الضفدع يفرز مادة تهيج الجلد، وبما أن الفالول يحدث أحياناً كرد فعل ضد بعض أشكال التهيج الجلدي فقد يكون ثمة أساس لمثل هذا المعتقد . ولكن الاحتمال الأكبر هو ان ذلك استنتاج خاطيء من شكل جلد الضفدع الذي يعطي انطباعاً بالفالول .

ان ملمس الضفدع اللزج الذي يشبه الجثة يوحي بأن الضفدع ميت فعلاً، ولذلك فلا يمكن ان يموت وقد يكون ذلك أساساً للعديد من القصص التي يسمعها الانسان عن الضفادع التي حررت من بطن الصخور أو من جوف كتل الباطون المسلح والتي يعتقد انها احتضنت هذه الضفادع لأعوام طويلة أو حتى لقرون دون غذاء أو هواء . إن شكل هذه الاسطورة الكلاسيكي كما تظهر في بعض الصحف ان الحيوان في البداية يبدو وكأنه ميت فعلاً، وإذا به ينتعش، فتعود إليه الحياة لدى تنفسه، فيبدأ في القفز هارباً لدهشة الذين حرّروه . من المعلوم أن الضفدع لا يمكن أن يعيش دون الهواء وذلك لسوء حظ مثل هذه القصص . وحتى إذا تمتع الضفدع بكل ما يريد من الهواء والماء والغذاء فانه لن يعيش لأكثر من سنين معدودات .

ويحتل الكوسج والحوت والأخطبوط من الحيوانات البحرية مكان الصدارة في الأدب الشعبي . والمعروف أن الحوت يُطلق زفيره من فتحة في ظهره . وبالرغم من أن ما ينطلق من هذه الفتحة هو الهواء فحسب فلقد اعتقد البعض أن الأسماك تنطلق من هناك أيضاً . ويعبر عن هذا الزفير عادة كنافورة من الماء لذلك فإن الفنانين الذين يتمتعون بشيء من روح النكتة أو من البساطة يضعون أحياناً سمكة أو أكثر في فتحة النافورة . ولربما كان ذلك وسيلة للتعبير عن أن ما يظهر هو ماء كما فعل السير جون هارنجتون عندما صمم مغسلته فوضع في حوض الماء سمكة ؛ لا لأن هذا هو موضع السمكة بل ليجعل القارىء يدرك ان هذا موضع الماء .

ويدعي بعض الملحدين أن الحوت ذو بلعوم ضيق . وهذا الرأي مثال

مُسلٍّ على خطأ شائع ، يستعمل لدحض خطأ شائع آخر مبني على خطأ شائع . فالسمكة العظيمة التي يقول الانجيل ان الله أعدها لابتلاع النبي يونس انقلبت بمرور الزمن الى حوت بالرغم من ان الانجيل لا يقترف مثل هذا الخطأ في التسمية . وفي الهجوم العقلاني على الانجيل أصبحت هذه المخلوقة المسكينة هدفاً للسخرية من أناس لا يستطيعون التفريق بين البحر والنهر كما أصبحت وسيلة لدحض (الأرثوذكسية) في التفسير الديني . فقد أصروا على أن النبي يونس لا يمكن أن يكون قد ابتلع لأن بلاعيم الحيتان أضيق من أن تمرر رجلاً . وهكذا تراجع حتى المؤمنون واستكانوا بخنوع لهذا الراي . لقد وجدنا ان كتاب « المساعد لدراسة الانجيل » المطبوع في أكسفورد عام ١٨٩١ اعترف بضعف ان بلاعيم الحيتان أضيق من أن تمرر رجلاً . ولكن التراجع هذا كان تسرعاً . فلو قام المؤمنون ببحث صغير لاستطاعوا أن يتمسكوا بموقفهم فثمة العديد من الحيتان التي تمتلك بلاعيم على درجة من الاتساع بحيث تستطيع ابتلاع رجل نبياً كان أو قديساً أو ملحداً .

أما الكوسج فهو حيوان مثير من الناحية العلمية . إنه يثير اهتمام علماء التشريح وعلماء الحيوان وعلماء الحيوانات المنقرضة وحتى علماء التغذية . كل منهم يدرسه من زاوية اختصاصه . ولكن العامة يهمها شيء واحد في الكوسج – الكوسج سمك مفترس . فليس هناك ما يعرف غير هذا ولا ما نحتاج لمعرفته غير هذا . ان الكواسج بالنسبة لهذا الرأي لا تعض السابحين بين حين وآخر كما تعض الكلاب السابلة . بل تعيش حياتها باحثة عن الانسان لتأكله . وهي ان أكلت شيئاً آخر فما ذلك إلا لتستمر في بحثها الكريه هذا . وبما أن الكواسج أكثر بكثير من البشر في المحيط فإن ذلك يفعل فعل السحر في دفعها إلى الجنون في البحث عن ضالتها . فإذا مات أحدهم على ظهر سفينة فالكواسج « تعلم » بطريقة غيبية ثم تتبع السفينة لأيام بصبر جشع . وهكذا يعرف الناس بأن الكوسج هو قاتل الأعماق وأي محاولة للتشكيك في هذا الأمر تضع المشكك في صف المجانين .

ولكن بالرغم من كل هذا فإن المشككين كثيرون . ان وطيس الجدل لا يزال حامياً والدلائل لا زالت قليلة وغير قاطعة لإطلاق أي حكم قاطع في الموضوع ولكن سيدهش الكثيرين إذا علموا أن الحالات الحقيقية لأناس هاجمتهم الكواسج أندر من القليل . يقول كتاب تعليمات للطيارين « ليس ثمة خطر على أي طيار لا ينزف دماً ، طاف على سطح الماء من أن تهجم عليه الكواسج » . فمن مئات الأنواع من الكواسج ليس ثمة أكثر من ستة أنواع لها الاسنان اللازمة لافتراس البشر . ومن هذه الستة أنواع القليل مما تحدوه الرغبة لمهاجمة البشر ؛ ولا تتاح الفرصة لهذه الأنواع التي تحدوها الرغبة لافتراس البشر إلا فيما ندر. وان أتيحت فلا يستفيد منها إلا القليل . (م ١٠٩ ص ٢٧ ، م ١٣ ، م ٢٠٦) .

أما الأخطبوط فيحتل المقام الأول في قصص الرعب عن الأعماق والفضل في ذلك يعود لفكتور هيكو وملحقات جرائد أيام الأحد .

إن الأخطبوط لا شك مخيف المنظر . فجسده اللزج اللين دون عظام ينتفخ ويتقلص بإيقاع ، واطرافه بأقراصها الماصَّة تتماوج دون انقطاع ، ونظرته الباردة تنطلق من عينين واسعتين لا أجفان لهما. كل هذا كفيل بأن يجعل فرائص الشجعان ترتعد لمنظره. ولكن الاخطبوط بالرغم من كل هذا حيوان مسالم غير مؤذٍ بالنسبة للبشر . ويقول بولنجر مدير معرض الحيوانات المائية في حديقة حيوانات لندن « ان الخطر من الاخطبوط نفسي وغير مادي » . ويضيف ان الاعتقاد القائل بأن قبضة الأخطبوط لا يمكن الافلات منها هراء في هراء . فأية قبضة حازمة على رأس حتى أضخم النماذج منها كفيلة بأن تجعله يرخي قبضته . ويقول ستفن وليامز أستاذ الحيوانات المائية في جامعة ميامي « ان الفلاح في مزرعته لفي خطر أكبر من أن تهاجمه (قرع) بطيخة إذا قورنت باحتمالات مهاجمة الأخطبوط للسابحين » . (م ٢٠ ص ١٧١) وكانت الحشرات ، المعدودة من أكثر الأحياء المنظورة عدداً ، محتقرة ودون مستوى اهتمام الانسان الاعتيادي . ولكن علماء الحياة خلال الخمسين أو الستين سنة الماضية غيّروا

كل هذا . وبالرغم من ذلك فلا زال رجل الشارع عاجزاً عن أن يسمي أكثر من عشرين حشرة بالمقارنة إلى عشرات الألوف من فصائل الحشرات التي تطير وتزحف عليه وحواليه . وانطباعه العام عنها غاية في الغموض والتقزز . فهي تعض وتلدغ وتطن حواليه وتدخل في طعامه وتلقي بنفسها حول اضوائه وتقرض ثيابه وتلتهم أشجاره المثمرة وتزرع التلف في أسس بناياته ، وعلاوة على ذلك فهي تثير اشمئزازه أو تلقي الرعب في نفسه .

ولذلك لا يتمتع سوى القليل من الحشرات بأية قيمة خلقية . فالفراشة تلقي بنفسها في اللهب وبذلك تلقي عبرة وموعظة للشباب المرح أو على الأقل تعطي اكتفاء للمسنين الحقودين . ولكن هذه الحيوانات الحقيرة لم تعطِ الكثير من الخير فيما عدا النمل والنحل وهنا كأنما الأمر تعويض – نجد الكثير ... الكثير من الأساطير .

لقد احتل النحل مقاماً بارزاً في تفكير العامة فاعتبرت مساكن النحل مجتمعات بشرية مصغرة. وأصبح ولاؤهم للملك –إذ يعتبر العامة الملكة ذكراً– عبرة وموعظة لأي شعب متململ غير راضٍ عن مليكه .

لقد كانت النحلة في القدم رمزاً دينياً شائعاً للخلود . ولقد ظهرت في دين المثرية كما ظهرت في عبادة ديانيسوس وكذلك في عبادة أبيس . وأسبغت على الشمع والشهد صفات وخصائص سحرية انتشرت في الكثير من الطقوس الدينية. حتى المسيحية امتصت شيئاً من مفاهيم هذه الديانات القديمة فكان الشهد يعطى للاطفال خلال التعميد كما يجب ان تكون شموع الكنائس من شمع النحل الخالص . (م ١٩٢) .

وبالرغم من ان النحل لم يعد موضعاً للعبادة فلا زال العسل موضعاً للتشبيه السحري يشيع في كل المجتمعات تقريباً. فهو عنصر أساسي في العديد من الادوية المسجلة . وهو يجلب الجمال لهؤلاء الذين يتمتعون بشجاعة كافية لأن يلطخوا وجوههم به . كما تدعي الاعلانات ان التبغ المشبع بالعسل يصبح أقل ايذاء للحنجرة .

أما النحل نفسه فلم تنسج حوله الأساطير قدر ما نسجت حول عسله وقد سردت عن النحل قصص تبالغ في طاقاته في العودة الى خلاياه . أما نظام خلاياه فقد أسيء وصفه لتقريبه من المجتمع البشري لكي يكون عظة وعبرة للناس .

ويعتقد الناس ان الضرب على طنجرة « يفضل ان تكون نحاسية » يجعل النحل يلتزم خلاياه . بالرغم من ان مربيّ النحل يؤكدون ان ذلك يخالف للحقيقة . ويجد صبيان البلدان المختلفة عزاء في الاسطورة القائلة بأن النحلة التي لسعته دفعت بذلك حياتها ثمناً .

وثمة اعتقاد قديم وغريب يقول بأن نحل العسل يتكون تلقائياً في جثث الثيران المتفسخة . كما قامت جثث حيوانات أخرى بنفس المهمة أحياناً . فلقد وجد شمشون الجبار خلية نحلة ولغزه المميت في جثة أسد . ولكن جثة الثور هي « الأصلح » – برأي « كالن » . كما شرح فرجيل بدقة تعليماته في كيفية تحضير جثة الثور لهذا الغرض . واستمر الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر حيث اشار « رينور » الى ان ما يُرى في جثث الحيوانات الميتة لم يكن في الواقع نحلاً بل أنواعاً من الذباب تضع بيوضها في الجيف ، وهي تشبه نحل العسل الى درجة ما .

أما ان تستمر الخرافة لمثل هذا الزمن الطويل حتى تنقضها فيما بعد حقيقة واضحة مثل هذا الوضوح فهو مثال بليغ على الدرجة التي يمكن أن تتغلب فيها التسلطية العقلية والارهاب الفكري على الملاحظة الموضوعية البسيطة . فلثلاثة آلاف من السنين كان المعتقد شاملاً ، ولم يلحظ أحد أو على الاصح لم يدر بخلد أحد ان يلاحظ بأن « النحل » الذي يتواجد في الجيف ، ليس النحل الذي ينتج العسل . اما في المسيحية فان المشكلة كانت فوق الملاحظة الموضوعية أو التجربة إذ إن الانجيل نفسه أيّد الأسطورة . ومن يكون على درجة من الذكاء بحيث يبحث هذا الموضوع بشكل علمي ، يكون في الوقت نفسه على درجة من الغباء لأن يجادل محاكم التفتيش الدينية وينازعها على حفنة من الذباب الحقير ؟

أما النمل فهو خير مثال على التخبط العشوائي والفعالية دون جدوى .

ففعالية النملة الدائمة غير المستهدفة وانعدام كفاءتها تشبه شبهاً بالغاً بعض الأعمال التافهة التي يعتبرها البعض قدرة ادارية . كل ذلك جعله مثالاً للطاقة والعمل الكفوء .

أما النملة الحقيقية فهي لا تحمل من الشبه بالنملة التي تسري في الخيال الشعبي الا أقل من القليل . ولعل الفضل في سوء التقدير هذا يعود الى جهل الملك سليمان .

وليس ثمة وسيلة أفضل لتحطيم معنويات الكسول من أن يطلب منه أن يقتفي عبرة النملة . فالطاقة الجبارة التي يبذلها النمل بالمقارنة الى النتائج الضئيلة التي يبلغها ، ستدفع به حتماً مرة ثانية الى الخمول والكسل . ولو أدرك مدى تعلق النمل بالطفيليات التي تفترسه لاختار أن يكون طفيلياً . ولعل الشيء الوحيد الذي سيدعوه الى الإعجاب بها هو سرقتها الدائمة وتبذيرها المستمر واحتفالاتها وبذخها وتشتيت مدخراتها . فإذا أردت الخير للكسول حقاً ، فلا تطلب منه أن يتعلم من النمل سبيل الحياة .

وليس ثمة شيء « معروف » كجهد النمل طول الصيف في تخزين المؤونة للشتاء ولكن للأسف الشديد ليس لهذا كبير نصيب من الصحة . هناك أنواع من نمل الحصاد تفعل ذلك ولكنها نادرة جداً . ومعظم أنواع النمل تعيش على طعام لا يمكن ان يخزن . ولكنها لا تحتاج للتخزين على أي حال فهي تنام طول الشتاء . أما نمل العسل الذي يعيش في تكساس فهو يخزن طعامه بطريقة غريبة . فيعلق بعض أفراده من سقوف أعشاشه بحيث يكون رأسه متدلياً الى الأسفل يبدأون بحشوه بالعسل بحيث ينتفخ كالبالونات وهكذا عندما يشح الطعام يبدأون بحلب جرارهم الحية هاته من محتوياتها . وهذا يبعث الرضا ، حتماً ، في قلب الكسول .

وإن ننسَ فلا ننسى أسطورة انتقلت عبر العصور من إيسوب حتى والت دزني ، تلك التي تتعلق بالجرادة والنمل . والحقيقة هي عكس الأسطورة تماماً فالجراد هو الذي يجمع الغذاء والنمل هو الذي يستجدي غذاءه من الجراد .

فيقول Faber مؤلف كتاب الحيـــاة الاجتماعية لدى الحشرات ؛ ان النمل هو الذي يسرق الغذاء من الجراد العامل الدؤوب . ففي الجو الحـــار يقوم الجراد بحفر الجذوع من أجل عصير النباتات بينما يزحف النمل الجشع بين سيقانه سارقاً ثمار عمله . يقول فيبر « ان النمل هو المتسول المحترف . أما العامل الشغول فهـو الجراد » (م ٦٠ ، ص ٦ — ٨) .

الفصل الخامس

الذئب ، الذئب !

يمكن اعتبار قصص الأطفال الذين ربّتهم الحيوانات من الاضافات الممتعة الى علم الحيوان الشعبي . وقد تلت هذه القصص جميع الشعوب وفي جميع العصور . كما ظهرت هذه الاساطير في عصرنا هذا على شكل أوسع وتحت رعاية علمية موقرة لم يعرف لها مثيل في التاريخ .

فقد ربّت الحيوانات الكثير من أبطال الاساطير ، فاشترك زيوس وطرزان بهذه الرابطة مع الحيوان . والتاريخ مليء بأبطال أقل شأناً يستمدون شهرتهم من أمهاتهم بالتبني المتوحشات .

ففي ايرلندا الصبي الحمل وفي سالزبورك الفتاة التي تبناها الخنزير، فتغذت على البلوط وقبعت في جحر الخنزير ونالت اعجاب المشاهدين جميعاً. وفي عام ١٤٠٣ ظهرت المرأة السمكة وقد نبتت عليها حشائش البحر فاستحمت في سواقي ايدام Edam وعاشت بقية حياتها (١٧ عاماً) في هارلم (هولندة) حيث تعلمت الغزل وانجاز الأعمال النسائية الصغيرة ، ولكنها لم تتقن الهولندية بالرغم من أنها عبدت الصليب؛ ولذلك نالت اعجاب أكثر من أربعين قساً فشهدوا على صحة

قصتها المثيرة . [م ٢٠٨ ، ص ٢٠٢ ،] [م ١٧٩ ص ٣٦٨ – ٣٦٩] .

شيء ما يحيط بهذه المخلوقات التعيسة بحيث يندفع رجال الدين لكي يشهدوا لهـا . فيستند ارنست ثومبسون سيتن على شهادة البطريرك ماتيسون في سرد « القصة الحقيقية » حول هاري سربزس الذي تبناه الخلد .

طريف أن تنشأ الفة غير طبيعية بين الخلد وهاري، ولكن الأطرف أن الخلد نفسه عندما تبنته عائـلة هاري مرّ بتجربة صعبة بسبب المنافسة على كسب عواطف الطفل بين الخلد وأبويه الاصليين . [م ، ١٦٠] .

وهناك لوقا ، الذي تبناه قرد في جنوب افريقيا ، حيث رعا قصته الدكتور فولي في مجلة علم النفس الأمريكية كانون الثاني ١٩٤٠ ، والبروفسور ر. م. زنج من جامعة دنفر في مجـلة الأمريكي الأسبوعية في أيار ١٨ – ١٩٤١ . وشغف البروفسور المنكر لذاتـه بصنيعته ، هدد لفترة ما بسلب اللورد موبودو شرف كونه أكرم اصدقاء القرود . ويختلف لوقا عن الفتاة السمكة بأنـه يستطيع التكلم بالهولندية ؛ أو على الأقـل اللغة الافريكانية Africeans وهكذا جهز بلهجته الخشنة ، التي تتميز بهـا هذه اللغة ، العلماء المتحمسين بتقرير مسهب عن تجربته الطويلة مع القردة . وكلما خفت انتباههم كان يكشف لهم عـن ندبة خلفتها رفسة نعامة ، أو عن أكله الكثير من الصبار . فهـو يستطيع أن يأكل كمية هائلة من الصبار (٨٩ صبيرة في جلسة واحـدة) . ولقـد اعتبر العلماء المتحمسون هذه القابلية شاهداً أكيداً على صدق قصته . وفي عام ١٩٣٧ تحدى مركزه الأول وقيمته النقدية نـدولا الصبي القرد كمنافس شديد له . ولكن سرعان ما فضح ندولا في مجلة علم النفس الأمريكية واعتبر حالة مهملة من الشلل أدت الى ظهور وضعية فقرية تستدعي السير على الأربـع . وهكذا احتكر لوقا المجلات العلمية لنفسه مرة أخرى .

ولم يدم ذلك طويلاً ؛ إذ بعد سبعة أشهر على فضح ندولا « هوى » لوقا من عليائه حطاماً . فقد ظهر أنه لم يعش مع القردة أبداً . وانما كان يقضي حكماً في سجن بركرستوب في الوقت الذي قيل فيه إنه كان بين أخوانه القردة .

والمشكلة هي أن الذي ادعى اكتشافه كان شرطياً . وهكذا كان خاضعاً لتهمة التزوير والاحتيال . وتحت استجواب مدير الشرطة ، عُلِمَ أن القصة كانت قد نقلت إليه سماعاً عن رجل متوفى في الأصل . واستناداً على تقرير مدير الشرطة الرسمي ، بدأ سلسلة من الأساتذة بإلقاء كل منهم اللائمة على الآخر ، ولم يكن ذلك مجرداً عن الوقار العلمي ، فقال بروفسور زنج Zing إن تحقيق الدكتور فولي في قضية لوقا كان محكماً عندما كتب . ولكن نشره المتسرع يعود الى سياسة الدكتور ريموند إيدارت الكريمة المتحررة في جوهانسبرج والذي أشرك الآخرين في أبحاثه في كل مراحل التحقيق العلمي . وهذه المرحلة خاصة كانت مرحلة سابقة لأوانها .

من الواضح أن البروفسور زنج لم يستطع أن يتصل بكل المراسلين حول اكتشاف التزيف الذي أثار كثيراً من الحماسة . إذ لم يمر عام على إعلانهم التوبة عن الخوض في مثل هذه القصص حتى نشرت القصة مرة أخرى استناداً على شهادة الدكتور زنج نفسه في مجلة الأمريكي الأسبوعية . وفي عام ١٩٤٤ اجتاح لوقا مرة ثانية صفحات تلك المجلة دون حاجة لمن يرعى القصة هذه المرة .

أما لوقا الحقيقي فقد وُضع في معهد للمتخلفين عقلياً . [م ، ٦٤ ص ١٢٨ – ١٣٣] [م ، ٢٨٧] [م ، ٢٠٧] [م ، ٢١٢ ، م ٢١٣] .

وهكذا تجد أن انسحاب لوقا من عالم المجلات العلمية لم يترك هذه الصحف قاحلة جرداء . فقد ظهرت دائماً مناقشات في أعمدة المجلات حول طفل أو آخر تبناه حيوان ما . ففي عام ١٩٢٦ أنقذ صبي من الذئاب قرب مايوانا التي تبعد ٧٥ ميلاً عن الله أباد . وكان يعوي في الليل ويقتات على الحشائش ويتمرغ في التراب كما تفعل الكلاب الجرب . وأبدى بعض الغرائز التي كانت أوطأ من غرائز آبائه المتبنين . ولكن لم توضح لنا طبيعة هذه الغرائز . ولا شك في أن عدم توضيحها شيء من اللياقة والذوق .

وقد كرست نيويورك تايمس عموداً للمشاكل التي أثارها إنقاذ هذا الصبي. ومن رأي هذه الجريدة أن قصته كانت حقيقية واقعية . وقد شك أساطين الطب في

لندن بالقصة ولكن بعض ضباط الجيش الهندي القدامى أسكتوا هؤلاء الأطباء بإصرارهم على أن تربية الذئاب للصبيات شيء مألوف في الهند . أمـــا كبلنج الذي وضع تعابير كـ « أرضعته الذئبة » و « علمته الأفعى » و « نصحه الفيل » فقد أخذ رأيه من ذلك طبعاً . فأيّد بحرارة ضباط الجيش القدامى ولكنه شك بأن يكون الصبي كما تم وصفه يمشي على يديه وركبتيه . وظن بدلاً من ذلك أنه سار على ركبتيه ومرفقيه لأن ذلك معقول أكثر .

وقد أثارت هذه القصص قلقاً حول إهمـال الأمهات الذئاب المتبنيات تعليم هؤلاء الأطفـــال دينياً ، ولكن القس ماكاي الذي كان مسؤولاً من أبرشية القديس حنا في هالنكتن من أعمال سسكس ؛ والذي أقام في عام ۱۸۸۷ مراسيم الجناز للصبي الذئب الذي أسر في سيكاندرا قبل ثلاثين حولاً ؛ هذا القس قـام بتخفيف القلق . فبالرغم من أن بعض تصرفات هذا الصبي أشارت لفترة طويلة الى أن الآباء الذئاب غير مرغوب فيهم من الناحية الخلقيـــة ؛ ولكن ماكلي استطاع أن يؤكد للمهتمين بأن الأسس الخلقية لهـــذا الصبي لم يمسسها سوء . إذ أغمض الصبي عينيه ، قبل موته ، واتجه نحو السماء بطريقة عوضت عن عـــدم تدينه السابق . ومن بين الرسائل التي أرسلت الى المحرر حول قصة صبي مياوانا وجدت رسائل احتجاج على قسوة العلمـاء في انتزاع هؤلاء الأطفال من أمهاتهم المتبنيات . ولكن لم تتخذ أية خطوات بهذا الشأن ، ولربما كان ذلك بسبب الجدل القانوني الذي احتدم بين جمعية منع القسوة على الأطفـال ، وجمعية منع القسوة على الحيوان . [م ، ٢٦١] [م ، ٢٦٢] [م ، ٢٦٨] [م ، ٢٦٤] [م ، ٢٦٩] .

أما قصة متشردي ميدنابور الذين ربتهم الذئـــاب فقد جعلت كل القصص الأخرى أقزاماً بالنسبة لها . فقد ظهرت هذه القصة بصورة كاملة في مجلة هاربرز في كانون الثـاني في ١٩٤١ ، بالرغم من أنها نشرت متفرقة قبل ذلك في صحف أخرى مثل ويستمنستر كازيت ، ونيويورك تايمس ١٩٢٦ .

كما ظهرت واختفت في نشرات علمية خلال اثنتي عشر عاماً ، ففي سنة ١٩٣٩

ملأت صفحات مجلة الامريكي الاسبوعية ووضحت بصور ملونة . حاولت هذه المجلة أن تساعد قراءها الذين يجدون صعوبة في القراءة بنشر الصور ، ولكن رعاية مجلة هاربرز وسمعتها العلمية وشهرة قصاصها الجديد الدكتور أرنولد جيزيل رئيس القسم العلاجي لعلم النفس التكويني في جامعة يل ألقت على هذه القصة مسوح الاحترام ، كما أسبغ عليها أسلوب سردها الفريد مقاماً جمالياً نضراً .

ويمكن تلخيص قصة الدكتور جيزيل كما يلي :

« في خريف ١٩١٢ كانت هناك ذئبة هندية ذات أثداء ممتلئة وعيون رقيقة بشكل غير طبيعي ، وذات كيان دفأته كيمياء الامومة فتبنت طفلة هندية ، وغذتها بالرضاعة » . ويؤكد الدكتور جيزيل هنا أن التركيب الكيمائي لحليب الذئاب لا يختلف عن حليب باقي الفقريات . وقد تكيفت الطفلة بشكل ملحوظ لعادات الذئاب وتقاليدها . الأمر الذي لا يعتبر من السهولة بمكان لانعدام « الاثاث والكتب والسجاد والأطباق وآداب المائدة » تماماً . وقد تغلبت الفتاة على كل هذه الصعوبات وتلاءمت بنجاح مع جميع المتطلبات المتعبة في حياة الذئاب . « فعاشت دون أثاث وكتب وافترشت الأرض وتناولت طعامها دون ملاعق وسكاكين » !!! و « تجاهلت بلطف انعدام آداب المائدة » . ومسحت أردافها على الأرض نظافة . ونمت بينها وبين الذئاب ألفة غامضة أطلق عليها الدكتور جيزيل « روح الرفقة » . وكانت تتبعهم في غزواتهم من أجل الطعام . وأصبحت ماهرة في ابعاد الحدأة عن جيف الخنازير وما شابه ذلك وأضافت نغمات عوائها البشري إلى ذلك العواء المرعب الذي تطلقه قطعان الذئاب على النجوم المرتجفة ثلاث مرات في الليلة في العاشرة والواحدة والثالثة ليلاً .

وتكيفها مع ما يدعوه الدكتور جيزيل « الطرق والعادات الذئبية » كان وما فتىء ملحوظاً. فتكيف عمودها الفقري ليلائم سيرها على الأطراف الأربع . وأخذ ضوء غريب ينبثق من عينيها ليلاً ، ونمت أنيابها فأصبحت طويلة وحادة كالذئاب وكفت عن التعرق نهائياً . وأخذت تلهث فيتدلى لسانها كلما سارت في

الشمس .

وفي عام ١٩١٩ تبنت الذئبة نفسها طفلة أخرى . وبطريقة مأساوية غير متوقعة ، قتلت في عام ١٩٢٠ فأصبح الطفلان يتيمين للمرة الثانية فقام برعايتهما القس سنغ من ميدنابور الذي لم يكشف عن تاريخ حياتهما لستة سنوات لكي لا يضير ذلك احتمالات زواجهما في المستقبل . وقد يظن المرء أن موت الفتاة الصغيرة وعادات الكبرى الغريبة كانا كافيين لعدم تشجيع أي خاطب متدله . ولكن اهتمام الرجل (القس) كان يلمس شغاف القلوب حقاً . [م ٦٨ ، ص ١٨٤ – ١٨٩] [م ٦٧] .

حدث موت الفتاة الصغيرة في عام ١٩٢١ ولكن الفتاة الكبرى والتي أطلق عليها اسم كالا عاشت حتى عام ١٩٢٩ حيث كيفت نفسها مرة أخرى وبالتدريج مع الحياة البشرية . ولكنها استمرت في عوائها الذئبي المعروف في الساعات العاشرة والواحدة والثالثة ليلاً . وقد لوحظت نغمة إنسانية في صوتها في عام ١٩٢٢ عندما نادت السيدة سنغ بالكلمة – ما – (نصف ماما) . وبمرور الزمن استعملت «الحمام» بالرغم من أن هذه العادة تعتبر من منجزاتها المتأخرة، اذ ذكر القس سنغ في رسالة الى بول سكوايرز عام ١٩٢٩ بأنها لم تستعمل « الحمام » ومن عباراته الكئيبة يمكننا أن نشك باستمرار أطوارها الغريبة من حيث تنظيف نفسها. وفي عام ١٩٢٧ استطاعت أن تسمو عن الطرق والعادات الذئبية فكانت تذهب الى الكنيسة بانتظام وايمان . وقد أبدت تفوقاً ملحوظاً على صبي سيكاندرا الآنف الذكر والذي كان يقاطع مراسيم القداس بالصراخ « اللعنة ... اللعنة » . وتشير هذه الظاهرة كما يقول الدكتور جيزيل الى ضعف عقلية الصبي.

وفي عام ١٩٢٧ أصبح سلوكها متماشياً مع العرف . وعندما تكلمت أعطت الكلمات حقها – الأمر الذي لا نستطيع أن نصف به مؤرخي حياتها بكل انصاف – ولكن لسوء الحظ لم تستمر على ذلك طويلاً فقد سقطت صريعة المرض وتوفيت في الساعة الرابعة صباحاً في ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٩. [م٢٣٧].

اعترف الدكتور جيزيل بأن تاريخ حياة الطفلتين المسهب لا يخلو من الخيال

وتوارد الاحداث والاستقراء . كما اعترف بأن تقريره عن السنوات الأخيرة التي قضتها الطفلة في الميتم كان مستمداً من مذكرات احتفظ بها القس سنغ واودعت عنده لنشرها للبروفسور زنج الذي استمر في صداقته للانسان الوحشي بالرغم من أن زيف لوقا ظهر للعيان .

بينما كان هذا الكتاب العلمي يعد للنشر قام الدكتور جيزيل بتخفيف واسى نفاذ صبر الرأي العام بطبع كتاب عنوانه « الطفل الذئب والطفل الإنسان » . ويحتوي على شرح مسهب للحادث مقترن بالصور الفوتوغرافية منها تصوير للأم الذئبة ! وحفر خشبي للصورة ريموس وروmولوس الأخوين الاسطوريين اللذين بنيا روما بعدما ربتهما الذئاب . ويعترف جيزيل أنه أضطر لاستعمال هذه الصور لانعدام الصور الملائمة !

إن هذا المجلد لم يضف أية معلومات جديدة ولكنه يحتوي على مناقشة ممتعة عنوانها « هل يمكن ترويض طبائع الذئاب وعاداتها » ؟

إن مجلة التايم التي لم يضق صدرها لهذه المشاكل تتبعت قصة أطفال الذئب بحيوية مألوفة وأجابت على السؤال الذي ورد آنفاً بالنفي . وأكد محرروا المجلة بأن « الذئب وحتى القرد (؟) الذي ربي في ميتم القس سنغ لا يستطيع أن يقتبس شخصية الإنسان » . [م ٣٠٢] .

إن الحقائق التي استندت عليها هذه القصص الطويلة (شأنها شأن سرد الدكتور جيزيل ومجلة العلم الأمريكي ومجلة كورونيت ومجلة الأمريكي الأسبوعية ومجلة البيت – اذ كان للقصة انتشار واسع والحق يقال) ، نقول ان هذه القصص استمدت من مفكرة القس سنغ والايضاحات والتعليقات التي أضفاها عليها البروفسور زنج ، ونشرها في عدة مقالات علمية .

ولقد كان الدكتو جيزيل متأكداً من أن « البروفسور زنج قد تحقق عدّة مرات من كون القصة حقيقة فعلاً » . ولربما كان للتعبير « تحقق عدة مرات » معطيات لا تنسب إليه دائماً ... كتعبير « الذئبي » . إذ صرح البروفسور زنج قبل أشهر قليلة من نشر القصة بأنه « لسوء الحظ لم يستطع الاتصال بالعلماء في

الهند ليتأكد من صحة القصة » . ولكنه أسرع فأضاف بأنه تحدث إلى اثنين قد سافرا في الماضي الى الهند .

أما عندما حمي وطيس النقد الموجه الى البروفسور المحترم ، فقد أصر بأنه قضى ثلاث سنوات وهو يراجع المراسلات الضخمة مع عدد كبير من الناس !!! يبدو أن دراسته لهذه المراسلات لم تعطه الفرصة الكافية لأن يراجع أطلساً ليحدد موقع مدينة ميدنابور . فاعتقد أنها مدينة تقع « في شمال الهند في منطقة مكتظة بالغابات التي تسرح فيها النمور وتمرح » . ولكن الدكتور جيزيل شك على الأقل بهذه الحقيقة فلجأ الى أطلس راند مكنيلي الذي حدد موقعها على بعد سبعين ميلاً الى الجنوب الغربي من كلكتا .

وقبل نشر المذكرات بزمن يسير بدأ التشكيك والتطاول على القصة يطلان برأسيهما القبيحين ووجد المؤلفون أنفسهم بحاجة الى اسكات هؤلاء المتشككين الذين لا يتحلون بالمسؤولية ، بشكل جازم وقاطع . وهكذا فعندما نشرت المذكرات ١٩٤٢ ، ظهر بأنها مجهزة ومصدرة ببطارية من شهادات التأييد . ولكن لسوء حظ الكتاب لم يجد المشككون في هذه الشهادات بغيتهم . فلم يكن بين الذين أدلوا بشهاداتهم من عرف القس سنغ وسافر معه وهو ينشر كلمة الله في أدغال الهند ، ولم يقروا بانهم شاهدوا الأطفال عندما أسروا واستخلصوا من الذئاب !!! بالرغم من أن البروفسور زنغ صرح بجرأة بالغة « بوجود خمسة أشخاص شهدوا هذا الحادث المثير وشهدوا به » . ولكنه لم يشر مطلقاً الى أن وجود هؤلاء الخمسة أو شهاداتهم لا دليل عليها سوى القس وحده . كما أنه لم لم يوضح أن السجل كان سجل القس وحده ، ولا يتضمن سوى أقوال القس وحده !!!

ومما يؤسف له أشد الأسف أنه لم يكن بين هؤلاء الخمسة من يدمن على المراسلات الضخمة التي شغلت البروفسور زنج ثلاث سنوات .

وعوضاً عن هؤلاء الشهود الخمسة قدم البروفسور زنج خمسة شهوداً آخرين لرواية القس ثلاثة منهم أساتذة جامعيون ، أما الآخرون فهما مطران وحاكم

كان يقطن مدينـــة ميدنابور . اعترف الاساتذة الثلاثة بأنهم لم يشاهدوا القس سنغ ولا أطفاله ولذلك فإن الشخصيات التي ألقت شهادتهم عليها الضوء كانت شخصياتهم هم وحدهم .

أما الحاكم الذي كان يقطن مدنابور فقد أفاد بأنه يصدق القصة . وتكلم مع أشخاص عديدين شاهدوا كبرى الفتاتين عندما كانت تعيش في الميتم . وهكذا وقع عبء تأييد القصة على المطران والش ؛ الذي صرح جازماً بأنه رأى الفتـاة الكبرى بعـــد مرور أربع سنوات على انقاذها ولكنه لم يَدّعِ أنه تعرف على الذئبة بصورة شخصية . ورغماً عن ذلك فقد أكد لنـــا بأنها كانت مسرورة « للتجربة التي مرت بهـــا . وبعــد أن فحص الطفلة ، توصل الى أن الذئاب لا تتمتع بروح النكتة و « ليس لها من الأولاع سوى أكل اللحم النيىء » .

كما أعلن بسرور بأن الولدان الذئبين لم يعلما القاصرين ما يشين . ولقد شعر بأن هذه الحقيقة ذات صلة وثيقة بمفهوم الخطيئة الأصلية . [م ٢٠٨] .

وبالرغم من جمال هـــذه التأملات لم يعتبرها أصحـاب المنطق ذات صلة بالموضوع . انـ مراسلي البروفسور زنج وقصة البروفسور ويمين الحـــاكم واستطرادات المطران وتنبؤات الطبيب الذي كان يعـــالج كمالا على فراش الموت — كل ذلك ممتع للغاية وساحر جداً ، ولكن لا يبرهن على أن الذئاب قد تبنت وربت هذين الطفلين .

ان الدليل الوحيـــد هو المذكرات اليومية التي تعتمد على ملاحظات القس والتي كانت على وشك الانتهاء كما يخبرنا المؤلف في عام١٩٣٣ بالرغم من أن كبرى الفتاتين توفيت عام ١٩٢٩ والصغرى قبلها بكثير ، ولقد فشلت هذه المذكرات في إقناع قرائهـا بصدق روايتها رغماً عن الوعود المثيرة بوجود إثبات ضمني في ثناياها . وتدعي المذكرات بأنها سجل يومي يبدأ من اكتشاف الأطفال في الميتم حتى نهاية حياتيهما ، ولكن لم تكن في الحقيقة سوى نزر يسير من تبويبات غير منظمة يعوزها التسلسل التأريخي ، وتتضمن على الأغلب تأملات في طبيعة هذا الحادث الإلهي ، بل ينقض « دليله » الوحيد على صحة دعواه حينما يقول بأنــه

كان يعلم بأنهما طفلتا ذئبة حتى قبل أن يكتشفهما !!!

ليس هنا شك في (١) أن القس ربى طفلة غريبة في الميتم ، (٢) أنه كان أسوأ مصور فوتوغرافي عاش في زمانه ، (٣) من المحتمل أنــه وجد الأطفال في الغابة وعلى مرأى من الذئاب . ولكن مجلة الهند المصورة الأسبوعية والتي تتمتع بشهرة علمية تقول إن هذه المنطقة لم تعرف الذئاب مطلقاً .

وعلاوة على ذلك فهناك تناقض واضح بين أحداث القصة كما سردها في بداية المذكرات وتلك التي سردها في نهايتها . وفوق كل هذا يثير ريبتنا وشكوكنا فشله في الحصول على شهادات من أولئك الذين كانوا معـــه عندما أسر الطفلتين بينما تجشم الكثير من العنـــاء في الحصول على شهادات من أناس لا علاقـــة لهم بالموضوع إلا بأوهى الصلات !

وحتى لو كان الأطفال يعيشون في بيوت النمل حيث شوهدت بعض الذئاب فليس ذلك برهاناً موضوعياً على أن هذه الذئاب قد ربت الأطفال فعلاً . لربمـا هرب الأطفال الى هـــذا الكهف خوفاً ، أو لربما عاشوا هنـــاك مستقلين عن الذئاب .

والغريب الذي ادعاه القس أن هؤلاء الأطفال كان في استطاعتهم أن يطووا أجسامهم بشكل كرة .

وقد اتخذ هــذا كبرهان ناصع على ذئبيتهم السابقة . يتمتع الأطفال عامـــة بعمود فقري مرن . وهذه الظاهرة ليست غريبة عند الأطفال فقد لوحظت في عشرات من دور الحضانة التي لم تعرف من الذئاب سوى الذئاب الواردة في قصة « ليلى والذئب » . الأمر الذي كان يجب أن لا يغرب عـن بال الدكتور جيزيل وهو الاختصاصي بالأطفال !!! والشيء الذي لا يمكن الدفاع عنه في هذه القصة هو الجهد الذي بذل في جمع الروايات المختلفة لهذه القصة التي تحاول أن تثبت أن الأطفال ربتهم الذئـــاب لأنهم سلكوا فيما بعد سلوكها . ولكن سلوكهم (كما وصف في هذه القصة) لم يشابه سلوك الذئاب العاديــة التي تمشي على الأربع أو أي صنف من الذئاب المألوفة ، والدكتور جيزيل علاّمة في هذا الموضوع ، بل

أشبه ذئاباً خيالية موجودة في القصص فحسب ولا تمت الى الذئاب الحقيقية إلا بأوهى الصلات . لقد وصفت بأنها تتجمع تركض بقطعان وتعوي حسب توقيت الساعة وينبعث من عيونها ضوء مخيف . ولقد اعتمد هـذا الخط أحد الناشرين المعاصرين المشهورين الذي يعتبر هذه القصة دراسة إنسانية ممتعة لا تثمن .

وفي رأي أحد حكماء جامعة ييل وهو من ذوي الرواتب الباهظة أن القصة تشهد من جديد على قوّة « الروح الإنسانية » . ونادى حكيم آخر بأن هـذه القصة تفتح لنا الأبواب لدراسة أحد مواضيع « علم الاجتماع الأساسية » . وهذا لا شك فيه ، ولكن هذا الحكيم راجع النص بسرعة وأنشأ الأساس لأفكاره الجديدة على رمال متحركة . واقتفى أثره علماء آخرون دون أن يدركوا أن أطفال الذئاب كالآلهة يجب أن يُخْتَرَعوا إذ لا وجود لهم دون أغراض وأهداف خاصة .

ولقد كتبت كتب مدرسية من جديد لكي تتضمن هذه الحقائق «الصحيحة» كما دوّن مجلدان ضخمان عن هذه النصوص ، واحتوت معظم المجلات والصحف المشهورة على مقال أو أكثر حول هذه الأحداث ، ولكن لم يتساءل أحد وسط كل هذه الجلبة والضوضاء عن مدى صحة هذه القصص وواقعيتها . [م ٢٥٧ ، م ٢٥٨ ، م ٢٥٩ ، م ٢٦٠ ، م ٢٦١ ، م ٢٦٢] .

المرء يعجب أحياناً للسبب الذي يدعو أية ذئبة تحترم نفسها لأن ترغب في تبني إنسان ، إذا كان منطق البشر هكذا !!!

الفصل السادس

قبيل الصيرورة

في صيف عام ١٩٤٣ ازدادت نسبة الغيابات بين العاملات في المعامل الحربية الأميركية ، بدرجة جعلت السلطات تشك في وجود مخطط تخريبي . فاستدعيت دائرة التحقيق الفدرالية F . B . I . للنظر في الموضوع . وظهر بعد التحقيق أن ما يدفع النساء الى الهروب من العمل مخاوف جنسية غريبة . فبعضهن كان يخشى العقم كنتيجة للعمل في مكائن اللحام أو الاشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء. وخشي البعض الآخر العمل في المطارق الآلية خوفاً من سرطان الثدي ، واخترع البعض مرضاً وهمياً جديداً سميّنه « مبايض الطارقات » . وهربت العشرات من النساء العاملات في آلات الاطفاء المعدة للطائرات عندما انطلقت اشاعة مفادها أن المادة التي تستعمل في هذه الادوات – تتراكلوريد الكاربون – تؤدي الى الحمل . مثل هذا الرعب يشكل ، ولا سيما الحالة الأخيرة ، في الواقع وصفاً بليغاً لمدى الجهل السائد في العلوم الحياتية . فلقد لف الجنس بالغموض بدرجة أصبح فيها مرتعاً خصباً للأوهام والخرافات . [م ، ٣٠٣ ، م ٣١٣ ، م ٢٢٥] .

ويبدو ان الاعتقاد ، بامكانية الاخصاب دون جماع ، اعتقاد راسخ لدى النساء . الأمر الذي يقود بالتالي لظهور عدد كبير من الاساطير . ولعل أكثر هذه الاساطير انتشاراً ، الاسطورة القائلة بأن النساء يحملن بعد الاستحمام في مغاسل سبق للرجال أن استعملوها – دون ضرورة للجماع – ! وفي بعض الحالات نجد مجال الاسطورة ينتقل الى الحيوان . فيقتطف لنا الدكتور فشبين من مجلة بوسطن ترافلر حادثة عن فتاة « سيئة الحظ » ، ولدت أخطبوطاً ؛ وأخرى من جريدة اوكلاهوما ديموكرات عن ممرضة ماتت « بألم فظيع » عندما لدغتها أفعى كانت تعيش في معدتها . فلقد وضع لها الطبيب نظاماً غذائياً خاصاً فاضطرت الأفعى الى لدغ مضيفتها جوعاً .. ويقول الدكتور فشبين إن الاعتقاد السائد هو ان بيوض الأفاعي تبتلع لدى شرب الماء من خراطيم المياه في الحدائق . [م ٢٤ ص ٥٧] [م ٦٢ ص ١٩ – ٢٠] .

إن الخيال في مثل هذه الأوهام واضح جداً . فليس ثمة فكرة أقل منها شيوعاً في الميثولوجيا .

أما الاتجاه الجديد لهذه الاساطير ، فيتخذ شكلاً مختلفاً ، الا وهو الطهر والنقاوة فلقد دخلت الرومانسية هذا الميدان . فجيمس كرود كاتب « نقي » وأشهر قصصه قصة كازان . وهي قصة كلب يدفعه حبه لسيدته ولكلبة انثى الى حافة الجنون ولكن نبله يحل المشكلة . إذ يتفرغ في النهاية للكلبة بعد – أن يصاب بالعمى لشعوره بالاثم . إذ كان عليه أن يحرسها لئلا يحدث لها ذلك . ولعل نبل سيدته يساوي نبل كازان ان لم يَفِقْهُ . فهي تتنازل عنه لمحبوبته وتكتفي بإنسان فقط . [م ١٦٠ ص ٣٥٨ – ٣٦٩] .

وهناك اعتقاد شائع أيضاً ، مفاده أن النسل يرث صفات من زوج سابق لأمهم (غير أبيهم). وتنطلق هذه الفكرة الخاطئة من مجال تربية الخيل بشكل خاص ولو أنها تتعدى هذا النطاق الى البشر أيضاً . ولقد أسبغ عليها البعض صبغة علمية فدعاها نظرية وأسماها تيلوجني .

ان الفكرة قديمة جداً وفي القرون الأخيرة اتسمت « بالعملية » بعد أن

اعتقد « رومانس » و « داروين » أنهـــا حقيقة فعلاً . ولقد « أكدها اثبات » قدمه اللورد مورتون الى الجمعية الملكية عام ١٩٢٠ حيث زاوج فرساً كستنائية بكوا كا (نوع من الحمير الوحشية) وحصل من هذا الزواج على هجين . وبعـد ذلك زاوج نفس الفرس الكستنائية الآ نفــة الذكر بحصان عربي أسود لثلاث مرات . وفي المرات الثـــلاث ولدت الفرس أمهـاراً ظهرت عليها خطوط الكوا كا . . . وبذلـك « ثبت بشكل قاطع » ان خلايا الفرس الجنسية قـــد تأثرت بالكوا كا .

ولقد قـام البعض بإعادة تجربة مورتون في أواخر القرن التـــاسع عشر ، فاستعمل فيها حماراً وحشياً (لانقراض الكوا كا غير عابىء بأهميته العلمية) . والتجربة الثـانية لم تفشل في الوصول إلى النتـــائج التي توصل اليها اللورد مورتون فحسب بل ثبتت خطلها بشكل قاطع . استعملت التجربة الجديـدة ثلاثين مهراً . ولقد ظهر ، فيما بعد ، أن كل الخيول التي تزاوجت مع الحمار الوحشي لم تظهر على أمهارها علامات الحمار الوحشي فـيما بعد ؛ بل ان فرسين تزاوجتا تزاوجاً نقياً (كما أنها لم ترَ حماراً وحشياً في حياتها) ظهر في نسلها أمهار تحمل خطوطاً لها شيء من الشبه بخطوط الحمار الوحشي . وهكذا يظهر ان الخطوط التي حملها نسل الفرس التي زاوجهـــا اللورد مورتون ، هي علامات طبيعية تظهر في نسل سلالات معينة من الخيول كسلالة الكاتيـوار التي يستعملها الهنود الحمر ؛ ويظهر ان الحصان الذي استعمله اللورد موتون ينتمي اليها بشكل من أشكال القرابة . [م ٣٢٨] .

ولعل المنطق يقودنا إلى القول أننا اذا صحّت نظرية التيلوجني هذه ، نتوقع أن الأطفـال الذين يولدون (بطريقة شرعية) لابوين يميـــلون إلى أن يشابهوا آباءهم كلما تقادم العهد على الزواج . والملاحظة المباشرة للأطفال لا تؤيد هـذا الاستنتاج .

وبعكس ما يحدث في تربية الحيوان حيث يحصل مربو الحيوان على أحسن النتائج لدى تزاوج حيواناتهم في اطار العائـــلة ، يعتقد الناس أنه اذا استمرت

عائلة ما في الزواج فيما بينها ، فان نسل العائلة سينحط في المدى البعيد . فيقال لنا إذا استمرت عائلة ما بتزويج أبنائها وبناتها لبنات وأولاد الأعمام فسينحط أطفالهم بعد عدد من الأجيال .

أما النتائج المستمدة من البيولوجي فلا تدل على ذلك. فالتزاوج ضمن الاطار العائلي يبرز الصفات الموجودة في العائلة . فقدر تزوج جارلس داروين ابنة خاله وكان الأطفال السبعة الذين انجبتهم رجالاً ونساء يتصفون بمواهب ومنجزات خارقة . أما كيلوباترة فكانت نتاج زيجات بين أخ وأخت لستة أجيال . وكلنا نتفق على انها كانت بالغة الجمال والذكاء . وقد أنجبت شقيقة اللورد بايرون ، الشاعر الشهير لبايرون نفسه طفلاً . وقد نشأ الطفل وكان شاذ السلوك وتعيساً في حياته . ولكن ابنة بايرون ، التي أنجبها من زوجته التي لم تكن من أقربائه ، لم تختلف في شذوذها وتعاستها عن شقيقها غير الشرعي .

وإذا اتصفت عائلة ما بسمة ضعيفة كامنة – وهناك ملايين العائلات التي تمتلك الصفات الضعيفة الكامنة – فإن الاقتران الداخلي ضمن العائلة يؤدي الى ظهور هذه الصفة بشكل نقي . وبالإضافة الى ذلك فان الذي يتجرأ على خرق محرم على درجة من القوة كتحريم الزواج بالمحرمات يكون متصفاً بالقلق بالأساس . ولذلك فالجيل الناتج عن هذا الاقتران يرث صفات سيئة بحكم البيئة والوراثة .

يعتقد البشر بوجود عوامل كثيرة تؤثر على الطفل لدى التلقيح ؛ منها سن الابوين ، وصحتهما الجسمية والعقلية ، وغذاؤهما ، والجو ، بل وحتى حالة العالم بأجمعه .

وهناك اعتقاد شائع بأنه اذا كان الأب ثملاً لدى التلقيح فان الطفل سيكون ضعيف العقل . اما البرهان الذي يقدمه هؤلاء فهو الأطفال ذوو العقول المتخلفة الذين لا يكف آباؤهم عن السكر . وهذا في رأيهم كافٍ لدحض أي افتراض قد تعوزه اللياقة . ولكن التفسير المعقول لهذه الظاهرة هو أن الأب مدمن على الخمور لأنه متخلف عقلياً أصلاً ولذلك فان أطفاله سيرثون ضعف العقل هذا .

ومن المعتقد ان أي حـــالة تكون موجودة لدى التلقيح تؤثر على الطفل فيما بعد فيتصف الأطفال غير الشرعيين ، مثلاً ، بشهوة حـادة . كما يعتقد انهـــم يتصفون بمواهب فنية . وقد أعلن جيمس جراهام عـــن « سريره السماوي » الشهير في « معبـد البكارة » كدواء ناجح للعقم . إذ إن الفراش « محشو بشعر مستمد من ذيول فحول الخيول الإنكليزية الاصيلة والذي جمـع بثمن باهظ » . وينسب والتر شندي سوء حظ ابنه الى حادثة جرت له مع زوجته . فقد سألته في اللحظة الحرجة أن يملأ ساعة الحائط . وكان طلبها على غير علاقة بمـــا كانا يفعلان الأمر الذي أدى بطفلهان لا يستطيع متابعة أي تسلسل فكري منطقي مطلقاً . ويحدثنا « جيتا تشر » عـــن امرأة استطاعت ان تثبت شرعية ابوّة طفلها بعد موت زوجها على أساس أنه : أولاً – أكل زوجها سمكة ليلة تلقيـح الطفل . وثانياً – أن الماء الذي يستحم فيه طفلها كان زنخاً دائماً وتنبعث منـه رائحة السمك . (م ٨٦) (م ١٢١) (م ١٦٤) (م ٣٢٩) .

أما الادعاء القائل بأن للجو لدى التلقيح أثراً في أخلاق الطفل فقد قدمـه الدكتور وليام بيترسون بضجة صاخبة في كتابه « الجـو والمصير » . تـــدعى نظرية بترسون ان هنالك احتمالاً كبيراً بأن يصلح الفرد قائداً اذا تم تلقيحه في وقت يتصف برداءة الجو وفي الزوابع الناجمة عن الكلف الشمسية . ولقد كان برهانه الوحيد هو ابراهام لنكولن . فيقول : زرع ابراهام لنكولن في احشاء أمه اللينة عندما كان المطر ينهمر مدراراً في شتاء قاس مرير . وهـــذه الحالة أثرت على مزاج لنكولن فأصبح متعباً باستمرار ، متقلب المـزاج ، ذا حساسية بالغة للجو والبشر . وان انسجته كانت « قد تفاعلت الى الجانب البنائي الحيوي وذات اتجاهات مؤكسدة بشكل عالٍ » الأمر الذي أدى الى تجاوبـه بانسجام الكون . ولقد تبلورت حساسيته العالية لتقلبات الجـــو في « الاستجابـــة اللاشعوريـة الصامتة للجماهـير » وزودته هـــذه المواهب بالقدرة على التنبوء فاستقطب ثقة البشر الذين عبروا له عن مشاعرهم الصامتة التي تصعب بلورتهـا . (م ١٤١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٩ – ١٧٠) .

ويتوارد الى الذهن المتشكك أمران : الأول هو صعوبة تحديد الوقت الذي تم فيه تلقيح لينكولن . يشير مجرى الحوادث الاعتيادية الى أنه قد تم تلقيحه في النصف الأخير من شهر أيار عام ١٨٠٨ ولسوء حظ هذه النظرية فإن شهر أيار في ولاية كنتكي يعتبر من الأشهر ذات الجو الخلاب البديع ، وهو ليس من أشهر الشتاء حتماً . أما مذكرات الدكتور بترسون فتشير إلى هطول المطر الغزير في النصف الأول من هذا الشهر في لنكسنجتون والتي تبعد كثيراً عن كنتكي . وبالرغم من ذلك ، فإن القدر قد جعله يختار أسوأ الشهور ليبرهن فيه على غرضه هذا .

وإذا أثر الجو على لنكولن فيمكننا القول إن جميع المواليد الذين لقحوا في تلك الليلة،وفي تلك المنطقة كانوا خاضعين لنفس هذه العوامل الجوية . ولو فرضنا أن مائة شخص قد ولدوا في نفس الوقت ، ولو أن هذا الرقم يمكن أن يعتبر رقماً قليلاً ، فيجب أن يتمتعوا بصفات لنكولن نفسها . ولو فرضنا أن نصفهم فقط عاش في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر،فلا بد أن دافعاً مدهشاً قد دفعهم بعيداً عن الشهرة فأصبحوا نكرات. وإذا جادل البعض في أن لنكولن كان شخصاً خارقاً ، وكان للجو لذلك تأثير خارق عليه لذلك استطعنا أن نوافق على الشطر الأول من هذه الإجابة ، ولكننا لا نستطيع قبول الشطر الثاني منه . إذ لا يمكن إثباته أو نقضه .

وعندما « يقدم مئات الالوف من الرجال حياتهم في الحروب ، فإن الاحصائيات تشير الى ارتفاع نسبة المواليد الذكور » . ولكن هناك شك في هذه الاحصائيات ، بالرغم من أن الزيادة التي تدعيها ضئيلة لا تستحق الذكر . ومما لا شك فيه أن هذه النظرية موضع تساؤل ولو كانت حقيقة (كما أشار أحد المنشورات الحديثة) فانها « تؤكد على الاعتقاد القائل بأن « الطبيعة » تستعمل كل حيلة ووسيلة لتساوي عدد الذكور مع الإناث ، ولتنقذ العالم من الاكتظاظ بالنساء » . والذين يعتقدون بوجود مثل هذه الزيادة خلال وبعد الحرب العالمية الأولى ينسبونها إلى « سن الامهات اللواتي يحملن وهن شابات والى الولادات

البكر بصورة عامة » وهي ظروف ترفع من نسبة المواليد الذكور . وتتحدث مجلة التايم عن هذا الاعتقاد فتنسبه « للعقول التي يقلقها انتشار الموت في عالمنا هذا » . ثم تداور وتصفه بانه من « قصص العجائز » ولكنها فجأة تضارب ما قالته أكبر العجائز سناً فتربط ظروف الحرب بولادة توأمين ذكرين لسوزي ، وهي انثى كنغر في حديقة حيوان فيلادلفيا. فتقول أنه « رقم قياسي في الولايات المتحدة لولادة التوأم كنغر . » [م ٢٨٨ ، م ٣١١ ، م ١٥٤] .

وإذا كانت الطبيعة الأم « مهتمة » لحفظ العالم من تسلط النساء المرعب ؛ فقد أتيحت لها فرصة ممتازة لتثبت قدرتها عندما قام رجال جزر بتكرين بإفناء أنفسهم عام ١٧٩٠ تاركين جون أدامس (ذا الاسم المستعار ألكساندر سمث) كفحل الجزيرة الوحيد . وإذا أخذنا بهذه النظرية فإن كابتن فولكر ، الذي زار هذه الجزيرة عام ١٨٠٨ ، كان ينبغي أن يجد زيادة هائلة في عدد الأطفال الذكور وهم يجلسون على ركبة هذا البحار العجوز يتعلمون منه شتى الأمور . ولكن لم يلاحظ ذلك الكابتن فولكر ؛ ولا السر توماس ستينز الذي زار هذه الجزيرة بعد خمس سنوات من زيارة فولكر. كما لم يلاحظ الكابتن بيبون أي انعدام في التناسب بين الذكور والإناث لسلالة « سمث – بتكرين » . [م ١٦٥ ، م ١٦٦ م ٣٢٩] .

إن مثل هذه النظريات التي تتعلق بالتلقيح والوارثة ليست مضرة دائماً بل هي وسائل لإيجاد مواضيع شيقة للحديث . ولكن الأمر ليس كذلك بصدد نظرية تعقيم[1] المجرمين . ففي أمريكا ٢٨ ولاية تمارس قوانين التعقيم لأسباب متعددة . ولقد جرى تعقيم ٢٧,٠٠٠ شخص في الولايات المتحدة منذ سن هذه القوانين (م ١٥٣) . وإذا كان هذا خطأ فإنه خطأ هائل للغاية ، ويجب الاعتراف بوجود مبررات جدية كثيرة لاعتباره خطأ .

إن معظم الناس الذين يدعون بإلحاح الى تعقيم غير الصالحين يعنون بذلك غير الصالحين اجتماعياً . ولكن غير الصالح اجتماعياً لم يكن بالضرورة غير صالح

---

١ – يقصد بالتعقيم إجراء عمليات جراحية على الناس لجعلهم عقماً لا ينجبون .

جسمياً . لنأخذ قضية المرحوم غير المأسوف على شبابه جون دللنجر المجرم الشهير . فهو بالتأكيد لم يعطِ المجتمع أي مبرر للرغبة في الإكثار من أمثاله . ولكن لو كان قد قبض عليه ، ولو كانت ولاية الينوى تمارس قوانين التعقيم ، لطالب الناس بإلحاح بتعقيمه باعتباره « غير صالح » . ولكن هذا خطأ جسيم من الناحية البيولوجية . لأن معدن دللنجر كان معدناً ممتازاً فكان ذكياً شجاعاً قوياً ذا خيال واسع ومواهب قيادية ممتازة . ولكنه استعمل هذه المواهب ضد المجتمع وقام المجتمع بدوره بإزالته من الوجود . ولكن المجتمع تحمّل خسارة لا يمكن التعويض عنها . فقد كان ديللنجر ربحاً كامناً لو استغل بشكل صحيح . إن مفهوم « غير الصالح » (كما وضّح هولدين في دراساته لبعض الحالات في أمريكا) يعني الفقر فقط أو عدم إبداء الاحترام لحكام المحكمة . يشير شاينفلد إلى أن التعقيم بالجملة قد طبق على فتيات إحدى الإصلاحيات في كنساس لأن بعضهن كن يقاومن الحرس (م ٨٢) (م ١٦٦) . وإذا كانت المقاومة تثير غضب هؤلاء الذين يمارسون السلطة ، فإنها ليست برذيلة حسب دستور الولايات المتحدة، بل على العكس فإن روح المقاومة تدعو الى الإعجاب . وهناك الكثيرون الذين يؤكدون على قيمة التعقيم . فيقولون بوجود أناس غير صالحين من الناحية الجسمية ويجب التخلص منهم دون تساؤل لخير المجتمع وذلك بإيقاف تكاثرهم . ولكن هنالك من يشك في هذه الدعوة . وهم الذين يخلو حديثهم من تعابير « دون تساؤل » فيطلبون البراهين الناصعة . والجواب الذي يتلقونه دائماً هو « ضعاف العقول » . وإذا استمر الجدل وشرح لهم مدى غموض مفهوم « التخلف العقلي » وأثير موضوع غير الصالحين جسمياً فعلاً — كالبرص والبكم والمصروعين وذوي الأصابع القصيرة — فإن الصمت يسيطر على المدافعين عن هذه النظرية . يطلب المتطرفون تعقيم هؤلاء مهما كان الأمر ولكن رجل الشارع الذي يتحدث في فراغ أو الذي لا يتردد في استعمال القسوة مع من يخيفه لا يريد « الإساءة الى المنكوبين » أو القسوة عليهم .

واذا استطعنا التفرقة بين الصالح وغير الصالح فان مشكلة الإفناء ليست

بالبساطة التي تبدو عليها لرجل الشارع . إذ يكمن الخطأ الأساسي لهذا الرأي في الاعتقاد بأن الذين يظهر فيهم النقص هم الوحيدون الذين يحملون هـذا النقص وراثياً ، ولكن الواقع غير ذلك لسوء الحظ. فالصفات الوراثية السيئة متنحية في معظم الأحيان . ولو لم تكن كذلك لانقرضت البشرية . وهـذا يعني وجود أفراد يبدون « طبيعيين » ولكنهم يحملون هذه الصفات الكامنة التي لا تظهر إلا اذا تزوجوا من فتيات « طبيعيات » يحملن مثل هـذه الصفات الكامنة أيضاً . فالمشكلة اذن ليست منع غير الطبيعيّين من التكاثر بل منع جميع الناس الطبيعيين من ولادة أناس يحتمل أن يكونوا غير طبيعيين .

وتظهر صعوبة تطبيق ذلـك بوضوح في كون معظم البرص مولودين لآباء طبيعيين . وكذلك هو الأمر بالنسبة للمتخلفين عقلياً .

وعلى العكس من ذلـك فان غير الطبيعيين يـلدون أطفالاً طبيعيين إلا اذا اقترنوا بأزواج غير طبيعيين أيضاً اذ يتطلب الأمر شخصين لولادة غبي واحد . تحتوي كتب علم الاجتماع ، التي تدرس في الجامعات على قصة ممتعة عن أحـد أبطال الثورة الأميركية . فعندما ماتت زوجته الذكية والمقربة لقلبه انفلت من قيـد التعقل وتزوج خادمة حانة . وتستمر الاسطورة . فتقول إن القران الأول أنجب ذريـة تتمتع بالفضيلة والمقدرة وسمو الفكر ، حتى أنهم وقفوا في صف طويل ينتظرون دورهم ليعينوا مطارنة وحكاماً وعمداء كليـات !!! ولكن الزواج الثاني أنجب منحرفين ومعتوهين . والعظة من هـذه القصة هي ذرة من الوقاية خير من قنطار علاج . وبالتالي لو عقم الزواج الثـاني لتخلص المجتمع من مجمل عالات عليه. ولكن نقطة ضعف هذه القصة واضحة فلو كان أطفال الزوجة الثانية متخلفين عقلياً فإن صفة التخلف العقلي لا بد وأن تكون صفة وراثيـة متنحية لدى البطل نفسه . واذا سلمنا جدلاً بوجوب تعقيمه فمن كان سينجب المطارنة والحكام والعمداء ؟ [م ٧٠ ، م ٥٥ ، م ٧١ ، م ١٣٣ ، م ١٥٣] .

ولكي نصل بالتعقيم الى النتائج المرجوة، فعلينا افناء كافة الذين يحملون الصفات الوراثية السيئة . وبما أننا لا نستطيع تمييزهم عن غيرهم حتى ينجبوا طفلاً ناقصاً،

فعلينا إذن إفناء جميع الذين « يحتمل » انهم يحملون مثل هـذه الصفات . وهذا لا يقتصر على المجرمين والأغبياء البرص وأصحاب النزيف والبكم والصم والمصابين بالتشنج العضلي وغير ذلك من النواقص ، بل جميع الذين لا تخلو عوائلهم من غير المرغوب فيهم . – واذا تركت الفرصة للأقارب ليقرروا ذلك – فإن ذلـــك سيشمل جميع البشر .

الفصل السابع

أصخ للجنين

ما أن يولد مفهوم خاطىء في مخيلة الناس حتى يبدأ بالتوالد فينجب الكثير من الأوهام . وأهم هذه المعتقدات أن هنالك انطباعات تترى على الأم الحامل فتؤثر في الطفل قبل أن يولد . ولقد جرى الاعتقاد مؤخراً أن للانطباعات المريحة الممتعة أثراً مفيداً في الطفل. ولذلك فعلى الحامل أن تبقي نفسها في وضع مرح ؛ فتنصت الى الموسيقى الجيدة ، وتتردد على متاحف الفنون الجميلة . ويقول « منكن » هناك اعتقاد بأن « الأم الحامل التي تجلس الى البيانو كل يوم في أثناء حملها ستنجب طفلاً ذا مستقبل موسيقي ممتاز . وهذا جزء لا يتجزأ من مجمل المعتقدات الأمريكية » . [م ١٣٦ ص ١٠٩]

ولكن هذا المعتقد يبدو لنا حديثاً . ويجده معظم الذين يؤمنون بالتأثيرات التي تمارس قبل الولادة على الطفل « تدليلاً » . إذ إن التأثيرات هذه هي في رأيهم دائماً تأثيرات سيئة . فيقول شكسبير في مسرحية « هنري السادس » إذا كانت الحامل في فترة حزن فإن دموعها قد « تغرق الجنين في الرحم » . واذا رأت شيئاً مرعباً فإن طفلها سيكون وحشاً ، أو تظهر فيه صفات تشبه ذلك

الوحش المرعب . أما إذا كان وحامها بشيء لا يتوفر فقـــد يولد الطفل ناقصاً وهكذا دواليك . [م ١٦٣ ، ١٦٢٣]

وليس هناك شيء يثير الرعب قدر ما تثيره هذه الأوهام . ولذلك فلم يسمح الملك « جاوبايه » ، ملك سيام ، لأول توأمين ملتصقين ولدا في سيام ، بالظهور في الشوارع ؛ لأنه اعتقد بأن منظرهما يؤثر تأثيراً سيئاً على كل النساء الحوامل . كما أن الحكومة الفرنسية رفضت دخولهما الى فرنسا لنفس السبب .[م ٧٦]

ولكن هـــذه المخاوف لا يعوزها « الدليل » أو « الاثبات » فإن الأدب الشعبي يجمع بين دفتيه قصصاً لا حصر لها عن النساء اللواتي ارتعبن أثنـاء حملهن فولدن مخلوقات عجيبة . ولعل أشهر هـــذه القصص هي قصة السيدة « جشوا توفتس » التي عاشت في « جيلفورد » في ساري . ففي عام ١٧٢٦ ادعت بأنهـا ولدت عدداً من الأرانب كنتيجة لإجفالها من أرنب أثناء حملها . ولقـد اثبتت ادعاءها بأن عرضت على الملأ خمسة عشر أرنبـــاً ، علاوة على شهادة « جون هاورد » ، قابلة المقاطعة ، والتي ادعت بأنها كانت موجودة عندما حدثت هذه الولادة الغريبة . ولقد استدعي السيد « سنتأندريه » الجراح والمشرح المرخص من جلالة الملك ، وصرّح في مقاله الموسوم « سرد قصير لولادة أرانب غريبة في لندن ١٧٢٧ » بأنه ساعد المرأة في ولادة أرنبين آخرين . ولقد أصبح هذا الأمر حديث المجتمع إذ يعتبر عجيباً حقاً حتى لو حدث لأرنب . ولذلك فقـد أرسل جورج الاول طبيبه الخاص « أهلرز » ليبحث الموضوع . ولكن أهلرز حصل على نصف أرنب فقط ؛ وانسحب غاضباً عندما شككت هاورد في قدراتـــه المهنية . ولذلك فقد أرسل جراحان آخران للتحقيق في القضية فأعلنا للملأ بعد التحقيق بأن القضية كلها كذب في كذب. ولكن الجمهور لم يقتنع. فقد استثارت معجزة جيلفورد خيال الأوربيين لعدة سنين. ولهذا فقد صدرت عـــدة كتب وعدة مناشير ما بين مؤيد ومعارض ، وحتى صدرت كتب مجلدة بجلد الأرانب للذين يحبون الكتب [م ٣٢٩ ص ٩١٥ – ٩١٧] . ولم يفق هـــذه القصة أية قصة أخرى مما انتشر بعدها . ولكن الولادات الغريبة هي جزء من فضائح كل

قرية معروفة . وفي نهاية القرن التاسع عشر بلغ المثقفون درجة من الشك حول الموضوع ، ولكن التعبير عن هذا الشك كان في حاجة ماسة للشجاعة الأدبية . إذ إن المجلات الطبية كانت تنوء بالمقالات والشهادات من أطباء أصرّوا بناء على خبراتهم وملاحظاتهم بأن تأثيرات ما قبل الولادة هي حقيقة لا جدال فيها . ولقد جمع « هافيلوك ألس » ، الذي لم يشأ أن يصرف احتمال صحة مثل هذه الأحداث ، قائمة طويلة لمثل هذه الشهادات في صفحات مجلة « لانست » وهي خير المجلات الطبية البريطانية . ولقد تطرقت هذه الشهادات الى تشويهات جلدية على الأغلب، ولكن تخللها شيء من الوحوش وقصة ممتعة عن كلبة كسرت رجلها أثناء حملها وإذا بجروها يولد بثلاثة أرجل [م ١٧٥ ، م ٢٩٤ ، م ٢٩٥ ، م ٢٩٦ ، م ٢٩٧ ، م ٢٩٩] .

ولقد أُعطيت في الماضي أهمية قصوى لوحام النساء حتى أصبح الوحام مرادفاً ودليلاً لا يرقاه الشك على حمل المرأة . واعتقد بأن المرأة اذا توحمت بشيء لا تستطيع أن تناله يولد طفلها ناقصاً . ولهذا فقد جرت بعض البلدان ، كسياسة عامة ، على اعطاء الحبالى حرية سرقة بعض الأشياء لكي لا يلقوا على المجتمع عبء ولادة أطفال مشوهين . فمن بين القوانين التي سنتها الثورة الفرنسية والتي أبطلها نابليون فيما بعد كان هنالك قانون يسمح للحبالى بالسرقة من مخازن الفواكه والخضروات والمآكل .

ولقد اعتبر الوحام ، وخاصة اذا كان فاكهة أو خضروات موسمية غير متوفرة ، دليلاً قاطعاً على الحمل. ولقد استعمل « وبستر » هذه الصيغة في تمثيلية « دوقة مالفي » وهكذا اعتبر وحام الدوقة في المشمس شيئاً يشبه اختبار « أشيم – زوندك » الذي يثبت لاخوتها المتشككين انها حامل . وفي عام ١٨١٤ ادعت « جوهانا سوث كوت » النبوة ، كما ادعت بأنها حامل بالمسيح . ولكي تثبت دعواها التهمت مائة وستين رأساً من « الأسبرج » في جلسة واحدة . حيث اعترف الناس بأن مثل هذه الرغبة الخارقة لمثل هذه الخضروات الباهظة الثمن لا يمكن أن تسبق إلا ولادة شخص بالغ الأهمية . [م ٣٣٠ ، م ١٩٠ ،

م ٣٢٩ ، م ١٨٤] .

أما التنبؤ بجنس الطفل قبل الولادة عن طريق علامات معينـــة ، فهو أمر يؤمن به الملايين ويوسع البعض تنبؤهم هـذا الى فراخ الدجاج . فهم يدّعون بأن البيض المستطيل يفقـّس ديكة ، بينما يفقِس البيض المكوّر الدجاج . وقد علق على ذلك السيرتوماس براون بقوله « تستطيـع التجارب دحض مثل هذا الرأي بيسر » . أما بـــين البشر ، فلقد جرى الاعتقاد ان موضع الجنين وحالة الأم الجسمية تدلان على طبيعة الوليد . فقد استفتى « جتماتشر » خمسين امرأة حاملاً في مستشفى جون هوبكنز ووجد بأنهن جميعاً تقريباً كن يشعرن بأنهن يعرفن جنس أطفالهن قبل الولادة . فقالت بعض الأمهات ، إذا رفس الطفل الى اليمين فسيكون صبياً . أما إذا رفس الى اليسار فذلك دليل على انه بنت. واذا كانت بطن الأم مرتفعة الى الأعلى فسيكون الوليد صبياً ، أما إذا كانت البطن متهدلة فسيكون الوليد بنتاً . وإذا تساقط شعر الأم أثناء الحمل فذلك دليل على أن الوليد صبي . وإذا توحمت الأم بالمـآكل الحلوة فإن الوليد سيكون بنتـاً . أما إذا كان الوحام بمآكل حامضة فإن الوليد سيكون صبياً . وإذا تخوعت باكراً في الحمل فإن الوليد سيكون صبياً،فقد صرحت احدى المخضرمات بأن الصبيان يجعلونها تتقيأ كثيراً .

لقد تداول الناس هذه الأوهام ما يزيد عن ألفين وخمسمئة سنة (٢٥٠٠) . ويعود تحديد جنس الوليد الى خطأ ظهر عـام ٥٠٠ ق.م. ونشره « بارميدز » في ايلام [م ٧٦] .

وغالبـــاً ما يسمع الانسان أن الطفل الذي يولد في الشهر السابع من الحمل سيعيش ، بينما يموت الطفل الذي يولد في الشهر الثامن من الحمل . ويعود هـــذا الخطأ الى أبيقراط . كما أشير اليه في العـــدد الصادر في شباط ١٩٤٤ من المجلة الطبية البريطانية ؛ حيث نشرت بأن هذا الاعتقاد على درجة من الانتشار بحيث توجد ضرورة لدحضه . وإذا استثنينا الحالات التي يكون فيها الجنين أكبر مما يجب أو أنضج مما يجب ، حيث يحتمل أن يجرح أثناء الولادة ، فإن كل الدلائل

تشير بأن الطفل كلما بقي في الرحم فترة أطول ازدادت احتمالات حياته. كما ان الاحصائيات الحياتية التي جمعت في كافة مناطق العالم تنقض هـذا الرأي الذي لا يسنده شيء سوى سحرية الرقم سبعـــة . [م ١٦٤ ، م ٢١٦ ص ٢٧٦ ، م ١١٨ ، ص ٤٩١] .

وتشيع مفاهيم أخرى خاطئة حول الجماع والتلقيح ، منها أن المرأة المصابة بالعنـّة مصابة بالعقم ايضاً. ومنها أن الذين يخصَون لا يستطيعون انشاء علاقات جنسية ولا يمتلكون الرغبة ، ومنها أن النساء لا يحملن أثناء الرضاعة فهن لذلك عاقرات حتى يفطمن طفلهن الرضيع .

ولقد أثبتت البحوث العلمية خطل الرأي الأول . أما الثاني فقـــد كان موضوعاً لكثير من المزاح عـبر القرون ، وصيغة لتمثيلية ممتعة في الانكليزية ؛ تلك هي تمثيلية « الزوجة الريفية » تأليف « ويشلري » . ولكن مع كل ذلك لا نصيب لهـا من الصحة اطلاقاً . فالكثير من المخصيين يتمتعون بقدرة جنسية طبيعية . وإذا كان الاخصاء قد حدث بعـــد سن البلوغ فلا يؤثر على القدرة الجنسية أو الرغبة إلا قليلاً . [م ٢٠٤]

ولقد جرى الاعتقاد بأنّ الأطفال يصرخون وهم في الرحم . ولكن بالرغم من الكثير من الحالات التي تطرقت اليها المجلات الطبية القديمة ، فإن هذا الأمر مستحيل من كل ناحية . فلا يستطيع الطفل أن يصرخ إلا أثناء أو بعد الولادة . قد يصاب الجنين بالفواق ، كما أن حركة الصدر التي تشبه التنفس قد لوحظت في في حـــالات مبكرة بلغت حوالى الشهر الخامس . ولكن الأصوات تنجم عن مرور تيار من الهواء عبر الحنجرة . وبما أن الجنين مغلف في كيس مليء بالسائل ولذلك فليس ثمة هواء في داخل الرحم فإن هذه الحركة مهما كان مداها لا يمكن أن تنتج صراخاً . [م ٢٨٤ ص ٥٧ ، م ٧٣ ، م ١٩٦ ، م ٧] .

ان الحديث عن « الطفل في الرحم » حديث بلا معنى ، ويعتقد الدكتور « فشبين » بأنه مضيعة للوقت . ولكن « الفرد جونز » ، مدرس علم النفس في كلية هنتر ، يعتقد أن العمل على تصيير أخلاق الطفل يجب أن يبدأ حالما يتكون

جنيناً . فهو ينصح الأم الحامل « أن تتحدث مع طفلها فتخبره ما يجب أن يكون في المستقبل ، كما يجب أن تخبره كيف يجب أن يكون صحيح الجسم » . [م ٢٢١ ص ٣] .

أما عقم المرأة في اثناء الرضاعة فهو أمر ينقضه الملايين من الأخوة والأخوات الذين لا يتجاوز الفرق بين أعمارهم أو اعمارهن سنة واحدة . إلا اذا أصرّ البعض بأن الطفل الأكبر قد تم فطامه خلال ثلاثة أشهر .

مهما كان الأمر بالنسبة للبشر فليس ثمة شك بأن الحيوانات تحمل وهي تُرضِع . فأنثى كلب البحر مثلاً تحمل خلال ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً في السنة أو أكثر في بعض الأحيان [م ٧٦ ، م ١٤٨ ص ١] .

وبالرغم من هذا ، فالاعتقاد بأن البشر يختلفون في هذا السبيل عن الحيوانات أمر شائع فعلاً . وغالباً ما تستمر الأمهات في ارضاع اطفالهن فترة طويلة لهذا الغرض . فتقوم نساء جزيرة تروبرياند بفطم الأطفال عندما يقول الطفل بوضوح إنه يفضل الأطعمة الصلبة . كما أن نساء الكنغو لا يفطمن أطفالهن قبل أن يبلغوا السنتين أو الثلاث من العمر . ويقول مسافر في جاوا بأنه رأى صبياناً يلقون سجائرهم عندما يستعدون للرضاعة ، ولكنه يعترف بأن الأطفال هناك يبدأون التدخين مبكراً !!! [م ١٠٨ ، م ٤٤ ض ٢٢٤] .

وفي المعتقدات الشعبية يلي الجماع ، والتلقيح ، والحمل ، والولادة ، والارضاع ، مشكلة الحيض والتي تكتنفها مختلف أنواع الأوهام شأنها شأن كافة فعاليات الأعضاء التناسلية . ولعل معظم هذه الأوهام يتعلق بالمحرمات الدينية القديمة فيعتقد بأن الجماع مع امرأة في أثناء الحيض يؤدي الى مرض الرجل واذا حدث الإخصاب فإن الطفل سيكون غبياً أو مجنوناً . كما يعتقد البعض بأن للحيض أثراً شريراً فهو يكسر الزجاج ويفسد الحليب كما يفسد النبيذ ويتلف المخبوزات .

ولقد جرى الاعتقاد في الماضي بأن الحيض هو سبب السفلس والحصبة . اما اليوم فالرعب ينحصر في الجنون . ولقد كان تحريم الاستحمام أثناء الحيض في

الماضي والذي لا يزال سائداً اليوم في المناطق الريفيـة من الأسباب التي أعطت المحرمات الصحية اسناداً جمالياً . ولقد قيل ان سبب تخلف أطفال « كاترين دي مدتشي » عقلياً يكمن في أنهم لقحوا اثناء الحيض .

ولقد حاول الكثير ، من الذين يعتبرون مراسيم وقواعد كتاب لفيتيكس اطروحة ومصدراً وثيقاً للقواعد الصحية العامة ، تبرير المحرمات الموسوية على هذا الأساس. أما فرويد فقد اعتقد بأن هـــذا الوهم ناتج عن الرعب الخرافي من الدم ، وأكد أنه يمكن استغلال هذا الخوف لأغراض صحية وجمالية .

وفي تلك الفترة ، كانت هنالك مبالغة في تقدير كميـة الدم المفقود . فيقول هوتن « لقد جرى الناس على المبالغة في تقدير كمية الدم المفقودة ، اعتـبروها من خصائص الدورة الشهرية للانثى البشرية وكأن أناث اللبائن الأخرى لا تتمـيز بهذه الظاهرة » فهي عقبة يتحمل عبئها البشر فقط . وفي الحقيقة لا يتجاوز الدم المفقود أربعة ملاعق طعام [م ٩٠ ص ٢٩٢ ، م ١٥٤] .

ويعتقد الكثير من النساء وبعض الأطباء أن على المرأة الابتعاد عن المثلجات اثناء الحيض ، إذ أن ذلك « يجمد » الحيض . إن هذا المعتقد غريب إذ انـــه يختلف عن بقيـة المعتقدات في أنه حديث الأصل إذ لم يتسنّ للناس الاستمتاع بالمـآكل المثلجة إلا في الأزمنة الأخيرة . وبالرغم من هذا يبدو أن الفكرة قديمة فقد كانت المخاوف من « توقف » الحيض منتشرة انتشاراً واسعاً في التشخيصات في الماضي . [م ٨٨ ص ٤٤] [م ١٢٧ ص ٢١١ – ٢٢٠]

أما المخاوف من الأثر السيء للحيض على الموجودات القريبة ، فقـد شرحها « بلني » بثقته المعتادة فهو يقول : حالما تقترب امرأة في الحيض ، يصبح اللـبن أو الحليب حامضاً ، وتصاب البذور بالعقم ، والنبـــاتات بالعطش ، كما تسقط الفواكه من الأشجار . وإذا نظرت الى مرآة كسرتها ، أو الى سكينة حـــادة ثلمتها . وهي تقتل النحل بنظرة واحدة ؛ كما تجعل الحديد والنحاس يصدأ . وفي الفترة التي تلت بلني والتي بلغت ألفين وخمسمائة عـام ، أضيفت امور وطرحت امور أخرى الى هذه القائمـــة ولكن الاعتقاد بشكله الأساسي لا زال سائداً .

فتمنع النساء من الدخول الى معامل العطور ومخازن النبيذ ومصافي السكر اثناء العادة الشهرية لئلا تتلف هذه المنتجات .

ولقد ادعى بعض « الباحثين » المحدثين وجود أساس لهذه المعتقدات . فلقد ادعوا اكتشاف مادة أطلقوا عليها اسم « مينوتوكسين » وقالوا بأنهـا جزء من تعرق المرأة في فترة حيضها ، كما ادعوا بأن هذه المادة سامة الى درجة بأن أي مقدار مجهري منهـا يؤدي إلى النتائج التي سردت اعلاه . ولكن لسوء الحظ لم يستطع أي باحث آخر اكتشاف هذه الماده . [م ١٢٧]

ولقد حصر معظم العلماء بحوثهم في أثر « هـذه السموم » على الموجودات الحية ، ولكن ليس ثمة حاجة الى « سموم غريبة » لتبرير الصحون المهشمة وقطع الكعك التالفة . إن النساء يصبحن سريعات التأثر قبيل وأثناء وبعيد الحيض . وعندما يصبح الرجال سريعي التأثر هكذا ، يجرحون أنفسهم أثنـاء الحلاقة ويصطدمون بعرباتهم ويخاصمون رؤساءهم ومرؤوسيهم . أما النساء فيهشمن الصحون ويصرخن باطفالهن ويلجأن الى البـكاء لدى أقل استفزاز ، كما يشعرن بالاضطهاد. فيتلف طبخهن بسبب أمزجتهن العصبية وليس في كل هذا أي تدخل غيبي . فالطبخ يعتمد على تنسيق عدد من الفعاليات الدقيقة بظروف صعبة للغاية وهو خير نموذج لما يفسده أي توتر عصبي .

ويجري الاعتقاد على ان فترة الحيض تبدأ مبكراً في المناطق الدافئة ومتأخرة في المناطق الباردة ، وانه من المستحيل أن تحمل الطفلة حتى تبدأ الحيض . وان الحيض محصور في البشر وهو يتوافق بشكل غامض سحري مع دوران القمر .

أما بالنسبة للوهم الأول فيشير ستفنسن الى ان فتيات الاسكمو يبدأن الحيض في نفس العمر الذي تبدأ فيه الاوروبيات. كما وجد مالينوفسكي انه لا فرق بين فتيات التروبرياند (من المناطق الدافئة) والأمريكيات. [م ١٠٨ ، م ١٧٢].

أما الوهم الثاني فقد أثبت بطلانه عشرات من الطفـلات التعيسات اللواتي يحملن قبل الحيض . ولعل أشهر هذه الحالات الطفلة لينامدينا التي حملت قبيل سن الخامسة وولدت طفلاً صحيحاً وهي في سن الخامسة وثمانية أشهر في آذار

١٩٣٩ في مستشفى الولادة في بير. وهناك الكثير من الحالات المشابهة المسجلة في المستشفيات [م ٥٨ ، م ٣١ ، م ١٠٠ ، م ١٤٢ ، م ١٩٥ م ١٠] [م ١٩٨] .

ولقد ردد البشر عبر القرون قول « بلني » أن انثى البشر هي الوحيدة التي تحيض . ولكن هذا القول مثل معظم أقواله الأخرى خاطىء تماماً . فان أناث كل القردة تحيض بالرغم من أن ذلك لا يبدو للعيان ، إذ أن اناث القردة غالباً ما تكون حوامل [م ٢١٠] . وهذا يلقي ضوءاً جديداً على مشكلة الحيض والحمل . يمكن اعتبار الحيض من هذه الزاوية « ظاهرة غير طبيعية » لكونها نتاجاً للحضارة . وقد يصبح الحيض ظاهرة نادرة في الحالة الطبيعية . ولقد كان النساء في حالتهن الطبيعية حتى جيلين مضيا . حيث كان الحيض يدعى بالرحمة بينما تطلق النساء اليوم عليه اسم اللعنة . إذ حملت الملكة آن ما بين عام ١٦٨٣ و ١٧٠٠ سبعة عشر طفلاً وما كان اختلافها عن بقية نساء عصرها الا في ان اطفالها اما ولدوا ميتين او ماتوا بعد الولادة بقليل . [م ١٨٧] .

وليس ثمة امر يسند العلاقة بين دوران القمر والعادة الشهرية الاعتيادية سوى طول فترة كليهما . وربما كان هذا خطأ ثقافياً وليس خطأ سوقياً . إذ من غير المحتمل ان تلاحظ المرأة الاعتيادية التوافق بين طول الشهر القمري وطول العادة الشهرية إلا في حالات نادرة . وذلك في الحالات التي تتوافق فيها دورتها الشهرية مع دورة القمر . ولكن المثقفين بلغوا شأواً بعيداً في تأملاتهم في هذا السبيل . فيقول كرسن ، وهو الماني حالم ، بان العادة الشهرية هي نتاج لعادة الرجل البدائي في صيد اناثه على ضوء القمر . فحينما يتبعهن في الغابات على ضوء القمر ، يهربن أمامه متهيجات فينجم عن ذلك حساسية في المهبل تؤدي بالتالي إلى النزيف الذي أصبح فيما بعد حيضاً . هذه هي احلام المتأملين .

أما مؤخراً فقد استبدل الأساتذة « كن ، وجنكين » التأملات الشعرية بالبحوث الاحصائية . فاستفتوا (١٠٤١٦) امرأة حول تأملات كرسن التي أضاءها القمر . ووجدوا بأن الحيض يحدث في أي يوم من أيام الشهر القمري بغض النظر عن دورة القمر . واستنتجوا من ذلك انه « لا مبرر اطلاقاً لربط الحيض بدورة القمر ». [م ٧٥ ، م ٧٤] .

الفصل الثامن

تصلبات الرمم

كان أكبر نصر صحفي (خلال الحرب الروسية الفنلندية) هو ذلك الذي يتعلق بالجنود الروس الذين تصلبوا بأوضاع الموت المخيفة والمختلفة فتجمدوا فوراً وهم يسقطون صرعى الموت. ولو لم يكن فهمنا خاطئاً لكل من الروس والموت ، لما احتلت مثل هذه القصص هذه المساحة الشاسعة في أعمدة الصحف. [م ٣٧ ، م ٢٤١ ، م ٢٦٥ ، م ٢٧٩ ، م ٣٠١ ص ٣١].

ويبدو السخف الفاضح في مثل هذه القصص لأي شخص ذبح حتى ولو دجاجة في درجات حرارة دون الصفر . ان جسم الإنسان يحتوي على غالون من الدم تقريباً . وطالما كان الانسان فان درجة حرارة الدم تساوي ٩٨ درجة فهرنهايت . وليس ثمة درجة حرارية معروفة في المختبر أو خارجه يمكن أن تجمد مثل هذه الكمية من الدم على مثل هذه الدرجة من الحرارة في لحظة واحدة. ولكي تتجمد سمكة ذهبية صغيرة يجب أن تهبط درجة الحرارة حواليها إلى ٢٠٠° درجة مئوية تحت الصفر. ويتطلب الأمر لكي يحدث هذا بضعاً من الثواني مع العلم ان السمكة الذهبية أبرد من الروس بكثير في الأساس . ولذلك مهما كانت درجة سوء تغذية هؤلاء البلاشفة ، ومهما كانت درجة تمزق ثيابهم عندما

اصطدمت بهم طلقات الفنلنديين ، كان لديهم من الزمن ما يكفي لأن يسترخوا قبل أن يقعوا فوق الأرض .

ان الخيوط التي نسجت منها هـــذه القصص استمدت في الأساس من خوف الناس من الروس، ومن رعبهم من الموت ومن التصلب الرُمي" الذي يهجم، حسب المعتقد الشعبي ، على الميت فجأة . يبـدأ التصلب الرُمي" الحقيقي استشراءه في الجسم تدريجياً بعد ٣ – ٥ ساعات من الموت، ويستمر (عادة) ما بين اثنتي عشر إلى أربع وعشرين ساعة ثم يختفي تدريجياً حيث يترك الجسم مرناً مرة اخرى. وفي حالات الموت العنيف يحدث أحياناً أن تنقبض يد الميت ، وتدعى هـــذه الحالة تشنج الجثة ، الأمر الذي قد يبرر بعض القصص التي يسمعهـا الانسان عن قبضة القتيل . ولكن ذلك لا يحدث في الجسم كله ولا يحـدث في فرق كاملة من الجيش . (م ١٦٨ ، م ١١٢) .

ان هذه الأوهام التي تتعلق بالموت هي حقائق مقدسة مخيفـــة لا يستطيع معظم البشر تحليلها بشكل موضوعي لا انفعالي ولكن هنالك من القصص مـا نستطيع تحليل بعضه في أكثر من فصل واحد .

لقد اعتقد الناس منذ القدم ان روح البشر تفيض مع « هبوط المد » فتوفي السير جون فولستاف[1] « مع هبوط المد تماماً » واجتاح « نـــداء البحر »[2] انوخ آردن ثلاث مائة عام بعد فولستاف . وهكذا طـاف باركيز الى الخلود . وصرح احد الشخصيات في قصة جـارلز دكينز الشهيرة ديفد كوبر فيلد « ان الناس لا يموتون على الساحل الا عندما يكون المد على وشك الانحسار ولا يمكن أن يولدوا الا لدى نهاية الجزر ولا يمكن أن يولدوا بشكل صحيـح الا لدى المد الكلي . ان روحه تفيض مع المد ... وإذا استطاع أن يعيش مع نزول المـــد فسيبقى حياً إلى نهاية المد الجديد »[3] .

---

(١) فولستاف في مسرحية هنري الخامس ، المشهد الثاني ص ١٣ – ١٤

(٢) تنيسون : عنوان القصيدة انوخ آردن ص ٩٠١ – ٩٠٨

(٣) جارلس دكينز ، دفيد كوبر فيلد ، فصل ٣٠ .

ومن الوسائل الأدبية الأكثر رسوخاً مشكلة « حشرجة الموت » . ان المؤلفين المبتدئين ليجدون انفسهم تائهين دون حشرجة الموت . فيقول ملفيل بجزم كلنا نطلق « حشرجة الموت حينما نسلم الروح » .

ولكن بالرغم من ملفيل يموت الكثيرون بلا نأمة ، ويعيش الكثيرون بعد أن يطلقوا حشرجة الموت . إذ ان هذه الحشرجة ليست إلا ضرباً من ضروب الشخير أو الغرغرة التي تحدث نظراً لانعدام السيطرة على التنفس . ولكن أي كاتب سيجد في نفسه من الشجاعة ما يكفي لأن يقول ان بطله أو بطلته ماتت وهي تشخر أو تتغرر ؟

ولسبب ما نجد ان الموت غرقاً أصبح بؤرة للكثير من المفاهيم الخاطئة حول الموت . ومن هذه المفاهيم ان كل من يموت غرقاً « يرى حياته تمر أمامه » قبل الموت تماماً وان كل من يغطس للمرة الثالثة يكون قد ذهب إلى الأبد . وهناك اعتقاد غريب آخر ورثناه من القدم خلاصته أن النساء الغارقات يطفن بعد الغرق ظهرهن إلى الأسفل ووجههن الى الأعلى وأن الرجال الغرقى يولون وجوههم شطر القعر وظهرهن شطر السماء .

أما مرور حياة الانسان بكاملها قبل أن يغرق ، فاعتقاد راسخ لاستحالة دحضه . إن تعريف الغريق المنطقي هو ذلك الشخص الذي يموت غرقاً فعلاً . ولذلك فنحن لا نستطيع قبول شهادة من ينقذ من الغرق إذ لا يمكن اعتباره غريقاً . ولكننا إذا أخذنا بافادة من أنقذ من الغرق ، كان ذلك ، كل ما لدى البشر من الأسس وليس هناك غيره مما يمكن أن يستند اليه . وهكذا نجد بأن هذا الاعتقاد لا يتمتع بأي أساس . ولقد أثيرت هذه المسألة قبل أعوام مضت في مجلة « ملاحظات وأسئلة » وقد أفاد العديد من الشهود أنهم فقدوا الوعي في الماء ثم أُنقذوا وأُعيدت لهم الحياة عن طريق التنفس الاصطناعي ولكنهم لم يروا أي ملخص بصري لتاريخ حياتهم . (م ٢٧٤ ، م ٢٧٥ ، م ٢٧٦) .

إن كل من يكسب لحظات من الشهرة و بوصتين من أعمدة الصحف عن طريق إنقاذه من الغرق يصرح بأنه كان « سيغطس للمرة الثالثة لو لم يهرع بإنقاذه » من

قام بانقاذه في تلك اللحظة المناسبة . ويتخذ هذا التصريح الشكل الكلاسيكي الآتي : « انني كنت أغطس للمرة الثالثة عندما أمسك بي منقذي ولو لم يكن موجوداً لكنت الآن في كفني في القبر » . (م ٢٢٥ ص ١٧) .

أنْ تعترف بأقل من هذا يعني انك فعلاً أقل من هذا طبعاً . ستزرع الشك في قلوب قرائك وسيعتقد كل قارىء بأنك لم تكن غريقاً فعلاً بل لم تكن سوى جبان أرعبك هبوط رأسك تحت سطح الماء مرة واحدة ، أو أسوأ من كل هذا أنك لست سوى ضحية تافهة لمنقذ متحمس ، ولكن « المرة الثالثة » تفعل فعل السحر في ضمك إلى قائمة الذين أشرفوا على الموت غرقاً .

أما المعتقد الشائع القائل بأن الغرقى يطوفون ووجههم إلى الأسفل بينما تطوف الغريقات ووجههن الى الأعلى فهي فكرة تنسب للطبيعة ، أما الحكمة أو اللياقة بسذاجة تجعل من يسمعها لأول مرة لا يستطيع أن يدرك كيف أخذها الناس مأخذ الجد. وهكذا نرى أن مجلة التايم تقتبس من الكابتن كرونين ، آمر دائرة المفقودين في مدينة نيويورك تصريحاً حول فتاة كان المعتقد أنها غرقت في النهر الشرقي حيث قال « ان هنالك احتمالاً كبيراً انهم سيجدون جثتها طافية قريباً . إن جثث كانون الثاني بدأت تطفو الآن ، ولكن الجثث تطفو بشكل أسرع في الربيع . الرجال وجههم الى الأسفل والنساء وجههن الى الأعلى » . (م ٣١٢) .

وتنقلب هذه الوضعيات احياناً: النساء وجههن الى الأسفل والرجال وجههم إلى الأعلى . ولكن مهما كانت الوضعية فهذه الفكرة تفترض الأدب أو اللياقة خاصة في الطبيعة . فمنذ ان زرع وردسورث في الفكر الشعبي معادلته حول الطبيعة والإله – الاله هو الطبيعة والطبيعة هي الاله – أصبح غير ممكن أن ندرك عدم اللياقة في الطبيعة . وبالرغم من ان هذه النظرية لا تستطيع أن تقدم أي تقسيم في وضع الجسم بين الجنسين يمكن أن يتناسب مع أي مقاييس خلقية ، مهما كانت متساهلة بالرغم من ذلك فهذا المعتقد يستمر !!!

وهناك قصص اخرى خاصة بأنواع اخرى من الموت . فلقد اعتقد الناس

قديماً ان الإنسان الذي يسقط من علو شاهق يموت قبل أن يصل إلى الأرض . يموت بشكل غامض سحري لربما كانت سرعة سقوطه هي التي تقتله . ولكن اختراع المظلة والرياضة التي أخذ بعض الناس ممارستها حيث يؤخرون فتح مظلاتهم عمداً لألوف الأقدام قضى كل هذا على ذلك الاعتقاد .

ولكن هناك فائدة في مناقشة هذا الموضوع بالرغم من اختفاء هذا المعتقد . اذ انه يوضح بشكل جلي كيف يصبح معتقد ما راسخاً عندما لا تتوفر الأدلة القاطعة لاثباته أو لنقضه . فكنا نسمع بشكل قاطع التأكيد « انه لم يشعر بارتطامه بالأرض مطلقاً ! اذ انه مات قبل وصوله الأرض بزمان ! » ولكن الذي يسرد لنا هذا الحديث لم يكن ليعرف أي شيء عن الموضوع . أما الآن فنحن نعرف تماماً انه كان مخطئاً حتماً .

ويوضح لنا هذا المعتقد أيضاً مدى الصعوبة التي كان يعانيها من يحاول دحض هذا المعتقد لقلة الأدلة تلك التي تتوفر لدينا بشكل كبير اليوم . ولولا اختراع المظلة لكان من المستحيل أن نختبر هذه الفرضية، لأن الذين أكدوها افترضوا ان الارتفاع الذي يجب أن يلقي الانسان نفسه منه يجب أن يؤدي الى موته عندما يصل الأرض . ولكن المشكلة اختبرت بالرغم من هذا « بشيء من العناية » . ولقد جمعت خيوط من الأدلة التي أوحت حتى حينذاك ان المعتقد خاطىء . فيشير أكرمان إلى قصة محزنة لصبي سقط وهو يصرخ « اسفل ثلاث مرات » فهو كان ينذر أصدقاءه بالابتعاد عن طريقه وبنفس الوقت كان يحاول أن يثبت انه كان حياً عند سقوطه بالرغم من قصر المدة » . وكانت هناك قصة أخرى عن أحد عمال تنظيف شبابيك باريس الذي سقط من عمارة وكان يصرخ « انني على أحسن حال الى الآن » عندما مر من شباك الطابق الثالث ......!!!! ولكن المجمع الطبي الفرنسي رفض هذا الدليل !!! (م ٢٤٠) (م ٧٣ ص ٧٠٥) .

ولقد تداول الناس أيام الحملات على الكحول معتقداً غريباً ما زال يظهر أحياناً بين الفينة والأخرى . وملخص هذا المعتقد هو أن المدمنين ينفجرون

احياناً انفجاراً ذاتياً. فنجد أن تاجر المخلفات الشيخ كروك في قصة جارلز دكينز « الدار القفراء » ينفجر ذات يوم بعد حياة يعب فيها الخمر عباً ولا يترك وراءه من أثر سوى « بقعة محترقة على الأرض وبخار خانق في غرفته وطبقة من الشحم تغطي السقف والحيطان » . (م ١) .

لا زال الكثير من البشر يؤمن ويؤكد بأن وزن الانسان يتبدل لحظة الممات. ولكن هؤلاء ينقسمون الى قسمين مختلفين . اولئك الذين يؤمنون بأن الانسان يصبح أخف وزناً بعد الموت واولئك الذين يعتقدون انه يصبح اثقل وزناً .

أما الذين يعتقدون أن الميت أخف من الحي فيبدو انهم يعتقدون أن للروح وزناً ، ولذلك فعندما يفقد الجسم روحه يفقد شيئاً من وزنه . فيدعون الطريقة نفسها ، التي يمكن أن تعتبر جزءاً من صيغة هذه المناقشات أن هناك من مات وهو موضوع على الميزان ، وقد لوحظ أن وزنه خف فعلاً لدى مفارقته الروح . ولكن هؤلاء طبعاً لم يعطونا اسم المختبر الغريب الذي أُجريت فيه هذه التجربة ، أو أي دار تلك التي كانت مجهزة بمثل هذه الموازين الدقيقة ، أو أسماء وعناوين هؤلاء الأقارب الذين وضعوا مشكورين فضولهم العلمي والديني فوق اهتمامهم العاطفي براحة قريبهم المحتضر .

ولقد كان في الماضي من اعتقد بأن للروح كتلة أيضاً، فنجد أن الفن المسيحي البدائي غالباً ما عبّر عن الموت ببالون يخرج من فم الميت محتوياً روحاً ذات شكل ما .

أما المعتقد الأشيع فهو ذلك الذي يتعلق بالفكرة القائلة بأن الميت يزداد وزناً بعد الموت. ولكن الحقيقة تكمن في إدراكنا الموضوع. إن جسم الميت يبدو وكأنه قد ازداد وزناً . إننا نحمل أجسامنا بسهولة ويسر تجعلنا لا نشعر بالطاقة المبذولة فعلاً في حمل أجسامنا هذه ، ولكن الانسان يشعر بوطأة ذلك الوزن عندما يضطر الى رفع شخص آخر في الملمات ، فإننا عند ذلك نشعر بثقل ٢٥٠ - ٣٠٠ رطل ، وهي معدل وزن البشر وغالباً ما ندهش ونعتبر أن ذلك الشخص قد اتخذ وزناً جديداً . إن الجثة أو أي طرف مقطوع ليصدمنا وزنه

عندما نتناوله للمرة الاولى. والشخص الذي يلوح بيديه لا يدرك عادة أنه يرمي فيما حواليه ذراعاً تزن ٢٠ رطلاً . وأي فتاة تنط راقصة على أنغــام الموسيقى لا تدرك أنها ترمي حواليها ساقين تزن كل منهما ٤٠ رطلاً . انها تشعر بالرغبة في الرقص وحسب .

أما ان الشعر ينمو بعد الموت فمعتقد قبله بلني، وهو رجل سريع التصديق، وصموئيل بتلر ، وهو رجل بطيء التصديق ، ومئــات الملايين من البشر الذين يتباينون في سرعة تصديقهم والذين عاشوا بينهما .

ومازال هذا المعتقد يطرح كحقيقة تستند بوصف ممتع للغاية لتوابيت فتحت فوجدت محشوّة بالشعر كأية أريكة من الطراز القديم . ولقد كتب الدكتور كالدويل من آيوا في سجل نيويورك الطبي ١٧٧٧ عن جثــة استخرجت حيث يقول انــه كان موجوداً ، فلوحظ أن شعر الميت ولحيته قد كسرت التابوت وظهرت من بين شقوقه . ويخبرنا كولد وبايل في كتــابهما « Anomalies » عن جثة كانت تحتاج إلى حلاقة في فترات منتظمة . ولكن معظم الرواة قنعوا بنمو أقل من هذا بكثير . إذ أن نمو الشعر في الجثة معتقد يشبع شيئــاً غامضاً في نفسية البشر ، لذلك فأي إثبات على العكس لا يترك أي أثر ملحوظ في تحويل اقتناع الناس . (م ٧٣ ص ٥٢٣ ، م ٢٣٨) .

إننا نستطيع أن نفترض بشيء من الطمأنينة أن هناك القليل من البشر الذين قاموا بقياس طول شعر الجثث بانتظام، ولذلك فما يزيد عن ٩٩ بالمائة من القصص التي نسمعها هي قصص مسموعة فحسب ، أما بالنسبة لهــذا الأقل من الواحد بالمائة ، فلربما كان هناك تبرير بسيط . يحدث بعد الموت ان تتقلص الطبقة السفلى من الأدمة في جــلد الانسان ، الأمر الذي يجعل الشعر ينتصب ، وبالتالي يبدو أطول ممــا كان عليه في الماضي قليلاً . بنفس الطريقة يجعل تقلص جلد اليدين الأظافر تبدو وكأنها قد نمت . ولقد جادل البعض أنه قد يكون هناك أساس إذا أخذنا بالرأي القائل بأن خلايا الشعر تستمر بوجود مستقل بعد أن يكون الجسد أو الكائن العضوي قد توقف عن الحياة . ولكن وقوف الدورة الدموية

ووقوف التنفس، وبالتالي وقوف التغذية لا يعطي أي حياة للشعر بعـــد ثلاث ساعات على الأكثر . وهذه أقل بكثير من أن ينتج أي نمو ملحوظ .

أما الانتحار فقد كان دائماً بؤرة لمغالطات كثيرة، فقد عُدّ هروباً من المرض العضال أو الفقر المدقع أو العار المشين أو الحب المرفوض . ولقد يكون لكل واحد منها أثر ، ولكن الانتحار بشكل عام هو الفصل الختامي لدراما نفسية بالغة التعقيد سداها ولحمتها الشعور بالإثم والعداء البالغ وجوع مريض للشهرة . ويتصف التعبير القانوني « قتل النفس » بالكثير من الحكمة. فالأوراق التي يتركها المنتحرون مليئة عـــادة بالتعابير الحقودة حيث يكون مغزى معظم هـــذه القصاصات من الورق « سوف تندمون » . ولقد قال البعض إن الاجهاد في العمل سبب من أسباب الانتحار . ولكن الدراسات العلمية تشير الى أن الانتحار بين العاطلين أكثر منه بين العاملين .

والصورة الاعتيادية التي ترسم عن المنتحر تتضمن وصفـــاً لشاب سوداوي ولربما كان شاعراً أو محباً لم يبلغ غايته فيشنق نفسه، أو يتناول السم الزعاف في غرفة مظلمة حقيرة في يوم من أيام الخريف الحزينة . أما الاحصائيات فتشير الى أن الانتحار بين المسنين أشيع منه بين الشباب ؛ وانه بين المصابين بالسمنة اكثر شيوعاً منه بين النحاف ؛ وانه في الربيع أكثر منه شيوعاً في الخريف ؛ وأن فيينا « المرحة » وساندياغو « المشمسة » تسجل أعلى نسب للانتحار في العـالم . (م ٥٣ ، م ١٢٣ ، م ١٠٢) .

أما الرأي القائل بأن هؤلاء الذين يهددون بالانتحار لا ينتحرون فعـلاً فهو معتقد لا يفوق شيوعه سوى خطأه وخطره . إن كل من يهـدد بالانتحار يحمل بذور امكانيـــة الانتحار . ويندر أن ينتحر من لم يهدد بالانتحار أولاً ، أو أن يحاول الانتحار مرة اخرى فيفشل . قال المحقق العدلي لمدينة نيويورك انـه إذا وجد شخص ما مذبوحاً ، فالشرطة تبدأ في البحث عن الجروح السطحية غـير المؤذية أولا لتقرر فيما إذا كان في الأمر جريمة أو انتحار ، وتطلق على هـــذه الجروح الطفيفـــة اصطلاح « علائم التردد » وهي تلك المحاولات التي يقوم بها

المنتحر عندما يستجمع شجاعته للطعنة المميتة . (م ١١٢) .

أما القتل فله قصصه الخاصة به والممتعة غايـــة الامتاع . فاعتقد الناس في الماضي ان جثة القتيل تنزف دماً بحضور القاتل ، ولكن هذا المعتقد قد تلاشى بالرغم من أن هوثرنك استعمل هـذه الصيغة بكل جد عام ١٨٦٠ ، كما اننا لا نسمع اليوم عن رؤوس تنطق بعد أن تفصل عن جسمها إلا فيما ندر . ولكن ما زالت ، بالرغم من كل ذلك ، كثير من الاساطير تعيش . ولعل أشيع هـذه الأساطير أن الجريمة ستكتشف يوما ما . ولعل أساس هذه الاسطورة يكمن في المعتقد الذي يتضمن وجود قوة غيبية تحقق العدالة، وتكشف عن المجرمين فـلا تدعهم يفلتون . ولكن إذا كانت مثل هذه القوة الغيبية موجودة فعـلاً فلا بد انها قد أخذت اجازة في الفترة الأخيرة الماضية . أو على الأقل اخذت اجازة في مدينة شيكاغو حيث تصرح لجنة تحقيق شيكاغو ان بين ما يزيد عن خمسة آلاف جريمة قتل اقترفت ما بين ١٩٢٥ – ١٩٤٣ لم يحل سوى أقل من نصفها . ولكن قد يظن ان سجل شيكاغو الشهيرة بالجريمة حالك السواد (م ٢١٧ ، م ٣٠٦) . وبجانب هذا الخطأ ، خطأ آخر . فهناك العديد من المدن في أمريكا مـــا يفوق شيكاغو في سواد سجلاتها . فهناك العديد من مدن الجنوب التي تسجل أرقامـاً أعلى من جرائم شيكاغو ونيويورك في القتل، كما انهـا لا تسجل في اكتشاف القتلى أرقاماً أفضل من تلك التي تمتلكها شيكاغو . (م ٢١٧ ، م ٣٠٦) .

ولقد قاد الوهم الشائع ، في ان الجير (النورة) المطفي يأكل الجثث فيذيبها، الكثير من القتلة إلى حبل المشنقة لأن الجير المطفي في الحقيقـــة يحفظ الجثة من التلف والتفسخ ويبقيها صالحة ليستفيد منها المحقق العدلي لاثباته . وهكذا فقد اكتشفت ضحايا السيدة بل كينيس ، في ولاية أنـديانا ، الأربع عشرة اللواتي دفنّ في الجير المطفي أمـــلاً منها في أن تذوب ولكنهـا خيبت ظنها فحينما استخرجت كانت محفوظة بحيث بات من السهل التعرف عليها . واوسكار وايلد الذي أكد بأسلوبه الشعري بأن الجير المطفي يأكل « اللحم نهاراً والعظام ليلاً » خدم هو نفسه في نقض هذه الفكرة . فعندما استخرجت جثته من الجير المطفي

حيث دفنت بعد مرور عامين لوحظ بأن الجثـة لا تزال محفوظـــة خالية من العطب (م ٨٧ ، م ٨٤) .

ولكن القصص البوليسية والصحافة لا تزال تستفيد من الجير المطفي كوسيلة سهلة للتخلص من قرائن الجريمة . وإذا نبش المراسل الصحفي في مخيلته ولم يجـد ما يملأ به عموداً في صفحة الجريمة كان هناك الجير المطفي جـاهزاً على الدوام . وهكذا فان السيد دوجلاس المراسل في مكتب باريس لجريدة شيكاغوسن عندما جوبه بمعسكر للاعتقال خالي الوفاض في قلعـــة زمنفيل هجره الالمـــان لدى انسحابهم . أشار هذا المراسل الهمام بأن هـذا المعسكر لم يكن سوى « مصنع موت لشهيدات فرنسا البطلات » . أما ان لم تكن هناك أي آثار لهذه البطلات فقد أثار الرعب حول الحادث إذ « لا شك في انهن دفنّ في الجـــير المطفي » . (م ٢٢٣) (م ١٦٨) .

وهناك اعتقاد غريب يتسم بالحيوية المستديمة ويتلخص بأن أعـــين القتلى تحتفظ في شبكتيها بشيء يشبه الصورة الفوتغرافية للقاتل . ولقد استغلت هذه الفكرة في قصة « القبائلي » وصورت فيما بعد في فيلم « مولد امة » كما استغل هذه الفكرة الشاعر كبلنج في قصته القصيرة « نهاية الطريق » حيث نرى ان صاحب هميل يموت لدى رؤيته لشيء غامض مرعب ومريـع . ولكن الدكتور سبرتو وهو شخص عملي في هذه القصة يميل إلى الاستخفاف بالعجائب الغيبية ، يقوم بتصوير عين القتيل لكي يكتشف سبب موته وعندما يحمّص الرقوق الفوتغرافية يخرج من غرفة التصوير متهاوياً ، وقد علا وجهه الشحوب الشديـد . أما ما هو ذلك الشيء المرعب الذي قتل صاحب هميل فلا نعلم لأن الدكتور يرفض أن يخـــبرنا وبذلك ينقذ مؤلف القصة ان لم ينقذ قارئها من هذه الورطة . ولم تبقَ هـــذه الاسطورة في محيط الأدب فحسب بل تعدته إلى الواقع فيخبرنا الدكتور سنايدر عن تحقيق اشترك فيه حيث قام القاتل باخفاء ملابسه التي كان يرتديها أثنـــاء اقتراف الجريمة لكي لا يتعرف اليه الشرطة عن طريق اكتشاف صورتـــه في عين القتيل !!! (فيلم عين القتيل ١٩٤٥) (م ١٦٨) .

هنالك غير ذلك من المعتقدات التي تتعلق بجرائم القتل والمحاكم والقانون كالاعتقاد الشائع بان الحكم بالاعدام لا يمكن أن يصدر على متهم بالقتل الا لدى اكتشاف جثة القتيل . وفي هذه المعتقدات ان المتهم لا يمكن أن يعدم استناداً على الأدلة المنطقية فحسب . ومنها انه إذا قطع حبل المشنقة أثناء تنفيذ حكم الاعدام يطلق سراح المتهم فوراً .

يستمد الخطأ في أول هذه المعتقدات من سوء فهم المصطلح القانوني الروماني (Crpus Delicti) والذي يعني « جسم القضية » أو عناصر الجريمة ففي الحريق المتعمد يمكن ان يكون جسم القضية بيتاً محروقاً تعبقه رائحة تثير الريبة كرائحة النفط . وفي سرقة الخيول يمكن ان يكون جسم القضية اصطبلاً فارغاً. أما في الحليب المغشوش بالماء فيمكن أن يكون سمكه كما قال ثورو . أما في حالة القتل فان جثة تعلوها علامات العنف وجراح مميتة لا يمكن أن تكون ناجمة عن الانتحار يمكن أن تكون ببساطة جسم القضية . وهذا شيء مريح للمدعي العام ان وجد ، ولكنه ليس شيئاً لا مناص منه لاصدار حكم قاطع . (م ١٩٤) (م ١٨) .

والحكم في هذه الحالة لا بد وان يصدر بناء على الاستدلالات المنطقية . ولقد تم اصدار معظم أحكام الاعدام في الماضي استناداً لهذه الاستدلالات المنطقية بالرغم من الرأي الشائع الذي يدعي العكس . يقول ويكمور في كتابه القانوني الذي يعتبر مرجعاً في كليات الحقوق ، هناك ثلاثة أنواع من الأدلة وهي : الشهادة ، رؤية العيان والاستدلالات المنطقية . ولا يمكن لرؤية العيان ان تقدم كأدلة للمحكمة في جريمة قتل . فلو فرضنا ان هناك قاتلاً مجنوناً أصر على جر ضحيته الى داخل قاعة المحكمة ثم سحب مسدساً وأطلق عياراته النارية على الضحية أمام هيئة المحلفين والقاضي والشرطة فان كل هؤلاء سيكونون شهوداً عندما تجري محاكمته وتكون الأدلة التي يقدمونها شهادة فقط . كما يمكن اعتبار الاعتراف شهادة على النفس .

وإذا قارنا بين الأدلة المستمدة عن طريق الشهادات والمستمدة من الاستدلالات

المنطقية لوجدنا بأن الأخيرة هي أكثر اقناعاً . هذا على الأقل بالنسبة للحكام وغيرهم ممن مارسوا أعمالاً وضعتهم على احتكاك بشهادات الشهود . إذ ان الأحكام الجائرة التي صدرت على المتهمين كانت أسبابها على الأغلب شهادات الزور . وللبروفسور بورشارد من جامعة يل رأي عرضه في كتابه « الحكم على الأبرياء » حيث قام بفحص ٦٥ قضية تتعلق برجال ونساء ظهرت براءتهم بعد الحكم عليهم . يقول البروفسور ان هذا ليس سوى عينة أو نموذج عشوائي من مئات القضايا التي حكم فيها على الأبرياء . واستناداً إلى الوثائق التي يقدمها في كتابه هذا نجد أن معظم هؤلاء كانوا ضحايا شهادات الزور . فمن الخمس وستين هؤلاء لم يحكم الا على أربع بناء على أدلة منطقية . وفي ثماني حالات كان الحكم مستنداً على خليط من شهادات الشهود والاستدلالات المنطقية . أما بالنسبة للثلاث والخمسين حالة الباقية فكان الجميع ضحايا شهادات الزور والتصرف الخاطىء . (م ١٨) .

ان كتابه مرعب ولا شك ، ولكنه يثبت بأن الاستدلالات المنطقية تبدو وكأنها جبل شامخ إذا قورنت بالشهادة . ولذلك كان الذي يرعب المتهم ليس المنطق الملتوي بل شهادات الزور . إن الشبكة التي تنسج لاقتناص الأبرياء لا تنسج من المصادفات بل تستمد خيوطها من كذب المدعي العام وغباء هيئة المحلفين وانفعالها وتحيز الحكام .

تستعمل كلمة الاستدلالات المنطقية في الأدب الشائع وفي المناقشات حول الموضوع وكأنها مرادفة للشك والريبة . ولكنها في الحقيقة شك على درجة من القوة بحيث يستدعي اتخاذ الاجراءات المناسبة . فهيئة المحلفين ببوسطن مثلاً عندما وجدت البروفسور وبستر مذنباً في جريمة قتل للاسباب التالية :

(أ) انه كان مديناً للدكتور باركمان .

(ب) ان اسنان الدكتور باركمان الاصطناعية وجدت في فرنه .

(ج) بقية الدكتور باركمان لم توجد اطلاقاً في أي مكان .

حكمت هذه الهيئة على وبستر بناء على استدلالات منطقية فحسب ولكننا لا نستطيع ان نقول بأن شكوكها ليست في محلها . وهكذا كان الأمر بالنسبة

لهيئة المحلفين الانكليزية التي أرسلت السير جورج سميث إلى المشنقــــة لسبب بسيط ، كما قال هو انه كان سيء الحظ بحيث توفيت زوجاته الثـــلاث غرقاً في حوض الحمام حالما كتبن وصاياهن لمصلحته ، وحالمـا أمّن على حياتهن لمصلحتـه أيضاً . (م ١٣٩) .

أما ان يطلق سراح كل من يعتلي منصة الشنق ثم ينقطع حبل المشنقة بـه ، صدفة ، فهي فكرة خاطئة استدامت لربما بسبب صيغة القانون القـائل بأن لا يعاقب المرء على جريمة مرتين . والذي لا يفهمه العـامة في هـذا الشأن هو أن الحكم يكون عـــادة « حكمت المحكمة على فلان ... بالشنق حتى الموت » . فالمفروض إذن أن يشنق المجرم الى ان يموت ، لا ان تجرب فيه عمليـة الشنق . واعتلاء منصة المشنقة ليس هو الحكم بل الشنق حتى الموت . ولعل حـادثة وليم اسحاق برفس التي وقعت عام ١٨٩٤ قوّت هذا الاعتقاد . فقد وضع على منصة المشنقة ثم انقطع الحبل فيه . وعندما أراد الجـلاد أن يعيد الكرة ، تظـــاهر المتفرجون وهددوا بايذاء الجلاد ومدير الشرطة وكل من له علاقة بالأمر . لأنهم اعتقدوا بأن اعادة الكرة ليس « عدلاً » . عند ذلك اعيد برفرس إلى السجن وخلال الفترة التي مرت لاتخاذ قرار بشأنه ؛ ظهرت براءتـه فاطلق سراحـه ، ودفعت له الدولة خمسة آلاف دولار للتجربة التي مر بها . (م ١٣٩) .

الفصل التاسع

القصة من الداخل

لقد نتج عن سوء فهم بعض الأمور في التشريح والصحة والفسلجة الكثير من الازعاج والفوضى. ولذلك وجدنا أن نصف من يحاولون الانتحار، عن طريق طعن أنفسهم أو اطلاق النار على افئدتهم من « مارك أنتوني » الى « هايدكي توجو »، يفشلون – لأنهم يجهلون موضع القلب وبالتالي يصيبون أنفسهم في الرئة أو البطن. ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يعتبر خطأ سوقياً. إذ أنه ناجم عن الجهل المطبق؛ وليس ناجماً عن استنتاجات خاطئة أو مبالغات شاملة، كما انها ليست نتاجاً لنظام غيبي. وقد ساند هذه الأمور عدد من الاطباء المرموقين إلى فترة قصيرة خلت. [م ١٦٨، م ٢٤ ص ١١٣].

وبالرغم من ذلك فإن معظم هذه الاخطاء من الغرابة بحيث تستحق القاء نظرة عجلى عليها.

ولقد كان الشَعْر لسبب ما مصدراً للكثير من الاخطاء. فكان المعتقد ان الشعر على الصدر دليل القوة والرجولة. – ولربما كان ذلك مستمداً من تشبيه الرجل المشعر بالغوريلا – بالرغم من ان الغوريلا في الواقع يفتقر الى الشعر في

صدره . حيث يكسو الشعر كتفيه وظهره وذراعيه وبطنه وساقيه ولكن لا شعر على صدره . (م ٦ ، م ٢٠٢) .

ويعتقد علماء الحيـــاة اليوم بأن الصلع هو المظهر الفعلي للرجولة في الواقع ولكن هذه الانباء لم تصل إلى رجل الشارع بعد ولا زوجته . (م ٨٣) وحتى تصلهما الأنباء ، فما على الاصلع المسكين الا ان يبعثر وقته ، وماله ، وصبره ، وراحته ، بتجريب عشرات الوصفات التي يعلم مسبقاً انها لا تجدي فتيلاً .

يطلب منه البعض ان يحلق لحيته باستمرار حلقاً ناعماً لكي لا يتوزع غـذاء الشعر فيتوجه كله الى فروة رأسه . ويطلب منـــه الآخر أن يقص شعر رأسه قصّاً قصيراً ليتركز الغذاء في مساحة أقل . وينصح بعض الحلاقين بحرق الشعر بعد الحلاقة لكي يبقى « السائل الحيوي في مكانه » . وهناك من يلومه على تبليل شعره باستمرار لأن ذلك يؤدي الى تعفن جذوره . ويعتقد البعض الآخر بأن غطاء الرأس كان أضيق مما يجب . ويدعي آخرون بأن الصلع نتيجة للاخـلال بنظام خلقي سماوي يمكن تلخيصه بارتداء غطاء الرأس اثنـاء الطعام . إن كل هذه الأمور خاطيء حتماً (باستثناء الأخير الذي لا نستطيع دحضه) ولكنها ليست بغير فائـــدة . ففيما بينهم يستطيع هؤلاء ان يجعلوا الاصلع المسكين في غاية السعادة عندما يفقد شعره فقداً تاماً . وعند ذلك فقط يتركون وشأنه .

ومن أشيع المختلقات حول الشعر أن الرعب العنيف يجعل الشعر أبيض بين عشية وضحاها . ولقد وصف « لدفيك بلمانس » في كتابه المسلي « الحرب التي شننتها ضد الولايات المتحـدة » حادثة تجمع كل عنـــاصر الاسطورة بشكلها الكلاسيكي المجيد . يقول لنا ان قارباً مليئاً بالبحارة وجد فجأة وعن طريق المصادفة فوق مساقط شلالات نياغارا الهائلة ، ولم يمنعه من الانقلاب عبر الشلال سوى صخرة صغيرة رسا عليها . ففي خلال الليلة التي اكتنفها الضباب عمـــل الشرطة ورجال الاطفاء ما في وسعهم لانقاذ هؤلاء الرجال من موت محقق . بينما كان الزورق يقترب انشاً بعد انش من حافة الهاوية ،وعندما بدا نور الصباح وتم إنقاذ البحارة قبـــل أن يتهاوى الزورق في الأعماق كانت شعور الجميع بيضاً .

لربما كان لليل دخل في الموضوع . إذ يبدو ان الشعر يصبح أبيض في النهار . ولربما كان تأثير الليـل في سهولة ضياع قنينة صبغ الشعر تحت الظلام الحالك . ولكن تأملاتنا هذه تبدو ضعيفة أمام الليل الجارف من الحوادث « الحقيقية » التي شرحت أو سردت في المجلات الطبية . يخبرنا « كولد وبايل » عن حطاب أفاق من نومه مذعوراً ليجد دباً أشهب يقف فوق رأسه . وفي لحظة كان الرجل نفسه يتحول الى أشهب من الرعب . وهناك قصة أخرى عن مقامر وضع كل ما يملك على ورقة واحدة وعندما أفاق وجد نفسه أبيض الشعر حزيناً . ولعـــل أكثر القصص ارعاباً تلـــك القصص التي تروى عن أناس « انقلب شعرهم الى أبيض فجأة بعد أن ماتوا » . وفي ذلك نجد « أثر حياة طويلة مليئة بالرعب » . (١٧٨) .

ويستديم مثل هذا الوهم شأنه شأن إخفاء النعامة رأسها في الرمال لأنه وهم مفيد . إنه قمة الرعب ، إنه ينقذنا من وصف لا نهـــاية له . لا تصف الرعب وتضيع جهدك في نقل المنظر المخيف، فما عليك الا أن تقول انقلب شعره أبيض بين عشية وضحاها .

ولقد وجد محررو مجلة « التايم » هذه الصيغة مفيـدة للغاية . فهم يؤكدون لنا بأن شعر « أرني بايل » أصبح رمادياً خـلال الحملة الإفريقية بينما انقلب شعر مارشال الجو (كننجهام) « رمادياً فضياً » (ربما كان ذلك احتراماً لرتبتـــه العسكرية) . أمـا مكدانيل الذي شاهد « سقوط سنغافورة عن قرب » فقد انقلب شعر رأسه الى « أبيض تقريباً » بالرغم من ان مجلة التايم تعترف بأنه قـد اكتسب اكثر من خيط فضي خلال مشاهداته للرعب على ضفاف نهر «يانجتزي». وعندما تقدم الحلفـاء نحو نهر الراين كان « بيرلوفال » قابعاً في برلـــين حيث انتشرت الاشاعة بأن شعره يتحول الى المشيب بينما كانت ثلاث سنوات في سجن « سنغ سنغ » كافية لنفس الغرض بالنسبة لـ « جيمي هانيز » .

إن معظم هـذه القصص تحمل في ثناياها بذرة نقضها ؛ وعلى الأقل تحليـلاً

معقولاً لها . وهكذا فان صورة ماكدانيل التي نشرتها مجلة « التايم » ، بشكل يدعونا الى الاعجـــاب بصراحتها ، كانت ترينا بانه لا زال يحتفظ – بالكثير من السواد في شعره كذخيرة لتجارب الرعب المقبلة . أما صورة مارشال الجو ، كنجهام ، التي نشرت على الغلاف ، فلم يكن يعلوها من الشيب الا القليـــل على الصدغين . وكان عمر بير لوفال واحـــداً وستون سنة عندما رويت عنه هذه الاشاعة . أما جيمي هانيز فقد كان يبلغ من العمر سبعاً وستين عاماً . وكل هذه الأعمار عندما يصلها القديسون يكونون قـد اكتسبوا ما يطلق عليه « بهالة من الشعر الأبيض » . وإذا كان تحول شعر لوفال نتيجة للرعب الذي يقاسيه حـول سلامته الشخصية (كما توحي مقالة التـــايم) فسيمتلك الإنسان العجب لِمَ لَمْ يصبح شعره أبيض قبـل ثلاث سنوات حينما دبرت ونفذت ثلاث محـــاولات لاغتياله . (م ٣٠٦ ، م ٣١٥) (م ٣٢٠ ، م ٣١٦) .

وبالرغم من الاهتمام العظيم بالشعر فيمكن أن يعتـبر ثانوياً اذا قيس بالاهتمام بالطعام . فالعادات والتقاليد والدين والمشتهيات وما يشيع من ألوان الطعام ، كلها تلعب دوراً فعالاً باطلاق النصائح فيما يجب أن يؤكل وما يجب أن لا يؤكل .

ويعتبر رجل الشارع ما يأكله غذاء معقولاً ، وأي انحراف عنه لا يتعدى السفسطة أو العمل الكريه . وعندما يقرأ الانسان ، مثلاً ، عما يأكله المكسيك من الديدان المقليـــة ، والهنود من الكلاب والقرود ، والافريقيين من الجراد ، واليابانيـين والكثير من الاوروبيين من الدم المتجمد فهو يتخوع[1] ويشكـر الله على ما أنعم به من طعام معقول مقبول . أما في المـــاضي فقد اعتبرت أعراف الديكة وألسنتها وجبة شهية . كما اعتبر البعض لحم الحمير وجبـة أشهى . وأكل غيرهم بتلذذ أجنّـة الخنازير . ويعتبر رجل الشارع نفسه محظوظاً ويحمد ربـه . على عدم سماعه بهذه الأشياء .

وإذا نظر الناس الى غذائهم وجدوا العجب . فثلث البشريـة من المسلمين لا يلمسون لحم الخنزير الذي يعتبر وجبـــة فاخرة لدى الاوروبيين . واذا أخذنا

---

١ – الكلمة بغدادية، وتعني « التقيؤ » وقد وجدناها، أقرب الى النص من كلمة « الغثيان ».

الحليب من الوجهة الحياتية ، فان شربه عمل لا يتصف بالأخلاق . حتى بين الذين يعتبرون الحليب طعاماً مستساغاً فإن هناك مـــلايين يفضلون حليب الخيول . ويعتبر الملايين من البشر لحم البقر محرماً . وإن لم يعتبروه كذلك فالكثير منهم يودون أن يستبدلوه بكبدة أو كرشة أو مصران .

إن هذه التحديدات التي يفرضها الناس على أنفسهم عادة تقلل من أصناف الطعام الذي يتناولونه . ومن الناحية العملية يقللون حتى من هذه الأصناف بمـا يعتبرونه سيئاً اذا خلط مع شيء آخر . فلقد جرى الاعتقاد في الماضي أن تناول القرع والبوظة سوية يؤدي الى الكوليرا . ولربما كان ذلك تعميماً خاطئاً ناتجاً عن هبوط درجة الحرارة لدى الإصابة بهذا المرض . وقد اعتقد البعض في الماضي ، كما لا يزال البعض يعتقد أن السمك واللبن ، والمخلل ، تركيبات خطرة على الصحة . وهناك شبه إيمـان ديني يرى أن لا تؤكل النشويات والبروتينات معاً ، بالرغم من أن الخبز يحمل البروتين والنشا معاً وكذلك الحليب . [م ١٧٧ ، م ١٨٢] .

وهناك أخطاء وأوهام تتعلق بالجهاز الهضمي وفعالياته . يعتقد البعض بأن السمك مفيد للمفكرين ، وإن الجوع المفاجىء يدل على الدودة الوحيدة . وأن الخوف يشفي الفواق وإن الإمساك يسبب التسمم الذاتي .

إن الدماغ يحتوي على الفسفور وكذلـــك لحم السمك . ولكن الفسفور في الدماغ لا يحتاج لأن يزاد باستمرار ، وان كانت ثمة حاجة له فليس هناك دليـل على أن السمك هو الطعام الوحيد الذي يؤدي هذا الغرض . ولعل هذا الاعتقاد يستمد جـذوره في كون السمك غـــذاء رجال الدين وهم الذين كانوا أصحاب الاحتكار لكل العمل الفكري خلال القرون الماضية .

أما الدودة الوحيـــدة ، فالنظرية الشائعة بشأنها أنهـــا تأكل معظم طعام ضحيتها بحيث يشكو من الجوع باستمرار . أمـا في الحقيقة فإن الدودة الوحيدة تأكل قليلاً جداً من الطعام ، وليس لها أعراض اطلاقاً . ولكن الناس يشعرون بالتخوع لدى علمهم بوجودها في احشائهم . إن الجوع الدائم هو من أعراض البول السكري .

أما الفواق فهو تشنجات في الحجاب الحاجز تنتج عن عدة أسباب منها سوء الهضم ، والغازات في المعدة والامعاء، ومنها الكحول وأمراض القلب ، والحمل، وذات الجنب ، وبعض الأمراض العصبية ، والتهـــاب الحجاب الحاجز نفسه . ولقد قيل بأن الرعب العنيف المفاجىء قد يؤدي إلى الإجهاض . بهـذا الشكل يزيل الرعب واحداً منالأسباب الموجبة للفواق فقط . ولكن الأسباب الأخرى لا تستجيب لمثل هذا العلاج . بالرغم من ذلك فلهذا الوهم عشاقه وحتى شهيدهفي شخص « جون مينن » الذي أشعل النار في ثيابه لكي يتخلص من الفواق ولكنه تخلص من حياته بدلاً من ذلك . (م ٣٢٩ ، م ١٨٤) .

ومن المزعج في أمر الفواق أنه يتوقف بعـد فترة وجيزة . وعلى المصاب أن يتحمل بعد تخلصه من الفواق لغو الذين أرعبوه لكي يتخلص من الفواق نهائياً .

أما التسمم الذاتي فهو أحد الأوهام الحديثة الهائلة . ومفاد هذه النظريـة ، كما شرحت عبر الأثير ، أن الجسم يمتص من الإمعاء المليئة سموماً كان منالواجب أن تطرد خـــارج الجسم . ولكن الكثير من علماء الفسلجة يتمسكون بالرأي المعاكس تماماً. فهم يقولون بان احتمال التسمم من الامعاء الغليظة ، هو فيالواقع، أكبر عندما يتناول الإنسان الملينات والمسهلات . اذ إنها تحرك محتويات الإمعاء الدقيقة بأسرع مما يفيد الجسم . وحين ذاك يكون الغذاء ونسبة الماء في القولون أكثر مما يجب فتعطى للبكتريا إمكانية النمو والتكاثر بسرعة أكبر . (م ١١) .

ومن أكثر الأوهام شيوعاً بخصوص الطعام ، الاعتقاد بأن لبعض الأغذيـــة خصائص إثارة الرغبـة الجنسية . ولكن إذا وضعنا جانباً محاليل الكانثريد التي يجب أن تعتبر مواد أكثر إيلاماً منها إثارة للاحساسات الجنسية ، فهناك شك بوجود أي أثر من هـذا القبيل . تعتبر الكحوليات من الأمور المهيجة جنسياً ؛ ولكنها في الواقـــع ذات فعالية عكسية فهي تقلل الطاقـة الجنسية فسلجياً ، ولكنها تقلل التخوف من النتائج ، أو تقلل من الحذر . (م ٧٧ ، ص ١٢٣) .

وبالرغم من هذا فقد اعتبر الكثير من المأكولات مهيجات طبيعيـــة . ففي الماضي كان البصل مفضلاً أما اليوم فلا يعتبر أحد البصل من المهيجات الجنسية .

وفي العصر الاليزابثي نسبت هذه القوة لعدد هائل من الأغذيـــة ؛ بحيث يشك الإنسان أن كل ما كانت تدعو الحاجة إليه في ذلك العصر الخصب ، والجائع في الوقت نفسه ، هو وجبة غنية . وقد اعتبرت البطاطس والتبغ وما شاكل ذلك من المثيرات للجنس . أما المشمش المجفف (القيسي) ، فقد كان له القدح المعلى بحيث وزع مجاناً في دور البغاء . وفي العصر الحديث يتبع الناس وصفة كازنوفـا التي تتخلص بتناول المحار . ولكن هنـــاك من يضع ثقتـــه في البيض النيء . (م ٣١٩) .

وهنـــاك رأي آخر مفاده أن لنترات البوتاسيوم فعالية معاكسة ؛ فهو مهدىء . وهكذا فهو يدخل سراً في غذاء طلبة الكليات والمدارس الثانويـــة والسجون حيث يعتقد أن الدوافع الجنسية تفوق في طاقتها مجـال التحكم . ومن المعقول أن نؤكد أنه ليس ثمة مدرسة داخلية في الغرب لا يرسخ فيها هذا الوهم . ولكن بالنسبة للمخيمات الكشفية والسجون وما شاكلها فالإجهاد الجسمي يصل درجة تنتفي فيها أية حاجة للمهدئات . وأمـــا إذا دس ملح نترات البوتاسيوم فعلاً في طعام طلبة المدارس الداخلية فإن المزاج الطاغي لدى الطلبة ينفي حتماً صحة هذه المؤثرات المنسوبة إليها .

إن الاعتقاد بتأثير المهيجات يمكن أن يستند الى الرغبة اللاشعورية لتحقيق النوازع المحرمة دون ضرورة تحمل مسؤوليتها الخلقية . وهنـاك التزام مشابه لهذا المفهوم بالنسبة لكل العقاقير . وتقوم الصحافة بتضخيم هذه الأمور فتعمد الى الإثارة وتعميم الأوهام والمبالغات . ولقد أدمنت الصحف والمجلات قبـــل بضع سنين على الحشيش (كموضوع للنشر طبعاً) . وهكذا فقـد باعوا مجلاتهم بنشرهم أحلاماً عن فتيات الثانويات اللواتي يطلقن لأنفسهن العنـان في حفلات حمراء صاخبة وهن تحت تأثير الحشيش . ولقد اعتبر بائعو الحشيش سبباً لنصف التحلل الخلقي في أمريكا . كتبت مجلة المختار مقالاً تشير فيـــه الى أن حوادث القتل والانتحار والسرقات والسطو تحت تأثير الحشيش لا يمكن أخذها لكثرتها إلا على سبيل التقدير (م ٢٧٨ ، م ٢١١ ، م ٢٩٠) (م ٢٤٧ ، م ٢٣٩) .

ولربما اهتم محررو مجلة المختار وقراؤها بتقدير معين وذلك هو تقدير الدكتور « سنايدر » ، المدير الطبي القانوني لشرطة ولاية مشغن ، إذ يقول : خلال مدة خدمته كان عدد الحوادث التي من هـــذا القبيل صفراً . ولقد اجريت دراسة واسعة حول هذا الموضوع ، قامت بهـا لجنة خاصة من اطباء مدينة نيويورك ، فتوصلت الى نفس النتائج . ولكن العدالة تقتضي ان نشير الى ان مجلة رابطة الاطباء الامريكية كتبت مقالاً افتتاحياً هاجمت فيـه النتائج التي توصلت إليها هذه اللجنة . مثل هذا الجدل يوضح لنا أن النتائج في هذا الموضوع ليست قطعية بالشكل الذي توحي به مقالات الجرائد والمجلات . (م ١١٧ ، م ١٦٨) .

وهناك عدد من الأوهام التي تتعلق بعقاقير أخرى يدمن عليها الجمهور أقـل فاعلية مما مضى ذكره . يُعْتَـقَـدُ مثلاً بأن الشاي أصح من القهوة بالرغم من أن كليهما يحتوي على نفس النسبة من المنبهات . كما يعتقـد بأن التدخين يقلل التوتر وان الكحول منبه .

إن التبغ يعمل كمنبه أولاً ثم يخفض الفعالية الجسمية . ومن نتائج التدخـين عدد من الأمور ، منهـــا سرعة الانزعاج والقلق والنسيان والارق وألم الرأس والتعب والانحطاط العام فيؤدي حتى تدخين سيجارتين الى خفض قـدرة التنبه بشكل يمكن قيـاسه كما يؤدي الى زيادة بينـــة بالتشنج . (م ٩٣ ، م ١٢٢ م ١٧٦) .

اما الأثر الآني للكحول فهو التنبيه ، ولكن أثره العام مسكن في الواقع . حيث تنخفض فعالية الجهاز العصبي مما يؤدي الى الدوار ، ويبدو عليـــه أثر التنبيه اذ ان من فعاليات الكحول منع اجزاء معينة من الجهاز العصبي عن العمل مما يؤدي الى انطلاق الإنسان وتحرره من القيود الاجتماعية . (م ٧٧) .

ولكن يجب ان نضيف بأن الكحول لم تكن بتلك الدرجـة من الضرر التي يود بعض الناس ان يجعلونا نعتقد بها . ففي رأي الاطباء ان امراض الادمان على الكحول المزمن ليست سوى « اضطرابات غذائية في الاساس » . وهم يعترفون بأن هنالك اصابات عالية بتشمع الكبد بين المدمنين على الخمور ، ولكنهم يقولون

ان هناك عدداً هائلاً من المصابين بتشمع الكبد ممن لم يلمسوا الخمرة في حياتهم . ويضيفون انه ليس لديهم دليل على المسببات الفعلية لتشمع الكبد حتى الآن. ويقول هؤلاء الاطباء بأن الكحول ضارة للمصابين بالقرحة المعوية ولكنهم لا يعتقدون بأن الكحول هي المسبب الفعلي للقرحة . كما وجدوا بأن تصلب الشرايين والسرطان أندر وجوداً بين المدمنين على الكحول منه بين البشر عامة في نفس السن . ولربما كان رابيله محقاً حينما قال « السكيرون المسنون أكثر من الاطباء المسنين » . (م ٧٧ ، م ٤٩ ، م ٤٨) .

ويعتقد بعض السكيرين القدامى بأن طول عمرهم يرجع الى كثرة الكحول في دمهم بحيث أصبحوا ذوي مناعة ضد العدوى . من المعتقد ان المشروبات الروحية من المعقمات وان الدم يمتصها بكل طاقتها . ولكن كلا المعتقدين وهم باطل . فالكحول لا يمكن ان تشرب كما لا يمكن ان يمتصها الدم بأي قوة أو تركيز تكفي لقتل الجراثيم . (م ٦٢ ، م ٧٨) .

وبشكل تسوده الفوضى الفكرية يكمن هذا المفهوم وراء الرأي القائل بأن الويسكي مفيد كدواء للدغات الأفاعي . ولكن العكس هو الصحيح اذ ان الويسكي يزيد من ضربات القلب ، وبالتالي يزيد سرعة دوران الدم وذلك يؤدي الى سرعة انتشار السم في الجسم. كما يعتقد البعض، كامتداد لهذا المفهوم الخاطىء، أن وجود الكحول في الدم هو ترياق لأي سم فنقرأ في مجلة النيويوركر ان رجلاً لدغته عنكبوت الأرملة السوداء القاتلة ولكنه كان « لحسن الحظ مدمناً على الخمور فقذف كل ما في جوفه من السم الذي يقتل حتماً من لا يمس الخمور » . (م ٧٧ ، م ٢٥٥) .

ويتسم الاعتقاد القائل بان قليلا من الزيت الذي يتناوله الانسان قبل أن يبدأ بتناول المشروبات يمنع السكر . وقد استمد بلوتارك هذا الرأي من كلوديوس ، طبيبه الخاص . ولقد كان الزيت في تلك الأيام زيت اللوز المر . أما اليوم فهو زيت الزيتون أو الزيوت المعدنية . وهناك من ينصح باستعمال الزبدة . وهناك نظرية حديثة تقول بأن الزيت ينتشر على جدار المعدة بطبقة خفيفة

تمنع امتصاص الكحول – واذا كان ذلك صحيحاً فإن أي زيت يتناوله الانسان مع أي وجبة يجب أن يؤدي الى نفس النتيجة. وهذا مما يمنع عملية الهضم تماماً. أما النظرية القديمة فقد قالت بان الزيت يشكل طبقة على الكحول. وبذلك يمنع تبخر الكحول الى الدماغ! (م ٢٤ ، م ٧٧ ، م ١٣٦).

ويحتل الجهاز التنفسي مقاماً ثالثاً بعد الجهازين التناسلي والهضمي. وتتجمع معظم الأوهام حول الرشح الذي يعتقد رجل الشارع أنه يتسبب عن التعرض للبرد. أما الاختصاصيون فيعتقدون ان الرشح ناجم عن « فيروس » بالإضافة الى فعالية عوامل مختلفة منها البرد. وهذا يعني أن الرشح يسببه ما يسبب البرد! (م ٦١).

أما ما يعتقد انه يسبب المناعة ضد الرشح كالنوم في الهواء الطلق والاستحمام بالماء البارد الخ. فلا يكوّن مناعة ضد الرشح مطلقاً. ففي دراسة أجراها معهد (كالوب) ظهر بان الفلاحين يصابون بالرشح بنسبة تزيد عن مجموعة مشابهة. ولقد كان من خصائص وباء الانفلونزا ان نسبة الوفيات الناشئة عنه كانت عالية جداً بين الشباب ذوي الصحة الممتازة.

أما الحمامات الباردة فهي مدعاة للفخر أكثر مما هي مدعاة للصحة. انها منعشة للذين يمارسونها ولكنها متعبة لهؤلاء الذين يضطرون لسماع الذين يمارسونها وهم يفتخرون بذلك. وتشترك الحمامات الباردة والساخنة في انها تنظف الجسم. ولكنها فيما عدا ذلك لا تفيد مطلقاً بأي شكل آخر. والذين ماتو في الحمام أكثر من الذين ماتوا لانهم لم يدخلوها.

ومن أكثر المغالطات إيلاماً بالنسبة لهؤلاء الذين يعانون من الأمراض التنفسية الرأي القائل بان الجو الجاف يخفف الإصابة بالمرض. فيذهب ألوف المصابين بالسل الى الصحراء لكي يشفوا من مرضهم.

ولكن مثل هذه الآمال مصيرها الفشل المحتوم. فان الهواء في البيت الاعتيادي عادة أكثر جفافاً من أي صحراء. ولكن الأمر ليس بمهم مطلقاً فان أجسامنا تتمتع بأجهزة تبقي نسبة الرطوبة في الهواء الداخل الى الرئة ثابتة

وهي تقارب نقطة التركيز . وإذا كان تبديل الجو مفيداً فالتبديل هو في الواقع في البيئة ككل ، وهي التي تجعل تبديل عادات المريض أسهل . (م ١١٤) .

أما العلاج الذي ينصح به المصابون بالرشح فهو عقيم بقدر مـــا هو متعدد . ينصح البعض بتناول الويسكي ، والبعض الآخر عصير الليمون ، وينصح البعض بخليط من الاثنين . ويتمتع « القلو » بالغموض وانعدام المعنى ؛ ولهـــذا يلقي الملايين بمئات الأطنان من بيكاربونات الصودا في أجوافهم . ولكن ، لحسن حظ أصحاب هاته الأجواف ، ليس هناك كمية من البيكاربونات التي تكفي لأن تجعل الجسم قلوياً . ولقد آمن البعض بالعسل والصنوبر ولربما كان ذلك بسبب الإيـاء إلى الحياة في الخلاء . (م ٦١ ، م ٣٠) .

ولقد قام صانعو مواد التجميل بتعزيز الاعتقاد القائل باننا نتنفس من خـلال بشرتنا . ولو كنا نفعل ذلك لاختنقنا باستعمال منتجاتهم . اننا نأخذ فعلاً قليلاً من الأوكسجين عبر البشرة كما اننا نفرز فعلاً قليـــلاً من ثاني أكسيد الكاربون ولكن الكمية قليلة بحيث يمكن اهمالها . ومثل هذا التنفس لا يعدو سمك الجلد نفسه . وهنـاك قصص عن أناس اختنقوا لأن جلودهم طليت بالوارنيش ولكن المئات والألوف قد طلو أنفسهم بالزيت خلال الحرب. وهناك المئات من السباحين عبر المسافات ممن قام بذلك دون أية نتائج مميتة . ولقـد شاع رأي قائل بأنك إذا أمسكت بتنفسك فان المسامات الجلدية ستنغلق . وإذا كانت هناك نحـــلة تريد أن تلدغك فسوف لا تستطيع لانسداد المسامات ، وبعد محاولات عديدة فاشلة سوف تذهب مشمئزة . (م ١٧٨ ، م ١٨٣) .

هناك شيء ما يتعلق بخرافات الناس هذه يجعل أي شخص يذهب مشمئزاً .

الفصل العاشر

والعقل لم

كون « العقل وحدة مستقلة » فرضية أساسية شائعة في علم النفس . ويعتقد علماء النفس أن العقل هو النتاج النهائي لوظائف عديدة من أفعال ارتكاسية و انفعالات ورغبات وذاكرة تكيفها جميعاً الظروف الاجتماعية . أما بالنسبة لرجل الشارع ، فالعقل عضو خفي يدير ويوجه الجسم كما يدير الربان السفينة . ويتبنى رجل الشارع فرضية أخرى مفادها أن العقل صفة مقصورة على الانسان لا يمكن تغيّيرها ؛ على وأن (الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير) ويعتقد كثيرون بقدرة هذه القوة البشرية على الاتصال بالعقول الأخرى ، وبالقوى الغيبية عن طرق روحية انها تدير الجسم لصالح الجسم . وهي نفسها تخضع لتأثير ميتافيزيقي .

بكلمة أخرى ، « العقل » هو « الروح » فهذه الأخطاء الشائعة في علم النفس اذن ناجمة عن هذه المعادلة بين العقل والروح . العقل مفهوم حديث والروح مفهوم قديم ؛ ففي الحين الذي تعادل فيه الروح والعقل تسبغ على العقل صفات مستمدة من المفهوم القديم دون الالتفات إلى الأسس المنطقية التي أنشيء عليها المفهوم القديم . واذ أُنكِرَتْ الروح على الحيوان فلا يستطيع أحد انتزاع العقل منها .

وهناك براهين لا يمكن انكارها على ذكاء الحيوانات. وآراء العلماء الذين تخصصوا بعلم نفس الحيـوان، تجمع بل وتؤكد على أن الحيوانات تتمتع بقليل أو كثير من الذكاء. فيقول يركيز بان الأدلة التي تشير إلى أن القردة تفكر «كثـيرة ومقنعة». أما لوزر فيقول بأنه لا يستطيع أن يشك في أن ذكاء الحيـوانات يشبه ويقـارب ذكاء الانسان. فالحيوانات تستطيع أن تجمع أجزاء تجاربها لحل مشكلة آنية. وان لم يكن هذا هو العقل فماذا يكون يا ترى! (م ٢٠٣، م ١٥٠، م ١٠٧).

وهذه اللطمة التم توجهها هذه البحوث الى احترامنا لذاتنا تخففهـا حقيقة أخرى اكتشفها الباحثون انفسهم ألا وهي أن الشر لم يكن وقفاً على الإنسان وحـده.

فلقد أتاح القول الشائع بأن العقل أقدر على الفساد من الغريزة الفرصة للإنسان أن ينحط من الناحية الخلقية عن مستوى الوحوش الكاسرة. أما يركيز فيؤكد بأن البغاء، مثلاً، شائع بين القردة العليا، ويعبر يركيز عن هذه الظاهرة بأنهـا تطور طبيعي بين الحيوانات ذات الذكاء العالي. (م ٢٠١).

أما تأكيد البعض على أن طبيعة البشر لا تتغير فما هو الا امتداد للايمان القديم بخلود الروح. و «المفكر الأصيل» هتشنز مثلاً ـ عميد جامعة شيكاغو ـ يعتقد بأن «الطبيعة البشرية كانت وما زالت وستبقى كما هي في كل مكان». ولكنه لا يوضح لنا كيف استطاع الكشف عن الغيب فتنبأ بالمستقبل البعيد! (م ١٤).

إن الزمن والظروف استطاعا أكثر من مرة أن يبدلا قيم البشر واستجاباتهم الى حد لا يمكن وصفه بأي شيء سوى التغيّر في الطبيعة البشرية. وهل هناك أسس للطبيعة البشرية غير الحب والجشع والكراهية؟ لقد وجـدت حضارات عديدة خالية عن الحب الرومانسي، والرغبة في التملك الفردي، والرغبة في الاعتداء على الآخرين. ويقال إن الغبطة الناجمة عن القسوة هي جزء من الطبيعة البشرية ولكنها نتاج بالتأكيد للعرف والعادات والتقاليد. كان التسلي بتعذيب

الحيوان قبل مائة عـام تقليداً شاملاً في المسيحية . ولكن المسلمين استنكروا ذلك واستهجنوه . لقد وعد اعلان مخطوط باليد يرجع تاريخه ٢٧/نيسان/١٧٠٢ هؤلاء الذين يحضرون الحفلة المقامة في قاعة هوكلي في ذلــك المساء بالاستمتاع بمشهد مثير « يتألف من ثور مجلبب بالالعاب النارية ، قد ربطت الى ذيله ثـلاث أو أربع قطط تتبعها الكلاب » وإذا فشل هــذا الاعلان بحشد المتفرجين في القاعة ، فما ذلــك الا لوجود مؤسسة أخرى تعرض تسلية منافسة تتألف من عصفور ربط جناحيه في قبعة بنما يضع المتبارون أيديهم خلفهـم ويحاولون قضم رأس العصفور بأسنانهم .

ليست التربية سوى وسيلة لتبديل الطبيعة البشرية . ومحور مقال الدكتور هتشنز الآنف الذكر؛ الذي عرض لنا فيه رجمه بالغيب هو أن الانسان يستطيع أن يصبح أكثر إنسانية كما يستطيع أن يكبت غرائزه وحيوانيته عن طريق التربية . جرى الناس على الإيمان بأن الروح الأزلية التي لا يمكن أن تتغير يمكن أن تخضع للنظام . ولذلك فقد تحمل ملايين المؤمنين شتى الإهانات لكي يصبحوا أكثر تواضعاً . كما حاولوا « تقوية » الروح بإخضاعها لتمارين أخرى متنوعــة ومتعددة . ولقد استشرى هذا الاعتقاد بين هؤلاء الذين يؤمنون بالعقل أيضاً ، فقالوا بترويضه بالدراسة .

وإذا أسند أفلاطون رأياً ووافقه ودرو ويلسون كالمعتقد القائل بأنـه ليس ثمة عائق عقلي لا يمكن إصلاحه بالتعلم الملائم ، فمن الصلافة بمكان أن ندعو هـذا المعتقد بالخطأ الشنيع لسبب بسيط ألا وهو أن الملاحظـــة الموضوعية تدحض ذلك . فأي تلميذ جـــامعي يعلم أن أساتذته ليسوا أكثر تشككاً في الأمور . ومن الواضح أن المتضلعين بعلم البلاغة ليسوا أكثر طلاقة من غيرهم ، بل إن علماء المنطق ليسوا أكثر التزاماً بالمنطق من بقيــة الناس ولكن الكليات تستمر بوضع مناهجها استناداً على فرضية انتقال التدريب من الخـــاص الى العام . أمـــا في المدارس الثانوية والابتدائية فالوضع أسوأ بكثير . ففي القرن المـاضي كرّس الأطفــال العديد من الساعات ليحفظوا عن ظهر قلب شتّى الأمور . كل ذلك

كان يعتمد على الوهم القائل بأن الحفظ عن ظهر قلب يقوي الذاكرة . (م ١٤ ، م ٣٣ ص ٣٨٠) .

وساد اعتقاد بأن الروح ، رغم طبيعتها الإلهية ، تخضع أحياناً لقوى شريرة تدفع الانسان لاقتراف أعمال مفزعة قد تؤدي به الى الهلاك . وكذلك أصبح الاعتقاد سائداً بأن العقل يمكن أن يخضع لقوة التنويم الشريرة التي يقومها ببثها شخص آخر يستطيع إجبار ضحيته أن يفعل أي شيء بمحض إرادة المنوِّم . فقد اتهم محامي الآنسة جون باري المثل الشهير شارلي شابلن بممارسة هذه القوة المهلكة على موكلته . كما اتهمت الممثلة الشهيرة باربرة هاتون زوجها الكونت هوكوتز ريفنتلو بأنه ابتز منها مبلغاً قدره ٦٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار عن طريق التنويم المغناطيسي . وهذا مما يدعو الى التأمل ! إذ لو كان استعمال هذه القوة السحرية صحيحاً ، لاستطاع ابتزاز مبالغ أخرى . يعترف « العالم النفساني » كلايد باول في نيويورك بأنه استطاع أن يسيطر على ثلاثة آلاف شخص سيطرة تامّة بحيث لم يستطيعوا تحريك حتى إبهامهم دون إذنه . وإذ التزم الخلق الحميد فلم يسىء استعمال هذه القوة الهائلة — فقد وضع أحد مساعديه وراء كل وسيط ينومه ليسنده في اللحظة التي يقول فيها هذا « العالم النفساني » (نم) . كل ذلك مراعاة لشعور الآخرين — فهنالك منومون آخرون أقل تمسكاً بالقيم الخلقية يُعتقد أنهم استغلوا ضحاياهم استغلالاً إجرامياً ؛ بإرغامهم على خدمتهم كعبيد أو جعلهم يعرضون أنفسهم حتى لخطر الذبح باستسلام مدهش . (م ٣٣٢ ص ٣٦ ، م ٢٢٥ ، م ٢٢٢ ص ١٠ ، م ١٩ ص ٩) (م ١٣٩ ، م ٢٣٦) .

ولكن التنويم كما هو معروف علمياً لا يدعم هذه الأوهام الشائعة . يبدو أنه عملية إيحائية فقط أو استجابة ارتكاسية مشروطة . والضعفاء الخانعون ليسوا أحسن من الأقوياء والأذكياء كوسطاء. ولا يمكن تنويم المرء دون وعيه فعلى الوسيط أن يلعب دوراً فعالاً في هذه العملية . من المشكوك فيه أن يمكن تنفيذ أي إيحاء على الوسيط ما لم يكن هناك دافع كامن يؤدي الى تحطيم الذات . (م ١٥١) .

وهنالك إعتقاد بان العقل كالروح خاضع لعدالة غيبية تتجسم بمبدأ التعويض المحبب لقلوب الناس، والقائل إن لكل عاهة ميزة خارقة تتناسب معها وتوازيها. وكل تفوق يقابله نقص ويوازيه . والصامتون مفكرون بعمق . وللعميان حاسة « سادسة » ترشدهم . كما يعتقد أن العباقرة ضعفاء العقول إذا خرجوا عن نطاق تخصصهم . وأن الأطفال ذوي النبوغ المبكر ينمون فيصبحون أغبياء أو يموتون قبل أوانهم .

ان حكمة قليلي الكلام لا تحتاج الى برهان وهي مضرب للمثل في كل لغة . إن الاساس الذي تعتمد عليه هذه الفرضية تكمن في - أن أي شخص لا يناقق محدثيه يعني أنه متفق معهم وبذلك تكون حكمته لا حدود لها بالنسبة لمحدثيه .

أما الخطة السماوية لرحمة ذوي العاهات والتي تمنح العميان مواهب خارقة فلا تبدو جلية لهؤلاء الذين لم يتمعنوا بهـذه المسألة دون آراء مسبقة . تبرهن التجارب المقننة بان العميان يصيحون إلى الأصداء ويشعرون بتيـارات الهواء وتغييرات درجة الحرارة المسببة عن قرب الأشياء أو الموجودات الكبيرة الضخمة أكثر من ذوي البصر . (م ١٩٧ ، م ٩٦ ، م ٦٦) .

والاعتقاد الشائع بأن هـذه القوى الغيبية التي منحت لذوي العاهات والتي أطلق عليها اسم الحـاسة السادسة تعكس خطأً فاحشاً آخر ، أو وهو افتراض وجود خمسة حواس فحسب . إن عدد الحواس يعتمد على تعريف كلمة الحاسة . نستطيع أن نقول بان هناك حاسة ً واحدة فقط هي حاسة اللمس . ولكن مـا أن نبـدأ بتقسيمها الى الابصار والسمع والذوق ... الخ حتى نواجه بان علمـاء النفس المعـاصرون لا يقفون عند خمس حواس فقط . ويعتقد البعض أن عدد الحواس ١٣ . وأن هذه الحواس الاضافية قـد جمعت مع بعضها كما هو الشائع في حاسة « اللمس » . فهي مركب يشتمل على حواس الدفء والضغط والمقاومة والألم والبرودة .

وهناك حواس أخرى وضعية الجسم والحركة والتوازن . وكلها مهم لعمل الجسم بشكل يفوق أهميـة حواس البصر والسمع وما الى ذلك من الحواس

المعروفة . وهناك الحاسة العضلية وحواس حشوية تنقل لنا احساسات الجوع والعطش .

ان الاعتقاد الشائع بعدم كفاءة النابغ عزاء ، دون شك ، لهؤلاء الذين يفتقدون النبوغ وهي طبعاً لا تعدو كونها من صنع خيالاتهم . والحقيقة أن الناس الموهوبين في حقل من الحقول لهم مواهب في ميادين أخرى تفوق الاعتياديين بشكل عام . فكان اينشتاين عازفاً على الكمان أما سومرست موم فكان رساماً بارعاً . وونستن تشرشل كاتب ناجح وبنّاء قدير ومن المولعين بالفنون التشكيلية وله مقام لا يمكن أن ينكر كرجل سياسي . ويمكن إضافة الكثير من الأسماء الى هذه القائمة .

لم يستطع أحد أن يثبت وجود معاملات ارتباط سالبة بين القدرات المطلوبة في المجتمع. وهكذا فقد ثبت بطلان الاعتقاد الشائع بأن الذين يتعلمون ببطء يحتفظون بالمادة التي تعلموها لمدة أطول وقد تبين خطل هذا الاعتقاد . (م ١٦٩ ، م ١٧٠) .

ويعتقد الكثيرون أن لا جدوى من الأطفال ذوي النبوغ المبكر . ولعل سبب هذا الاعتقاد هو قلة الأطفال النابغين وكثرة الأطفال الاعتياديين علاوة على أن حب الامهات يفوق منطقهن .

هنالك « أدلة » كثيرة تدعم الاعتقاد السابق ويعتبر فشل أية معجزة بشرى عظيمة دائماً . فقد ضخم موت وليام سيدس الغامض وكان من النابغين المبكرين المشهورين . وقد كتب وهو في الرابعة من عمره عدة مقالات في الانكليزية والفرنسية وفي الخامسة كتب رسالة في التشريح أما في التاسعة فكان مهيئاً للدخول الى الجامعة ولكن لم يقبل حتى الحادية عشر من عمره وتخرج من جامعة هارفرد في السادسة عشر من عمره بدرجة الشرف . ولكن لسرور من يتمسك بهذا المعتقد الشائع « لم يصبح شيئاً ذا بال » . لقد كان « غريب » الاطوار فقد تجنب الشهرة واعتنق الشيوعية ولم يحاول جمع المال بل سلّى نفسه بجمع بطاقات عربات النقل . (م ٢٥١ ، م ٣١٤) .

إن علماء النفس درسوا وليام سيدس بمتعة لأنه يمثل الفشل اللاعتيادي . إن معظم الأطفال المبكري النبوغ ينجحون في حياتهـــم العملية بشكل ينوف الأطفال الآخرين . أما درجــة نجاحهم فيمكن اثباتها بعدد الرجال المشهورين الهائل الذين كانوا أعجوبة في صغرهم . بدأ جون ستيوارت مل في تعلم اليونانية وهو في الثالثةمن عمره. وقد كتب شيلي وبوب شعراً ممتازاً وهما في سن المراهقة. وقد قدم كلارك ماكسويل مقالاته الى الجمعية الملكية قبــل أن يبلغ العشرين من عمره، كما قدم اينشتاين نظريته النسبية لأول مرة وهو في الثانية عشرة من عمره . أما في حقل الموسيقى فقد ظهرت الكثير من القابليات المبكرة. فقد كتب وعزف موزارت الموسيقى وهــو في الرابعة من عمره . ومؤلفات هاندل الموسيقية التي وضعها وهو في الحادية عشرة من عمره ؛ ذات قيمة كبرى للبشرية جمعاء . قــام شاينفيلد ببحث أجراه على ستة وثلاثـــين موسيقياً مشهوراً (لا تظهر مواهب المغنيين قبل سن البلوغ) ولقد وجد انهم أبدوا تفوقاً ملحوظاً قبــل أن يبلغوا الخــامسة من العمر ، وأن مطلع شهرتهم المهنية سطعت وهم في سن الثالثة عشرة (معدلاً) . (م ٣٢٨ ، م ١٥٣) .

ولا يدفع ذوو العبقرية ثمن موهبتهم بموتهم المبكر . لقد استدلوا دائماً بموت كيتس وشاترتون وشوبرت وموزارت المبكر وهم « نمــاذج » للعبقرية ولكن هؤلاء كانوا شواذ . فان معظم العباقرة تمتعوا بصحة جيدة وعاشوا حياة طويلة تفوق حياة معاصريهم في طولها . توفي كيتس بالسل . وانتحر شاترتون ، وتوفي شوبرت بالتيفوئيد أو التيفوس وموزارت بالمرض نفسه أو كما اعتقـــد البعض بالسم . وهذه الأسباب تشير إلى أن موتهم لم يكن لضعف موروث . (م ٨ ص ٢٦٥) .

ولعل أكثر بنود المعتقدات الشعبية قربــاً من قلوب الناس بأن المرأة أضعف عقلياً من الرجل . هنـــا يظهر أيضاً مفهوم انعكاس العقل عن الروح . لأن أرواح النساء (حسب المعتقد القديم) تعتبر من الأصناف الضعيفـــة . وكان الشائع أن النساء أضعف من الرجال خلقياً وأقـــل حصافـة ويمكن إغراؤهن

بسهولة . (م ٣٢٧ ، م ١٢) .

ففي القرن الثامن عشر الذي امتاز بالحرية نسبياً ظهر في الأدب الشعبي بعض النساء النشيطات القـادرات على تصريف الأمور ، ولكنهن لم يظهرن كبطلات طبعاً إذ ما زلن ضعيفات وعديمات القدرة بل ظهرن كشخصيات ثانوية قويـة . أما بعد قرن فقد ركزت الردّة أسسها ووضحت « الأنوثة » المثالية فانسحبت المسترجلة وهي تجرجر أذيال الفشل لتحل محلها أنوثـة جديدة انهمرت دموعها فرحاً كلما افتر ثغر الرجل عن ابتسامة ، وارتجفت رعباً كلمـا قطب الرجل حاجبيه كما وصفها بن بولت في كتابه « أليس العذبة » .

وقد وصف الشاعر تنيسون الذي كان شاعر البلاط في عهد الملكة فكتوريا مشهداً في الفصل ٩٧ في ديوانه للذكرى يصور فيه بلا شك فكرته عما يجري في أمسية مثالية يقضيها زوجان في البيت . فوصف الزوج كمفكر عظيم غـارق في لجج الأفكار العميقة الغامضة ، يربط فيهـا متاهات الفكر ويقرأ أسرار النجوم بينما كانت زوجتـه الصغيرة ، التي لا تدرك شيئاً من علم التنجيم والفراسة أو أي علم آخر يغوص فيه زوجها تجد سعادتها بالتأمل في بنفسجة ذابلة أهداها إياهـا زوجها لسنين خلت .

تعزف له وتغني
عن إيمانها المبكر وعهودها المثقلة .
تنحصر معرفتها في إدارة المنزل
وتمتد معارفه لآلاف الأمور
إيمانها ثابت لا يتزعزع
تحس بحكمته وعظمته
وتنظر إليه بعيون ملؤها الصدق
« أنا لا أفهم ولكني أحب . »
وهكذا تقتصر واجباتها على الإعجاب والإيحاء والانسحاب .

أما راسكين المتحرر نسبياً فقـد منح النساء مساواتهن بالرجال . ولكنه

أكـّد على أن مجالاتهن تختلف عن مجالات الرجـال . فمجالات الرجـــل تطوير الذات ومجالاتها إنكار الذات . وقد ناصر تثقيف المرأة لأنـــه شعر بأن النساء يجب أن يفهمن أعمـال الرجال ، ولا يمكن الاستغناء عن الطبخ والتطريز طبعاً ولكنه أصر بأن على الفتاة أن تتعلم على الأقل لغات أجنبية كافية وعلوماً تمكنها من أن تشارك زوجهـــا بهواياته واهتماماته وصحبة خيرة أصدقائه . لقـد منح راسكين المرأة حقوقـــاً أكثر من الفرد تنيسون إذ أدرك بأن الحديث عن البنفسجة الذابلة باستمرار شيء ممل، ولكنـه شارك في فرضية تنيسون الأساسية ألا وهي أن دور المرأة ثانوي في المجتمع .

إن الثقة الجبارة في مفهوم نقص المرأة الفطري لم تعـد قابلة للاسناد، ولكن المتعة التي أعطتهـــا لنصف البشرية كانت أعظم من ان يسلـّم بنقيضها دون صراع . والتجأ الرجل المندحر الى « العلم » واتخـــذه اليوم من خطوط الدفاع ويقال لنا إن أدمغة النساء أصغر حجماً ووزناً من أدمغة الرجـــال وأنهن لا يستطعن تحمل « أعباء الحياة » كما يفعل الرجـــال . ويفقـدن صوابهن بسهولة ولا سيما أمـام الآلات الميكانيكية إذ أن « قابلياتهن الميكانيكية » تكاد تكون معدومة . وهن لا يستطعن قيادة السيارات .

هنالك طبعـــاً تعويضات أخرى منحت للنساء « الحـدس » واللقانة و « الطهر » ولكن هذا التعويض لا يعني شيئاً ، فالحدس دون المنطق وأمـــا الطهر – بمنطق الرجال الملتوي – فهو احد المبررات الرئيسية لعدم اعطائهـــا حرية اتخاذ القرارات وذلك « لحمايتها » .

بما أن النساء أصغر حجماً من الرجال فان ادمغتتن أصغر حجماً من أدمغـة الرجال . وبالنسبة لأجسامهن يمكن اعتبار أدمغتهن أكبر حجمـــاً من أدمغة الرجال بالنسبة لأجسامهم . وبما أن حجم الدماغ المطلق أو النسبي لا يعـــادل ولا يوازي الذكاء فهـذه المقاييس لا تدل على أي شيء . لا يمكن انكار انعدام قابلياتهن الميكانيكية ولكن نجاح مئات الألوف من النساء في المعامـل برهن على أن هذه القابليـة وانعدامها أمران لا يتعلقان بالفطرة. وإذا أعطيت لهن الفرصة

للتعلم فانهن ينجزن الأعمال نفسها التي ينجزها الرجال ما خلا الأعمـــال التي لا تتطلب سوى القوة البدنية .

أما بالنسبة للاعتقاد القائل بانهيارهن تحت أعباء الحياة الثقيلة، فيبدو العكس صحيحاً . فلقد أبدت النساء ثباتاً هائلاً في الأعمال الرتيبة والدقيقة والتي تدفع الانسان الى الجنون . تشير الاحصائيات في جميع انحاء العالم الى أن عدد الرجال الذين انتحروا يبلغ ثلاثة أضعاف عدد النساء . وان الفأفـــأة والتأتأة والقرحة المعوية –وتعتبر كلها دلائل نفسية سيئة– أكثر انتشاراً بين الرجال منها بين النساء بنسبة أربعة إلى خمسة . وعندما ألقيت القنابل الثقيلة على لندن عام ١٩٤٠ كان عدد الرجال الذين أُصيبوا بصدمة الانفجار النفسية يفوق عدد النساء. (م ٥٣، م ١٥٤ ،) وأما عدد الرجــال الذين يموتون بالأمراض العصبية فيفوق عـــدد النساء بالثلث . وعدد الرجال في المستشفيات العقلية والعصبية يفوق عدد النساء، كما يذهبون إليها بعمر مبكر أيضاً . (م ٢٦٧ ، م ١٥٤ م ٦٩) .

وأما فيما يتعلق بأمور اللياقة والأدب على قارعة الطريق ولا سيما في وقوف السيارات واعطاء الاشارات فان سياقة المرأة الأمريكية قد تكون أسوأ فعـلاً من سياقة الرجل – إذا كان هذا ممكناً – أما المهــارة في قيادة السيارات قياساً على حوادثها التي تنجم عنها ، فيبدو أن سياقة النساء أفضل من سياقة الرجال .

تبين الدراسات التي أجريت في بنسلفانيا وكفكتيكت ومقاطعة كولومبيا (واشنطن) أن الرجال يتسببون فـــيما يوازي ضعف عدد الحوادث المميتة التي تتسبب فيها النساء .

عين أسقف كانتربري لجنة خاصة لدراسة إمكانيـة تعيين النساء قساوسة في الكنيسة الانكليكانية حيث ورد في تقرير اللجنة الذي ظهر مؤخراً العبـــارة التالية « ففي أفكار ورغبـات ذلك الجنس (الإناث) ، تخضع الأمور الدنيوية للقوى الدينية بسهولة ، كما تخضع الرغبـات الجسدية للقوى الروحية ، بعكس الرجال » . وهذا يعتبر خير تعبير عن الاعتقاد الشائع بين البشر في هذا الصدد. ولكن يصعب علينا ادراك الطريقة التي يمكن بها اثبـات هذا الرأي . فلم تشر

اللجنة الى التجارب التي استمدت منها براهينها ، ولذلك فإن الأمر لم يخرج عن نطاق التأملات مطلقاً . (م ٣٣٦ ص ٢٤ ، م ١٩٨) .

هناك حقيقتان تبرران شيئاً من الشك . أولاهما تكمن في أن هــذا الرأي حديث جداً . . .

فقد درجت العصور الماضية على التأكيد بأن النساء أكثر تبــذلاً من الرجال وأقل طهراً . ففي معظم الولايات الامريكية يعرف البغاء قانونيــاً على أساس أنه عمل نسائي . أما الحقيقة الأخرى ، فهي أن مثل هذا الرأي يؤدي بالراحة لمن ياخذ بالمقاييس المزدوجة (التي يطبق أحدها على النساء والآخر على الرجال) سواء كانت هذه المقاييس خلقية أم اقتصادية . (م ١٩٨) .

وهكذا اعترض أعضاءاللجنة المذكورة سابقاً والمؤلفة من القسس على ادخال النساء في سلك الكهنوت استناداً على « كون النساء أكثر طهراً من الرجال . » ولكن الحقيقــة تكمن في خشية القسس من منافسة النساء الاقتصاديـة إذا تم ادخالهــن في سلك الكهنوت . يجــادل هؤلاء أن « اقتصار سلك الكهنوت على الرجال فقط لا يثير ذلك الجانب عن طبيعة المرأة الذي يجب أن يكون ساكناً لدى عبادة الإله العظيم » بينما « يستحيل على القساوسة الانجليكان الذكور أن يحضروا قدساً تقوم به امرأة بدور القس دون أن يشعروا بجنسها » ولكن نساء الكويكر تقلدن مناصب القساوسة منذ زمن بعيد جداً وبالرغم من ذلك لم تتميز طقوس عبادتهم بطابع الاستثارة الجنسية . ولربما كان معنى ذلك أن الكويكر أقل رجولة من نظائرهم الانجليكان !!! (م ٣٣٦) .

يعتقد « علماء النفس » الهــواة ، العاملون وراء المنبر والمكرفون أن تعقيد الحياة في عصرنا يهدد صحتنا العقلية ، وما تحذيراتهم الصاخبة الا صدى للاعتقاد القديم بالروح . يقول الواعظ إن الإله خلق الإنسان « منتصباً على قدميــه » ولكن الإنسان « ابتــدع اختراعات عديدة . » وقد صرح القس الكساندر كريدون بأن الواعظ عرّف الاختراعات « بالسبل الجديدة التي تسعى لأن يكون الإنسان أسعد وأحكم مما قدّر له الله » . (م ٤١) .

وتكمن الصعوبة طبعاً في وضع الحد الذي أراد منا الله أن نقف عنده . فالذين يرون في السيارة وعصارة الفواكه الكهربائية اجتيازاً لهذا الحد ، يرون في الصحون والعربة التي تجرها الخيول هبة من الإله بالرغم من أن كليهما – الوعاء والعربة – كان في زمن ما من المخترعات « الحديثة » . يحدثنا بيتر فلمنج عن جولاته في بلاد التتر ، فيقول ، لم يثر استهجان المغول من متاعه شيء قدر ما أثارتهم قفازاته فقد اعتبروها مبتكرة ولكنها دليل التخنث . كما شكّوا في قيمتها كاختراع اذ لم تدخل أي تحسين على اليد العارية التي خلقها الإله. (م٦٣).

ويعتبر المتنبؤن بقيام الساعة بأن اختراع المكائن ذات الاندفاع الذاتي من دلائل قيام الساعة . فبالنسبة لهم كان كل شيء كما يرام قبل أن تخترع السيارة والطائرة والقطار والصاروخ . ففي مؤلف حديث يصرح أحد الفلاسفة « ان تعريف المدنية الحديثة يعني الفناء » ويستمر ليوضح وجهة نظره فيقول : « لو استرخى أحد أجدادنا وهو يقود عربته التي تجرها الثيران وشرد ذهنه للحظة فلن يصيبه أي أذى . أما إذا فعل ذلك طيار اليوم ، فستكون نتائج هذه اللحظة من الشرود جسيمة للغاية !!» (م ٥٩) .

وبكلمة أخرى لقد خلقنا عالماً غير طبيعي « مليء بالخطيئة » بدأ يحطم عقولنا « أرواحنا ». لقد ضيقت علينا هذه الاختراعات الحديثة فكادت تخنقنا « لقد أمسكت الخطايا بتلابيبنا وجاءت ساعة الصفر حيث تقضي علينا مخترعاتنا . »

وتكمن نقطة ضعف هذا المنطق في كونه يصف الماضي وصفا لا صحة له فهو خيال محض . ونشك في أن الفيلسوف الآنف الذكر قد جرب امتطاء عربة تجرها الثيران . فليست جميع الثيران صبورة والكثير منها عنيف وسريع ومليء بالحقد وبالرغبة في القتل . وكل هذه النوازع بعيد عن ذهن أية طائرة تحترم نفسها !! إن الطائرات لا يهمها ذباب الخيل في الوقت الذي تدفع فيه هذه الحشرات الثيران والخيول الى عنف مدمر لا نظير له . لقد فقد الكثير من البشر أرواحهم في حوادث الطائرات والسيارات ، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها

ولكن نسبة الوفيات التي سببتها الخيول تزيد عن نسبة الوفيات نتيجة لحوادث الطائرات إذا أخذنا المسافة التي يقطعها الإنسان ممتطياً كل منهما بنظر الاعتبار . ففي الفترة ما بين ١٩٢١ - ١٩٣٣ مثلاً زادت الوفيات بين سواق العربات عن مثيلاتها بين سواق السيارات نتيجة لحوادث الطريق في إنكلترا وويلز بنسبة ٦٠٪ . أي لكل مئة سائق عربة يموت في حادث يقابله ٤٠ فقط بين سواق السيارات . (م ٨١ ص ٢١٣) .

وإذا كان أجدادنا قد قضوا وقتاً مريحاً في عرباتهم فإن أجدادهم قضوا حياتهم متأرجحين بين غصن وآخر ، متخذين قرارات تستغرق أجزاء بسيطة من الثانية مضطرين لتنسيق حركتهم بدقة بالغة . ولقد خرجوا من ذلك كله بتخريب شامل عام لا يصدق .

وإذا استثنينا فناني السيرك الذين يسيرون على الحبال ، وهم أقلية عديمة الأهمية احصائياً ، فاننا نعيش في سبات إذا قورنت حياتنا بحياة أجدادنا التي تشبه حياة القردة . ولكنهم نجوا دون شك والا لما كنا هنا نفرك أيدينا !!!!

تكمن المغالطة في منطق نذراء السوء في الفرضية القائلة بأن الآلة المعقدة تركيباً أصعب استعمالاً . وما هذه الفرضية الا الخطأ بعينه ، والعكس هو الصحيح . فالساعة المنبهة باجزائها المعقدة أسهل استعمالاً من الساعة الشمسية ولجام الحصان أسهل صنعاً من فرامل السيارة ولكن لجم الحصان أصعب من فرملة السيارة بكثير . كما أن ادارة البوصلة الجيروسكوبية في البواخر الحديثة أسهل بكثير من دفع ذراع دفة المركب الشراعي .

الثناء على الذات أحد مميزات الحياة المعاصرة . فنحن نرغب أن نتخيل باننا نحمل على اكتافنا أعباء تهد أطلس الجبار والذي يحمل العالم على كتفيه في الميثولوجيا اليونانية . فيقول أحد الكتاب المعاصرين أن هناك شكاً في أن لدى الأباطرة الرومان من القدرات الادارية ما يحتاجونه لتسيير شركة جنرال اليكتريك الشهيرة (م ٥٩ ص ٢٣٢) - وهذا قول يسبغ الثناء على المدراء العامين المعاصرين - ولكن هذه العبارة تدعو الى الشك فيها أكثر من الشك الذي تدعو

إليه . ومن البـديهي أن الأباطرة الرومان لم يستطيعوا استعمال العدادات الأوتوماتيكية أو الضرب على الآلة الكاتبة ، ولكن معظم المـدراء العامين في الشركات اليوم تنقصهم هذه القدرات أيضاً . ولربما استطاع الأباطرة استعمال الآلات الحسابية البدائية ولكننا نشك في أن المدراء العامين المعـاصرين يستطيعون ذلك . والحقيقة أن عمل أي مدير يقتصر على اتخاذ القرارات وتحمل مسؤوليتها . وممـا لا شك فيه أن الحرس الروماني كان أكثر حزماً من مجالس الادارة عند مناقشة التقارير السنوية، فقلما يحصل الأباطرة الرومان على تقاعد إذا ارتكبوا خطأ فاحشاً ، هذا اذا استطاعو الحفاظ على حياتهم .

إذا نسبنا زيادة الأمراض العصبية والعقلية الى فشلنا في مجابهـة الآلات الميكانيكية المعقدة نكون قد حاولنا تجنب المشكلة بشكل خطر . فالعصاب الذي يبدو أنه يزداد انتشاراً هو نتاج للخيبة وليس نتاج التعقيد في حياتنـا . لذلك فان ما يحتـاج الى التصليح في عالمنـا هو الحالة الانفعالية وليس الحالة الميكانيكية .

لقد أدت التجارب التي أجريت على الحيوانات في المختبرات الى جنون هـذه الحيوانات ، ولكن جنونهـا لم يكن لاستعمال الآت ميكانيكية معقدة ولا قيامها بالمغامرات ، بل الى تدريبها على الاستجابة لاشارات معينة ، ثم تغيرت هـذه الاشارات بحيث أن استجابتها الصحيحة سابقاً لا تؤدي الى الثواب بل العقاب . (م ٣٠٥ ص ٥٤ — ٥٥) .

ان الانسان يشبه الفئران في هذه الناحية، والمجتمع في الوقت الحاضر يبـدو وكأنه قد صممه مجرب يستهدف دفعنا للجنون . لقد نشأنا نتوقع الثواب لسلوك معيّن ولكننا نجد أنفسنا فجأة وسط عالم مملوء باشارات لا تتفق مع ستجاباتنا ، التي تعلمناها في الماضي . لقد تعلمنا منذ نعومة أظفـارنا أن نكون مضحين رقيقي الحاشية نساعد الآخرين ونكره الجشع والعنف . ولكنا نعيش في عـالم ملؤه الجشع والتنافس على المـال بشكل لا يرحم أحداً . تعلمنا أن نكون شرفاء ولكننا وجدنا أنفسنا في عالم يعاقب الاستقامة، ويكافيء الزيف والنفاق

والتلون بألوف الصيغ .

يدفعنا طموحنا ونحن متأكدون من النجاح اذا شددنا عزمنا وشمرنا عن ساعدينا . ولكن بطبيعة الأشياء تخيب آمال تسعين بالمئة ويجد الفاشلون ان الصدف أهم وأكثر وزناً من الجدارة .

كانت النتيجة الفشل واليأس الجماعي فاحتفظ المتهكم واللامبالي بشيء من الثبات ، ولكن ما عدم المبالاة الا حكمة الجنون بنفسها ، وما التهكم الا جنون الحكمة . وهكذا ففي الحقيقة لم يستطع أحد النجاة .

الفصل الحادي عشر

البشرة ولونها

يبدو الخطر الكامن في كل الأخطاء الفاحشة بأوضح أشكاله في الاعتقاد « بالعنصر » أو « العرق » ؛ أي الاعتقاد بوجود ارتباطات محددة بين الخصائص الجسمية من جهة والقدرات الفطرية والذكاء و « الأخلاق » من جهة أخرى .

وهذا الاعتقاد في الواقع حصيلة اعتقاد أشمل ، يقول بانعكاس الصفات العقلية على الخصائص الجسمية . فالجبين المرتفع يدل على الذكاء ، والمنخفض يدل على الغباء . ويكتب المؤلفون الذين يفتقرون إلى الخيال عن الفم « القاسي » والذقن « المتراجع » والأنف « الأرستقراطي » ... الخ وكأن هذه العلاقات لا يدانيها الشك . فالذقن المتراجع الى الوراء يشير الى خلق متراجع . والفك البارز يشير الى خلق بارز ، بالرغم من أن عائلة هابسبرك ، المتميزة بأبرز فك في التاريخ ، كانت من أغبى وأضعف العوائل الحاكمة لعدة قرون . فما هذه العلاقات ، في الواقع ، إلا علاقات لغوية صرفة .

إن الاصرار على انعدام الارتباطات بين المظهر والخلق لا يخلو من السخف طبعاً ، ولكن هذه الارتباطات على درجة من الدقة والتعقيد والتباين بحيث لا يمكن

إخضاعها لأية قاعدة . لأنهـــا تعتمد على التقاليد والعادات والملابس – فهناك أساليب في التعبير كما توجد أزياء في الملابس – .

ومن العناصر المضللة في هـــذه المشكلة أن البشر يمثلون الدور الذي ينسب إليهم ويحاولون جهدهم تقمّص هذا الدور . فقـــد تقمص لنكولن دور الفلاح الخشن ، وتقمص روزفلت روح المرح والدعابة ، بينما تقمص كولدج دور الرجل الصامت – وإذا رجعنا الى أحاديثه المدونة وجدناها تملأ مجلدات – . وهـــذه أمثلة من الفن الذي يمارسه السياسيون مهما كان شأنهم ومركزهم ، وهو يتقولب في خصلة شعر طائشة ورباط رقبة رفيع وفي قبعـة ذات أطراف عريضة ، وسترة سوداء .

ولا يقتصر تقمص هذه الأدوار في مسرح المجانين العظيم هـذا على رجـــال السياسة فقط . فقبل نشر مسرحية « مهنة السيدة ورن » لم يكن مؤلفها السيد جورج برناردشو قد تقمّص شخصية الشيطان بعد . ولكن ما إن نشرت هـذه المسرحية حتى أصبح برناردشو « تجسيداً » للشيطان . ففي صوره الأولى كان شو يبـــدو بشعره المصقول اللامع والمفروق في الوسط ووجهـــه النظيف غير الملتحي يعلو عينيه حاجبان عمليان اعتياديان شأنه شأن أي شخص اعتيادي . ولكن ما إن ساءت سمعته حتى حاول تقمص هـــذه السمعة الجديدة ؛ فأطال لحية مفروقة في الوسط ومشط شعره وكأن خصلتي شعره قرنا شيطان . فبـدا في كل صورة كابليس بعينه . وقد استجاب الرأي العام لمحاولاته هذه ، ووجدوا الشر في مظهره ووجهه الجديد ، الذي اصطنعه خصيصاً لكي يكون عند حسن ظنهم ، لقد وجدوا في كل ذلـك تأييداً لسابق اعتقادهم ، وبنفس الوقت تضخم رصيده في البنك .

هناك مئات الألوف من الأمثلة المشابهة منهم تشيسترتون ، وجون باريمور ، والجنرال فيلدز وغيرهم كثير . وقد كانت سمعة كل منهم مكافأة نقدية لا يمكن إلا أن يغبطهم عليها أي محب للتمثيل . وهناك الملايـين من الناس الذين يعملون بجهد جهيد كهؤلاء المشهورين ولكن دون أن ينالوا شيئاً ؛ امـا لسوء حظهم ،

أو لانعدام قدراتهم . فيحاول ذوو السمنة أن يكونوا هزليين، ويبالغ الاقزام في التأكيد على قصرهم، والعمالقة في ابراز طولهم . أما الزنوج التعساء فعليهم أن يمثلوا دور المغني المرح الذى لا تهمه صروف الدهر . كل ذلك لئلا تخيب آمال المشاهدين الذين يجدون اللذة في مراقبة الغناء والرقص واللامبالاة بين الزنوج . (م ٢٠٠) .

ولقد ابتكرت عدة اختبارات لاكتشاف العلاقة بين العرق أو العنصر والذكاء . وكان الهدف من هذا البحث اثبات تفوق العرق الأبيض على بقية الأجناس البشرية . وهكذا فقد تمسك من آمن بوجود هذه العلاقة بالنتائج التي تدعم اعتقادهم بزهو ؛ بينما تملكهم الغيظ للنتائج التي أثبتت عكس ايمانهم ، فقد اثيرت ضجة في الولايات المتحدة عندما تبين أن أطفال الزنوج لم يسجلوا معدلات ذكاء تساوي معدلات ذكاء اقرانهم البيض ، بينما أهملت تماماً نتائج التجارب التي تشير الى أن أطفال الزنوج في بعض المناطق سجلوا نتائج أفضل من أقرانهم البيض في مناطق أخرى . ويشير كتاب « الأجناس البشرية » الى أن الجنود البيض في الجيش الامريكي فاقوا الزنوج في اختبارات الذكاء . وأن الزنوج الذين يجيدون القراءة والكتابة في بعض الولايات الشمالية سجلوا نتائج أفضل من نتائج البيض الذين يجيدون القراءة والكتابة في الولايات الجنوبية . فالزنوج من مقاطعة أوهايو مثلاً سجلوا أرقاماً أعلى من البيض الذين يقطنون ثمانية ولايات جنوبية . ويمكن التأكيد ، طبعاً بتفوق البيض على السود ، بما أن البيض في الشمال كانت نتائجهم أفضل من الزنوج في الشمال ، وكذلك البيض في الجنوب سجلوا نتائج أفضل من الزنوج في الجنوب . ولكن هؤلاء الذين يصرون على هذه النتائج يجدون أنفسهم في مأزق لا يمكن الخروج منه بسهولة . اذ إن الزنوج في الشمال حصلوا على نتائج أفضل من البيض في الجنوب واذا كان لهذه النتائج أي نصيب من الصحة في هذا الصدد فانها تشير الى احتمالين لا يستطيع المؤمنون بالتميّز العنصري قبول واحد منها .

(١) تعني هذه النتائج أن الشماليين بيضاً وزنوجاً أفضل ذكاءً من الجنوبيين

المؤمنين بالتميّز العنصري . وهذا ما لا يستطيع هؤلاء أن يتصوروه . أو ...
(٢) أن البيئة الملائمة ترفع مستوى الذكاء أو بكلمة أخرى الذكاء هو نتاج للبيئة . وهذا ما لا يستطيع أن يقبله هؤلاء أيضاً . اذ إن قبول ذلك يعني نسف المبرر الوحيد لديهم لابقاء الزنجي في أحواله السيئة الحاضرة . فهم يبررون سوء ظروف حياة الزنوج استناداً على فرضية انحطاطهم الفكري .

وما تثبته الاختبارات ، في الواقع ، في هذه الحالة يشير بوضوح إلى انعكاس الأحوال الاقتصادية في القطر كله على معدلات الذكاء فليس ذكاء هـذا العرق أفضل من ذاك أو أن هذا القطاع الجغرافي أفضل ذكاء من ذلك . والعلاقة هنا ليست علاقة بين اللون والذكاء بل علاقة بين الذكاء والتسهيلات التربوية والمسكن والوضع الاقتصادي بصورة عامة . ولدى البيض فعلاً مبررات للتذمر وكذلك الزنوج . ولكن لا يمكن معالجة جذور هـذه الشكوى إلا بالعمل الاجماعي على تحسين أحوال الجميع دون تمّيز .

وتتعـدى مشكلة التمّيز العنصري حدودها الاقليمية فهي ليست مشكلة الشمال والجنوب في الولايات المتحدة فحسب اذ يمكن اعتبـار مشكلة التميز العنصري، واسطورة التفوق العرقي من أهم أسباب انعدام السلام العالمي في هـذا العصر . ومن السخف بمكان كبير أن نتوقع إسهام أربعة أخماس البشرية التي لا تنتمي للعرق الأبيض الآري في تثبيت دعائم سلطة البيض الذين يشكلون خمس البشرية فقط . وأي حكومة عالمية تنشأ على أساس اسطورة تفوق العرق الآري على بقية العروق، هي حكومة تستعبد الأكثرية لمصلحة الأقلية، وتكون لحمة عملياتها وسداها العنف والخداع. وهذا يعني حرباً مستديمة وخوفاً لا حدود له . والخوف ثمنه الظلم .

ونتساءل كيف وصلنا إلى هـذا الوضع الذي نحن فيه ؟ وكيف اكتسبت كلمة العرق هذه القوة المرعبة ؟ ظهرت كلمة « العرق » في القرن السادس عشر، وكانت كلمة بريئة حينذاك ، تطلق على الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الآباء . أو تعني الجيل كله . واستعمل علماء الحيوان هذه الكلمة لتشير إلى حيـوانات

متعددة تنتمي إلى نفس الفصيلة ثم طبق هــذا المعنى الأخير على الانسان . وفي بداية القرن التاسع عشر ظهر أن الانسان أيضاً حيوان .

ان المعركة الفكرية التي سبقت تحرير العبيد ، هي التي أعطت كلمة «العرق» مفهومها الحديث . وبالرغم من مرور ٨٧ عاماً على تصريح المستعمرين الأميركيين « خلق البشر جميعاً متساوين في الحقوق والواجبات » فقد استمروا في استعباد وتملك الملايين من البشر . ولم يغفل ، بالطبع ، عن هذا التناقض الا القليــل من البشر كما لم ينجُ الأميركيون من تأنيب الضمــير .

وبما أن الاميركيين في الجنوب كانوا ولا زالوا يستفيدون من الرق بالرغم من تشدقهم في الحديث عن الديمقراطية والمساواة والعدالة ، فقد وجدوا أنفسهم في حاجة ماسة لتبرير التناقض الواضح في تصرفهم . وكان المبرر الذي وجدوه هو نظرية العرق والاجناس .

فقد قالوا : ان التعبير « خلق البشر جميعـــاً متساوين » لا يشمل الزنوج والملونــين . فالملونون ليسوا ببشر ، ، إذا التزمنا الدقة في التعبير ، بل هم فصيلة دنيا ، منحطة فكرياً وخلقيـــاً ، اذا قيسوا بالعرق الآري . وهم قوم ميؤوس منهم اي لا يمكن تعليمهم . ولكي لا يضيع أي مخبول وقته وجهده في تعليمهم ، فقد سنّت الولايات الجنوبية القوانين التي تفرض العقوبات على من تسول له نفسة تعليمهم .

أما تحويل مفهوم العرق الى فلسفة واضحة فقد تم على يد الكونت آرثر دي جوبينو (١٨١٦ – ٨٢) وهو كاتب رجعي ثانوي ينتمي للامبراطورية الثانية ، اضطر للطعن بالأسس الفلسفية للثورة الفرنسية لكي يثبت ادعاءاته الارستقراطية . كما صرح بـأن القول بالأخوّة البشرية والعدالة حـــلم فارغ مستند على مغالطة المساواة بـــين البشر . ولكي يسند هذا الرأي ادعى بوجود فوارق فطرية في المواهب واختلاف في قيمة البشر ، تتعادل قطعاً مع لون البشرة وشكل الرأس وتضاريسه علاوة على الخصائص البدنية الأخرى . وأضاف بأن العرق الأبيض هو اسمى الاعراق ولا يسمو على بقية الاجناس بارتفـاعه عنها بالدرجة فحسب

بل باختلافه عنها نوعياً أيضاً . فهو وحده القادر على خلق الحضارة ، وامتلاك هذه القدرة رهين ببقائه عرقاً نقياً . وبما أن العرق الأبيض كان عرقاً مخلوطاً عندما دفع كتابه للنشر – ١٨٥٣ – فلنا أن نفترض بأن عملية الخلق الفكري كانت جامدة تماماً – فيما خلا قدرات جوبينو الخلاقة طبعاً – .

فواجب العرق الأبيض لذلك أن يشرع حالاً بتطهير نفسه من السلالات الدنيا المنحطة . وان فعل فانه سيحكم العالم « طبعاً » .

ولربما تأثرت فكرة التفوق العنصري بالتوازي الانفعالي بين البياض والفضيلة من جانب والسواد والرذيلة من جانب آخر بطريقة لا واعية . أما إذا عدنا إلى الواقع فان العرق الأبيض ليس أبيض حقاً ولا العرق الأسود أسود ولا الأحمر أحمر ولا الأصفر أصفر . بل إن مشهد الأبيض لو كان فعلاً أبيض مشهد قبيح . وليعتبر اليوم حتى الشحوب من الأمور المعيبة خاصة بعد أن اقترن تورد الخدود والسمرة الناجمة عن الاستحمام الشمسي بالثراء وراحة البال . ومما يجدر ذكره بأن الزنوج يطلقون اسم الحمر على البيض .

أما في ألمانيا ، حيث كانت مشكلة العرق نظرية وحيث كانت مفتوحة للتأثر بالأدب ، فقد وجد جوبينو الكثير من الاتباع ولا سيما بعد أن توّج العرق الجرماني باعتباره « العرق السيد » .

وقد استبشر « الشعب السيد » ببعد النظر هذا فأسسوا جمعيات جوبينو في جميع أرجاء وطنهم لينشروا هذا الخبر السار – خبر تفوقهم . ولقد ازداد سرورهم في عام ١٨٩٩ بل تحول الى غبطة أو الى نوع من الجنون عندما نشر كتاب « أركان القرن التاسع عشر » الذي كتبه أوستن ستيوارت تشمبرلين الذي تعدى خيالات جوبينو وخرق حدود سلامة العقل . فقد خلط تشامبرلين بين علم اللغات وعلم الوارثة وعظّم العرق الآري وضم الى هذا العرق كل من كان عظيماً بنظره .

وقد نال كتاب تشمبرلين شهرة واسعة . وصرح القيصر الألماني – وهو سيد « العرق السيد » والذي عين نفسه « أسمى الجميع » – بأن هذا الكتاب من

قراءاته المفضلة . أما هتلر فلم يجد حاجة لأن يطلق مثل هذا التصريح فقد كان رأيه في الموضوع بالغ الوضوح في « كفاحي » . وفي الحقيقة إذا صدقنا فريدلند فاكنر – الذي يدعي بأن هتلر كان غالباً ما يزورهم في شبابه – فلربما التقى هتلر بتشمبرلين الذي كان صهراً لفاكنر .

كان الاضطهاد الديني أو الفكري – ولا زال – في الماضي هو الذي يوفر كبش الفداء . فكان المسيحيون هم كبش الفداء بالنسبة للرومان . يخبرنا ترتليان « إذا فاض التايبر وهدد أسوار روما ، أو إذا عجز النيل عن إتراع الجداول والحقول ، أو إذا امتنعت السماء عن إرسال المطر ، أو إذا زلزلت الأرض زلزالها ، أو إذا هددت المجاعة أو إذا فتك الوباء ترددت صيحة واحدة لا تتغيّر : « اطعموا المسيحيين للأسود » » (م ٢٧ ، ص ٣٠٢) .

كان الاضطهاد في الماضي يتميّز بتبرير ملتوٍ ، فالمسيحيون كانوا كفرة عقوبتهم واجبة على المؤمنين من الرومان ، وتأمر الآلهة بالانتقام منهم دون تميّيز . فقد هددوا السلامة العامة وما إبادتهم إلا من دواعي الصحة العامة والنظافة .

أما تبرير اضطهاد أي فئة من الناس لأنها تختلف عن بقية الناس بيولوجياً أو لأنها تشكل فصيلة دنيا من البشر . فمن مبتكرات الفكر الحديث . وكما يشير جون ستيوارت مل أنها نتاج لعدم التفكير عن قصد . فقد كتب يقول : « هناك وسائل عدّة للتهرب من مجابهة المؤثرات الاجتماعية والأخلاقية على الفكر البشري ، ولكن أبلغ هذه الوسائل فحشاً هي إرجاع الاختلافات الخلقية السلوكية الى أسباب فطرية طبيعية » .

لقد اعتبر « الباحثون » في هذه المشكلة ، شأنهم شأن معظم الباحثين في المشاكل ، اعتبروا الفرضية الاساسية شيئاً مفروغاً منه . فلم يدخلوا في حسابهم الشك في مفهوم العرق نفسه بل صرفوا جل جهدهم لتصنيف العروق – أو بشكل أدق تصنيف المراتب التي تنتمي إليها الاعراق المختلفة وهي تهبط من قمة المقياس الذي يحتله البيض – والصفة الأساسية لهذا التصنيف هو لون البشرة

والذكاء حيث اعتقدوا أن الذكاء يتناسب تناسباً عكسياً مع دكنة اللون . ويلي الذكاء أو بالأحرى يتقدمه « الخلق » . وقد شعر العرق الأبيض بأنه كان قد وهب هذه الصفة بسخاء . فوجب عليه لصالح العالم أجمع أن يحكم العالم ، أو بالاحرى أن يبيد بقية البشرية . وقد حذرنا كارل بيرسون وهو رجل « جاد متزن » « إن من يأسف على حلول العرق الأبيض القادر والضليع محل قبيلة ملونة لا تستطيع أن تنتفع من أرضها لتنفع البشرية ، ولا تضيف نصيبها الى المعرفة البشرية ، ليكشف لنا عن تصوره الخاطىء للتماسك البشري كما يكشف عن إنسانية ضعيفة وعطف إنساني كاذب . » (م ١٤٠ ، ص ٣١٠) .

قد لا يكون التعبير «حلول» مستعملاً استعمالاً حرفياً . فالبرفسور بيرسون بادلائه بدلوه لخير المعرفة البسرية ، لم يقصد من ذلك أن العرق الأبيض « القادر والضليع » يجب أن يكدح في الحقول بل عنى من ذلك أن العرق الأبيض يجب أن يجبر السود على العمل في الحقول من أجل هذه « الغاية النبيلة » .

وقد يتطلب هذا الأمر اللجوء الى العنف ، فالقبائل الملونة لا تدرك دائماً « الإنسانية الحقة » عندما تراها . ولكن غالباً ما يكفي التفوق الخلقي وحده (ويجدر أن تنصب المدافع الرشاشة على أهبة الاستعداد ... عسى ولعل) .

وهكذا أكد سيريل روبنسون في كليـة ونشستر لمنشئي الامبراطورية الشباب في عام ١٩٢٨ بأن واجبه « قد غدا سهلاً بسبب الاحترام والوقار الفائق الذي يوحي به الخلق الأوروبي السامي . » وأضاف بأن « العقل الشرقي بالرغم من انغماسه في الخداع وغرقه في الوحل الآسن لا زال يكّن الاعجاب لاستقامة وعدالة الآخرين » .

ولكنه لا يدعى بأن هذه السلالات الدنيا غير قادرة على التعّلم ، بل على العكس ولسوء الحظ . « فالهندي يتعلم بسرعة هائلة » ولكن « لهول المصيبة ، تظهر قابلية التعّلم بابرع أشكالها لدى من لا يتمتعون بالروادع الخلقية الا بالسطحي منها » . وهكذا فالهنود لا يفتقرون للذكاء ... ولكن هذا الأمر يجعل السيطرة عليهم أمسّ ضرورة ، لأنهم يفتقرون « للوازع الخلقي » ،

ومعارفهم السطحية تملؤهم بالغرور ، ويزيد من « طموحهم المسعور ورغبتهم في ارتقـــاء المناصب المسؤولة واقتباس بعض الكلمات الجديـــدة كالقوميـة والديمقراطية » . ولكن لا يستحسن ترفيعهم بسبب هذا النقص الخلقي البالغ ولذلك فهم يفورون في استيائهم ويغلون ، حتى يصلوا مرحلة « لا يكفي فيهـا خيالهم المحموم سوى الحرية والاستقلال الناجز التام . » (م ٣٣٣ ص ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٣٢) .

هذه هي أفكار « الحكماء » . ولكن رجل الشارع يجد فيها لغواً كثـــيراً وتعقيداً كبيراً. فيستمد نقطة انطلاقه من الفوارق الحضارية الآنية بين العروق. فهو يتساءل بزهو الانتصار ... إذا كان العرق الأصفر والبني والأسود لا يختلف عن العرق الأبيض ، فلماذا لم تخـترع تلك الأجناس المبردة والسيارة وطعـــام الكلاب المحفوظ والمعلب ؟ .

وإذا استجوبت مثل هـــذا الشخص تراه مستعداً للاعتراف بـأن الرجل الأبيض ، باستخدامه مدفعاً رشاشاً للسيطرة على خمسين ملوناً ، يستعمل تفوقـاً مكتسباً غير فطري. ولكنه لا يقتنع بأن الأفكار التي يمتلكها والمعرفة التي يقتبسها تكسبه تفوقاً يشبه التفوق الذي يكتسبه لدى امتلاك المدفع الرشاش بل وتفوقه قوة . إن المعرفة تعطي مالكها قدرة على السيطرة على من يفتقرون إلى المعرفـة سواء كان مالك المعرفة في وطنه أم في وطن أجنبي . ولكن كائناً من كان ... عليه أن يكتسب المعرفة من مناهلها أولاً ليستطيع ممارسة السيطرة فيما بعـد . وهكذا فان سياسة جامعات الغرب التي تغلق أبوابها بوجه الملونين هي في الواقع أبلغ اعتراف بأن الزنجي والهندي والصيني والياباني...الخ يستطيعون أن يتعلموا ان وجدوا الفرصة ، بالرغم من ادعاءات المغالطين .

ان الحضارة الغربية الحديثة مدينة بتراثها ، في الحقيقة ، لليونانيين وعلومهم وفلسفتهم وفنهم . ولكن الشوفيني الذي يهنيء عرقه على اختراعاته الميكانيكية وفنونه وعلومه يعتبر اليوناني المعاصر من أوطأ أصنـاف العرق الابيض . الأمر الذي ينعكس على سياسات الهجرة والمقاعد المخصصة لهم في جامعات الغرب .

هذا ويجب أن لا يغرب عن بالنـا ان اليونانيين في الواقع استمدوا معارفهم من البابليين والسومريين والفراعنة الذين لا يمكن اعتبارهم من العرق الآري بحـال من الأحوال .

وقد عاش الرومان نفس الحياة التي نحياها اليوم يتمتعون بالمطاعم وأحواض السباحة ورحلات الاستجمام والملاعب الرياضية وأحمر الشفاه بينما كان أجـداد العرق السكندنافي يطلون جلودهم بالصبغ الأزرق ويقطنون أكواخاً من الطين ، ويقدمون القرابين لأشجار البلوط .

انه لمن المهانة مواجهة هذه الحقائق ولكن حكماء الرومان في ذلك التـاريخ لم يضعوهم حتى في صنف البرابرة . فقد قـال شيشيرون لاتيكوس ناصحاً « لا تأخذ عبيدك من بريطانيا لانهم في غاية الغباء وتعوزهم القدرة على التعـلم ولا يمتلكون القدرة على أن يصبحوا جزءاً من عالمنا المتحضر » .

أما المؤمنون بالتفرقة العنصرية فهم يرون في هذا أدلة إضافية تدعم وجهـة نظرهم . فهم يؤكدون بأنهم بدأوا متأخرين ، وبالرغم من ذلك فقد سبقوا العالم وهذا يدل « فعـلاً » على تفوقهم . ولكن الجواب على هذه النقطة هو أن الزمن لا يمكن أن يعتبر مقياساً صحيحاً للتقـدم الحضاري . فالتغيرات التي تستغرق قروناً لدى بعض الشعوب لا تستغرق أكثر من سنوات معـدودة لدى شعوب أخرى . وهكذا فعندمـا سافر ديكنز عام ١٨٤٢ الى غرب الولايات المتحدة سنحت له الفرصة لأن يلتقي برئيس قبيلة التشوكتو (من الهنود الحمر) والذي كان يرتدي بدلة غربية ويقرأ كتاب « سيدة البحيرة » تأليف سكوت .

يعتمد التغيّر الحضاري على الانفتاح على التجارب الحضارية الجديدة أكثر من اعتماده على فـترة زمنية معينة . ويصبح التقدم بطيئاً للغاية في غياب هذه التجارب كما يشهد على ذلـك مؤرخو الحضارات الساكنة . وأهم عناصر هذه التجارب الجديدة هو الانفتاح على تجـارب الحضارات الغريبة . فكلما ازدادت فرصة الحضارات للتعلم من الحضارات الأجنبية أصبحت هذه الحضارات دينامية متطورة ، وكلما ازدادت فرص الالتقاء بين الحضارات ازدادت معها فرص التعلم .

وهكذا تصبح الشعوب المنعزلة بدائية لانعدام الشعوب المجـاورة التي تستطيـع أن تتعلم منها طرق « أجنبية » في الحيـاة . وإذا كان للعرق الجرماني أي تفوق حقيقي على قبائل الهوتنتوت فذلك يعود لأن الألمـــان كانوا على معرفة أوثق وأطول بالفرنسيين من الهتنتوت .

الفصل الثاني عشر

لا شيء يستحق النعيق

إن مشكلة الزنوج من أهم مشاكل الولايات المتحدة . وما دام الأمريكي الأبيض لا يعترف بأن الزنجي هو ند كفوء له ، فإن حديثه عن « المساواة » و « الحرية » وحتى « الاقتصاد الحر » يبقى بلا معنى له .

ولقد حدد معظم الأمريكان البيض موقفهم بهذا الشأن . وكان قرارهم واضحاً محدداً . فالزنجي برأيهم ضخم ، شره جنسياً ، وكسول . تميّزه بوضوح عن بقية البشر شفتاه الغليظتان وذراعاه الطويلان وشعره المجعد وتضعه دون البيض بصف القردة . تتملكه الرغبة الجامحة باغتصاب النساء البيض . وقد زودته الطبيعة تزويداً سخياً بالاعضاء والانفعالات اللازمة لهذا الغرض . وفي الفترات القائمة ما بين اغتصاب وآخر ، يمعن في المقامرة ويطلق صيحات خاصة معينة .

أما المرأة الزنجية من الطراز القديم فهي بدينة ولطيفة المعشر تعاني باستمرار من « التعاسة » وهي نوع من الأمراض الوهمية المسلية . انها تشكو دائماً ولكن لا داعي لأخذ شكواها مأخذ الجد . وهي تؤنب سيدتها غالباً بطيبة قلب

ولصالح سيدتها . شديدة الاخلاص ؛ فإذا وقعت العائلة في مأزق مالي ، كانت مستعدة دائماً للتضحية بكل ما وفرته من المال ، والتنازل عنه بخشونة تخفي مشاعرها الحقيقية . وهي طباخة ماهرة ولكنها تعجز عن تنويع أشكال الطعام أو وصف مقومات طبخها . وتتسم معالجتها للأطفال البيض المرضى بالغرابة والسحر . فإذا يئس الاختصاصيون من شفاء الطفل فهي ترمي غاضبة بكل الأدوية من الشباك ، ثم تقوم بتركيب دواء بسيط سري يشفي الطفل المريض ويُعيد له صحته وابتسامته في دقائق معدودة .

وهي تختلف كثيراً عن الزنجية التي تنتمي الى الطراز الحديث . فالزنجية الحديثة برأي الأميركيين عدائية تتظاهر بالمرض، وهي خطرة تنتمي الى منظمة هدّامة أسستها السيدة روزفلت ؛ تنحصر فعاليتها بمزاحمة النساء البيض فتدفعهن عن الرصيف في أيام الخميس خاصة . أما في مخازن القبعات فهي تجرب القبعات المعروضة وبذلك تتلفها فلا يستطيع الزبائن الآخرون شراءها .

هناك معتقدات أخرى شائعة عن الزنوج ؛ منها أنهم يخافون الأشباح ويعبرون عن خوفهم هذا بدرجة بياض عيونهم واهتزاز ركبهم ، ومنها رائحتهم الكريهة. كما يعتقد أن أدمغتهم أصغر حجماً من أدمغة الأبيض ويتوقف نموهم العقلي لدى سن البلوغ . فهم لذلك لا يجتازون مرحلة الطفولة طيلة حياتهم وكتعويض عن هذا النقص يعتقد أنهم يمتلكون حدساً أنكرَ على العرق الأبيض . ويقتصر غذاؤهم على الدجاج المقلي وشرائح لحم الخنزير والبطيخ (رقي) . وهم سعداء دائماً يغنون الأغاني الدينية ويرقصون طرباً بدون أي شعور بالمسؤولية . وعندما تبلغ سعادتهم حداً لا يطاق ؛ يذبح كل منهم الآخر بالامواس .

قبل دراسة وتحليل هذه المعتقدات ، يجب أن نوضح بأن الزنجي الأمريكي يختلف فعلاً عن الأمريكي الأبيض . فرأسه أطول وأضيق من رأس الأبيض وجمجمته أقل اتساعاً من جمجمة الأبيض . كما يتسم بضيق الجبين وبعد المسافة بين العينين . وانفه قصير عريض ذو جسر منخفض . أما فكاه فهما بارزان

يتميزان بشفاه غليظة. وجذعه أقصر من جذع الأبيض نسبياً ، وذراعاه أطول، وصدره مسطح ، وحوضه أضيق وأصغر حجماً ، وساقاه أطول . ويزيد وزنه على وزن الأبيض وهو أقصر قامة منه . وتحتوي بشرته على كمية أكبر من اللون الأسود وأما شعره فمتموج مجعد صوفي . وهو أقـل سمكاً من شعر الرجـل الأبيض . كما يحتوي جسمه على غدد عرقية تفوق نسبياً غدد الرجـل الأبيض . إن هذه الاختلافات بمجملها لا تسند الرأي القائل بانحطاطه عن العرق الأبيض . إذ تشير هذه الصفات أحياناً الى تفوقه . فبروز وسعة الفك مثلاً هي صفة جيدة اذ أن تراجع الفك لدى البيض وصغر حجمه ؛ يسبب التهابات الجيوب الانفية ومشاكل نمو الاسنان . كما يسبب انشقاقات في سقف الحلق وانشقاقاً في الشفة . ولربما كان صغر الحوض صفة سلبية ولكن لم يتم اثبات ذلك بعـد . (م ٨٥ ، (م ١٣٠ ص ٣١ — ٤٤ ، م ١٢٩) .

ولا تلعب الفائدة الوظيفية أي دور في المقاييس السوقية للسمو والانحطاط ويعبر ذلك عـن نفسه في الادعاءات الشائعة بأن الزنوج « أقرب العروق الى القردة » ويثبت ذلك بالصفات الزنجية كالشفاه الغليظة والانف المسطح والجـلد الأسود والأذرع الطويلة والشعر الكثيف المجعد .

أما في الحقيقة فلا يزيد الشبه بين القرد والزنجي عن الشبه بين الأبيض وهذا الحيوان . تتصف بعض القردة بالبشرة السوداء ، حقـاً ومعظم أنوفها مسطحة وأذرعها طويلة أيضاً . ولكن زيارة واحدة لحديقة الحيوان تبرهن لكل شخص ذي عقلية محايدة بأن شفاه القردة وشعرها أشبه بشفاه البيض وشعرهم . فشفاه القردة رفيعة وشعرها سبط كثيف . ان أذرع الزنجي حقـاً أطول من أذرع الأبيض وهذا يشبه القردة ؛ ولكن ساقيه أطول من ساقي البيض وهذا يختلف تماماً عن القردة . أما الصفة الأخـيرة فتبرهن على عكس الاعتقاد الشائع . ولو استمرت المقارنة واتخذنا الشبه بالقردة كمقياس سلبي للرقي ، فسنجد الرجـل الأبيض أقرب إلى القردة من الزنجي . فان سمك الشعر في أسفل الجبـين لدى الأبيض يجعله أقرب شبهاً بالقردة من الزنجي مثـلاً . ولكن من الأفضل الكف

عن المقارنة حفظاً لكرامة القردة والبشر معـاً . ان طول ساقي الزنجي (وهي صفة غير متوفرة لدى القردة—كما سبق أن أسلفنا— قد أهملت تماماً. وهذه دلالة على فقدان الروح الرياضية بين البيض الذين لا يستطيعون تقبـــل فكرة تفوق الزنجي عليهم . وإذا اشترك زنجي وأبيض في سباق للركض يدعي الأبيض بأن هـــذا السباق لا يقوم على الانصاف والعدل . فالزنجي بطبيعة جسمه وساقيه الطويلتين يتخذ خطوات أوسع من الأبيض. يجب أن لا يغرب عن البال أن هذا المنطق هو نفسه الذي واسى به النازيون أنفسهم عندما تفوق عليهم الاميركان في الألعاب الأولمبية لعام ١٩٣٦ . فبما أن الكثير من الامريكان الزنوج اشتركوا في هذا السباق ادعى النازيون أنه لم يكن سباق الند للند ، فقد أجـــبروا على التسابق مع الحيوانات . ولو كان السباق مع البشر (يقصدون العرق الآري) لكانوا هم المنتصرين .

ولكن منطقهم لم يستند على شيء ذي بال . اذ هنالك الكثير من الرياضيين الزنوج الذين تغلب عليهم صفة قصر الأرجـــل كالبيض . (م ٣٨ ص ٧ — ٣ ، م ١٠٣ ص ٧٣) .

وهذا التناقض في منطقهم ، الذي يبرز في تجاهل الصفات الايجابية والتأكيد على الصفات السلبية ، ما هو الا تنـــاقض ظاهري . فالانسجام الحقيقي في الاخطاء الشائعـة السوقية لا يكمن في التساوق المنطقي والخلو من التناقضات ؛ بل يكمن في استهدافه اثبات فرضية واحدة وفي هذه الحالة اثبات تفوق العرق الآري . فهم لا يهمهم حقاً ما يفعل الزنوج وما لا يفعلون ، أو ما يمتلك الزنوج و ما لا يمتلكون — وبالنسبة لهم يـــدل كل شيء على انحطاط العرق الزنجي . وحتى عندما منحوا العرق الزنجي بعض الصفات الايجـابية ، تبين بعد التدقيق والتمحيص أنها في الواقع مزيد من الاتهامات التي يعوزها المـبرر المنطقي . بل تقود في النهاية الى التأكيد على التميّز العنصري .

وهكذا فان الاعتقاد الشائع بأن الزنجي يتمتع بقـــدرة أفضل على تحمل الحرارة هو في الواقع افـــتراء ، يقصد منه ابعاد انتباهنا عن الحقيقة . لانهم لا

يتحملون الحرارة أكثر من الرجل الأبيض . يعمل الملايين من الزنوج ساعات طويـلة في وهج الشمس اللاهبة وذلك لزيادة أرباح الآخرين ، وهؤلاء الآخرون يجدون الاصرار على الاعتقـاد بأن الزنوج « لا يكترثون طبعاً » بحرارة الجو ، أسهل وأرخص من تخفيض ساعات العمل ، أو تجهيزهم بالماء المثلج ، أو اعطائهم وقتاً كافياً للراحة . ومما يدحض هذا الاعتقاد أن لون بشرتهم السوداء لا يحميهم من الشمس اللاهبـــة أو التعرض لضربة الشمس . وطبيعة عملهم الذي يعرضهم للشمس ، ولا سيما في جنوب الولايات المتحدة ، يسبب موت الكثير منهم بتأثير الحرارة . ونسبة الوفيـــات بينهم لهذه الأسباب عالية جداً تزيد من الضعفين إلى ستة أضعاف عن نسبة الوفيات بـين البيض . (م ٥٤ ص ٥١٧ – ٥١٩) .

أما الاعتقاد القائل بأن الزنجي يتمتع بقدرات جنسية خارقة فيبدو أنه أما معتقد وظيفي أو مجرد فضول . فهو يزيد من الخوف من وقوع الاغتصاب ويبرر « ابقاء الزنوج في مكانهم » ؛ أي عزلهم عن باقي المجتمع . ولكن يبدو أن هذه الاسطورة هي في الواقع نتاج لاهتمام غريب يختفي عادة وراء ستار من الاستهجان الخلقي والرعب ، تتـــداوله جميع الشعوب بالنسبة للسلوك الجنسي للشعوب الأخرى . فينسب الصينيون أعمالاً جنسية خارقة للبيض . (م ٨٠ ص ٢٨٧) .

ولقد هوّل الخطر الكامن في الدافع الجنسي لدى الزنوج بمسلّمة « عدم نمـو عقله » . وهو استنتاج قائم على مقولة « صغر دماغه » بالنسبة للرجل الأبيض ، اذ يتوقف نموه قبل الأوان بالتحام شقوق الجمجمة . وقد أعطى الدكتور شيفيلد تعبيراً كاملاً عن هذا الاتهام في كتابه « الزنجي تهديد للحضارة الامريكية » . يقول شيفيلد « ان جمجمة الزنجي أقل سعة والدماغ نفسه أصغر حجماً (من الرجل الأبيض) فسعة جمجمة الزنجي ٣٥ أونساً سائلاً بينما سعة جمجمة الآري ٤٥ أونساً ، أما عظام جمجمة الزنجي فهي سميكة بشكل غير اعتيادي حيث يتحول الرأس إلى مطرقة ضخمة . وعلاوة على ذلك فان شقوق الجمجمة تلتحم بشدة في المراحل الأولى من حياة الزنجي . وهذا مما يوقف نمو الدماغ مبكراً ، أي قبل أن يقف هذا النمو في العروق الأخرى . وتعلل هذه الحقيقة إلى حـد

ما توقف نمو الفكر الاثيوبي بعد سن البلوغ مباشرة » (م ١٥٥ ص ٣٥) . وقد أيد الكثيرون رأي شيفيلد . فقد كتب السيد بيبلو (وهو عضو في مجلس الشيوخ الامريكي) إلى السيدة روث ابيلادو ، المدرسة الزنجية في احدى المدارس في شيكاغو ، ناصحاً اياها بترك عملها والبحث « عن عمل كخادمة » . وأضاف شارحاً ، باسلوب تعوزه البلاغة قدر ما تعوزه اللياقة والذوق « من الواضح أنك لم تتعلمي شيئاً قبل سن المراهقة وهناك كما تعرفين حقيقة بيولوجية هي أن جمجمة الزنجي وأقسامها المتعددة تتصلب عندما يبلغ الزنجي سن البلوغ ولا يقدر على استيعاب أي معرفة بعد ذلك » . (م ٢٢٥ ص ١٤) وادعى البعض بوجود صفات أخرى سلبية ؛ فقد كتب البروفسور روبرت بين في مجلة التشريح الأمريكية ، قبل جيل ، مدعياً بأن دراساته كشفت عن أن دماغ الزنجي ليس أصغر من دماغ الأبيض فحسب بل هناك أقسام فيه واسعة ومعينة كرست لفكرة « الاغتصاب والقتل » (م ١٥ ص ٣٥٣ — ٤١٥) . تعوز آراء شيفيلد اصالة ما كتبه « روبرت بين » وليس لكلا الرأيين أي نصيب من الصحة على الاطلاق . ان دماغ الزنجي أصغر فعلاً من دماغ الأبيض ولكن الاختلاف هو ٤٠ سم ٣ وليس ١٠ أونسات سائلة . وهذه الكمية في الواقع كافية ، كأية كمية أخرى ، إذا كانت ثمة رغبة للاعتقاد بذلك . ولكن قبل أن يسند الشوفيني الابيض ارتقاءه عن بقية العروق على اختلاف بسيط في الدماغ ، عليه أن يعلم بأن قبائل الكافير واليابانيين والهنود الحمر والاسكيمو والبولونيزيين يمتلكون أدمغة أكبر من أدمغة الأبيض . وهكذا إذا استمر الابيض في الاصرار على معادلة الذكاء مع سعة الجمجمة وحجم الدماغ فانه سيجد نفسه في أسفل السلم الذي ارتضاه مقياساً للرقي !!! (م ١٨٦ ص ٩٧ — ١٩٤) .

أما فيما يخص سمك جمجمة الزنجي ؛ فتنعدم القياسات العلمية التي تبين اختلافها عن جمجمة الرجل الأبيض (م ١٢٩) . وبالرغم من ذلك وكما يقول منكن فالاعتقاد الشائع في الولايات المتحدة أنك ـ «إذا ضربت زنجياً على الرأس

بحصاة فان الحصاة ستتفتت « وهذا جزء من الايمان الأمريكي الوطني» (م ١٣٦ ، ص ١٤٢) ، بقي في العقل الباطن طبعاً الاعتراف بوجـــود النزوع الى ضرب الزنوج على الرأس بالحصى. ولكن التسّلي برمي الكرات الصلدة على صورة رأس زنجي لعبة شائعة ، فيدفع الأمريكان كل عام النقود لممارستها في المهرجانات وعلى بلاجات البحر ومناطق الاصطياف . وتدل هـذه اللعبة على أن النزوع غـــير منفصم عن الفكرة بل يتعلق كل منهما بالآخر .. وهكذا يريحون ضمائرهم بـأن الزنجي لا يهتم لأن جمجمته سميكة ! ! أما مسألة التحام شقوق الجمجمة، فقد غدت موضوعاً للبحث العلمي واجريت دراسات دقيقة أثبتت أنه لا توجد أية فروق في التحامها بـــين البيض والزنوج . ولو قرأ أي شخص أبحـاث الأساتذة تود ولايون ، اللذين كلفا نفسيهما الكثير من العناء لدحض هـــذا المعتقد ، لاستطاع أن يقدر سهولة النطق بالأكاذيب وصعوبة دحضها . وقـد يتساءل ان لم تكن شقوق جماجم البشر جميعاً تلتحم قبـل الاوان . (م ١٨٦ ص ٦٨ — ١٤٩) .

إن الإيمان الشائع بتوقف دماغ الزنجي عن النمو من الاخطاء السوقية المحزنة، التي تثبت نفسها بنفسها .

فمن المعروف ان الزنوج في الولايات المتحدة ينقطعون عن المدرسة لدى سن البلوغ . ثم يلجأون للأعمال اليدوية أو يتعفنون في بطالتهم منذ ذلك الحين . كما يشعر معظمهم لدى سن البلوغ أنهم منبوذون ، فتنقطع علاقاتهم وصداقاتهـــم السابقة مع الأطفال البيض (وكان هذا الأمر شائعاً في الماضي أكثر مما هو عليه اليوم) . فيصبحون منذ ذلك الحين « عبيداً خطرين » . ولس غريباً بعـد كل هذا ان يتقيد نموهم بالفقر والجهل وانعدام الفرص . فيجتاحهم الحقـــد بسبب التميّز العنصري . ويتملكهم الخوف والقلق لعدم الطمأنينة للمستقبل . مـــا العجب في أن لا يظهروا تفوقاً فكرياً؟ والأعجب من ذلك أن هؤلاء الذين يتوقعون أن يكون الزنوج أطفالاً الى الأبد يتملكهم الغيظ حالما يكتشفون أن العكس صحيح !

تشير الأحاديث التي نسمعها عـــن (الدم الزنجي) بأن الزنجي — حسب

المفهوم الشعبي – لا يختلف تشريحياً عن الأبيض فحسب بل يختلف عنه فسلجياً أيضاً .

وقد ترجم هذا القول الى فعـــل عندما وافق الصليب الأحمر على فصل دم الزنوج عن دم البيض في بنوك الدم . لا يعتقد المسؤولون الذين اتخذوا هذا القرار بالخطأ السوقي طبعاً ، ولكنهم شعروا دون شك بأن اعطاء دم مخلوط الى بعض الجنود ، قد يؤدي الى شعورهم بالتعاسة – وهـذا أمر لا شك فيه – . ولذلك وجدوا أن من واجبهم مجاملة المغالطة بدلاً من نقضها . ولكنهم بعملهم هـــذا نجحوا في ازعاج جنود آخرين الا وهم الزنوج .

إن الاعتراض على دم الزنجي لا يرتكز فقط على رغبـة البيض في عـــدم الاتصال بالزنوج بتاتاً ، وانما يعتمد على فكرة قديمة مفادها أن الدم هو حامـل للصفات الموروثة . ولكن الدم هـــو في الواقـــع جزء من الجهازين الهضمي والتنفسي . فهو تكوين يتم بواسطة نقل الغذاء والاوكسجين الى خـــلايا الفرد والتخلص من النفايات . وهكذا فليس للدم أي علاقة بالتكاثر ، ولا يختلف دم الزنجي عـــن دم الأبيض بأي شكل من الأشكال . هناك اختلافات في نسب مجاميع الدم لدى الأجناس المختلفـــة . فيمتلك الزنوج نسبـة أعلى من بعض المجاميع ، بينما يمتلك الآريون نسبة أعلى من مجـــاميع أخرى . ولكن الزنوج يمتلكون جميع مجاميع الدم التي يمتلكهـا البيض ، كما أن تركيب دم الزنجي من مجموعة معينة ، لا يختلف اطلاقاً عن دم الأبيض من نفس المجموعة . هـــذا ما ثبت علمياً . (م ١٢٨ ص ١٥ – ١٩) .

ويرتعب الكثيرون من تلويث دمهم بـدم الزنوج ولكنهم ؛ لا يبالون لدى حقنهم ببلازما من دم الخيول (كما في حالة التلقيح ضد التيفوئيد والدفتريا) ودون أن يخافوا من ان يصهلوا يوماً ما ، أو أن ينمو لهم ذيل .

ثمة نقطة أخرى يقصد منهـــا البرهنة على أن تكوين أجسام الزنوج يختلف (أكثر انحطاطاً) عن أجسام البيض . الا وهي أن أجسام الزنوج تطلق رائحة كريهة « بصورة طبيعية » . وتؤمن الملايين بهـذا الوهم . ولكن هنالك البعض

الذين احتكوا بالزنوج عن قرب ، ولم يستطيعوا أن يحسوا بأي شيء « طبيعي » سوى العرق الذي يتصبب من أجسامهم لدى العمـــل المرهق . وكل من يتعرق باستمرار ، دون أن يستحم ، يطلق رائحة كريهـــة مهما كان جنسه . ويقطن الزنوج في أكواخ حقيرة تعوزها دورات المياه فـــلا يستطيعون الاستحمام . كما يرغمهـــم فقرهم على استعمال نفس السمنة للطبخ مراراً وتكراراً فتنتشر رائحة السمنة في ملابسهم التي لا يستطيعون دفع تكاليف تنظيفها. والطريف أن الطبقات الراقيـــة تدعي نفس الشيء بالنسبة للطبقات الدنيا في بريطانيا . فيقـــول أرستقراطيو بريطانيا إن العمال ينفثون رائحة كريهة وطبيعية لديهم .

والتاريخ مليء بمثل هـــذه الاتهامات فيقول ريتشارد رايت الكاتب الزنجي « تنبعث هذه الرائحة من الزنوج بسبب التعرق ولكن للبيض رائحة كريهـــة دائمة » [م ٢٠٠ ص ٦٥] وقد اقتبست مجلة التـــايم قول دلمار كولدن الجندي المحنك الذي « يستطيع أن يشم حامية من اليابانيين عن بعد خمس مئة ياردة » [م ٣١٠ ص ٦٥] . وهـذه ظاهرة غريبة لو كانت حقيقية لسهلت الكثير من العمليات الحربية . وقد اتهم اليابانيون بهذه التهمة منذ أن نشر أحد علمائهم ، من المختصين بالتشريح ويدعى بتناور اداكي ، تقريراً علمياً خالياً من المديح ، عنوانه « رائحة الأوروبيين » . ومن الصدف أن الرائحة التي لم يستطع الياباني تحملها كانت رائحة الالمان . ولقد سبب هذا التصريح احراجـاً لدول المحور . [م ٢ ص ١٤] .

ان التفسيرات التي أعطيت لتدعم هذه اتهامات تبرهن على أن مثل هـــذه الاتهامات لا أساس لها . وهكذا فقد تم تبرير التمّيز العنصري الذي يمارس ضد الزنوج عند تشغيلهم بالشكل التالي « ان الرجل عندما يعرق يفرز جسمه ملحـاً يساعد على تبديـد الرائحة . ولكن جسم الزنجي لا يفرز مثل هذا الملح عندما يتصبب عرقه » . يوجد الكثير من النـاس ممن لا يتحملون الجلوس قرب الزنوج في القطارات والباصات ويؤكدون ، على أنهم يفضلون عدم تناول الطعام نهائياً إذا صادف أن جلسوا قرب زنجي . ولكن ليس لديهم أي مانع من تنـاول

الطعام في عربات القطار التي يخدم فيها الزنوج ويطبخون الطعام أيضاً !!!

قام البروفسور « لي » ، من قسم الاجتماع في جامعة وين بدراسة التظاهرات العنصرية في ديترويت في حزيران ١٩٤٣ . وقد حدثه أحد الشهود أنه كاد يتقيأ ، عندما أضيئت أنوار السينما فجأة في احدس دور السينما ، ووجد نفسه يجلس جنب زنجي . وقد فسر اشمئزازه بأن كانت « تنبعث من الزنجي رائحة كريهة » ولكن يبدو أن حاسة شمه تتوقف عن العمل في الظلام !!! [م ١٠١ ص ١١٠] .

يبدو أن لكل فرد رائحة خاصة . اذ تستطيع الكلاب البوليسية والكلاب الأخرى أن تتعقب أي انسان بعد أن تشم قطعة من ملابسه . ويشير كولد وبايل إلى « سيدة شابة تعبق منها رائحة الفانيلا القوية » ويقول بلوتارك إن ملابس الاسكندر الكبير الداخلية فاحت منها رائحة عطرية . أما هنري مور الافلاطوني فقد ادعى بأن رائحة البنفسج العطرية انبعثت منه وكانت هذه هبة سماوية خاصة به . [م ٧٣ ، م ١٤٤ ، م ١٣١] .

ورغم هذه الادعاءات تتميز بعض فصائل الحيوانات ، دون شك ، بروائح خاصة . روائح تستطيع أن تميّزها حتى أنوفنا الضعيفة .

ولا يحتاج الانسان إلى كلب بوليسي ذكي لكي يفسر له معطيات الادعاء باختلاف رائحة الزنوج فالأمر واضح. إذا كانت للزنوج رائحة تختلف عن البشر فهم ينتمون الى فصيلة تختلف عن البشر !

ولكن ليس هناك أي شخص استطاع أن يثبت بان الزنجي يتمتع برائحة خاصة . ولقد تمت تجربة وضع فيها تعرّق رياضيين زنوج وبيض في أنابيب اختبار . ولكن الذين شموا هذه القناني لم يستطيعوا تمّيز تعرّق الزنوج بالرغم من ادعاءات بعضهم بقدراتهم هذه . لقد استطاعوا تمّيز درجات متفاوتة من عفونة الرائحة ؛ ولكن لم يستطع أحداً أن يميّز بشكل صحيح تعرّق الزنوج عن تعرق البيض . [م ٩٩] .

ولكن كتعويض لهذه النواقص المختلفة لدى الزنوج ، فقد جرى الاعتقاد

على انهم يمتلكون قدرات غيبية بسيطة. فهم يستطيعون ادرك بعض «العلامات» في سلوك الطيور والحيوانات الأخرى . ويمتلكون الحـــدس وقوة الفراسة . وهكـــذا تقول ماركريت متشل في كتابها « ذهب مع الريح » يستطيع « الأطفال والزنوج والكلاب » ادراك رقـــة جيرالد أوهارا التي تختبىء وراء سلوكها الخشن من « النظرة الأولى » . سطحياً يبدو هذا القول مديحاً . ولكن للتعبير معطيات تدل على العكس . فالزنوج ليسوا بشراً كما أنهم ليسوا ببالغين . [م ١٢٥] .

هناك ادعاء آخر شائع ؛ الا وهو أن الزنوج سعداء « طبيعياً » . وإذا كانوا سعداء ، فهم بذلك يكذبون كل التجـــارب الانسانية . اذ إنهم سعداء رغم افتقارهم للصحة والثروة والأمل .

قد يتظاهرون بالسعادة ؛ وإذا كان هذا التظاهر تنكراً مفتعلاً؛ يمكننا أن نقول إنهم تعساء . وتعاستهم تفتقر إلى الوقار . ويشهد على حالتهم الحقيقية هذه أدباؤهم ، والملاحظون الأجانب الذين لا يتصفون بالتحيّز . فيتحدث الـكاتب الزنجي ريتشارد رايت عن « انعدام الرقة الحقيقية بين الزنوج » فيقول: « هناك سخرية لا شعورية تفسَّر تفسيراً خاطئاً بالسلبية وانعدام المشاعر وفقدان الأمل وهروبهم وخوفهم وهيجانهم تحت الضغط ـ تفسّر كل هـــذه الأمور ، خطأ ، بشعور عميق بالوجود » [م ٢٠٠ ص ٣٣] .

وقد لاحظت هارييت ماتينو هذه الأشياء وعلـّقت عليها قبـــل مئة عام . فقد أكدت في وصفها لامريكا بأن « العلاقة الودية » التي تربط الأسياد والعبيـد لا تتعدى التظاهر المتبادل المبني على الخوف . [م ١١٣ ص ١٥٢] .

ولقـــد استدعت مؤسسة كارنيجي الاقتصادي السويدي جونارميردال في جيلنا هذا لكي يدرس مشكلة الزنوج بشكل خاص . ومما جلب انتباهه فرضية سعادة الزنوج . فقد اعتبرها سمة من سمات « محاولة البقاء » . وقـال شارحاً : «ان الكثير مما يعتبر مرحاً لدى الزنوج هو في الواقع دفاع أو ضرب من ضروب الحماية . فلا يخلو دور المهرج الهزلي من بعض الامتيازات والحصانات . فالزنجي

المتجهم أخطر من أن يترك دون هجوم . فالضحكة العالية والنكتة والنشاز (التي توجه إلى الذات دائماً عندما يكون البيض على مرمى السمع) مثل التهريج الهزلي ، كل هذه وسائل دفاع عن الذات ليس إلا » .

ثم لاحظ بأن مزاحهم الصاخب ذا النية الحسنة غالباً ما يقترب من العدائية وينحط إلى مستويات البذاءة . ولقد استنتج أن طباعهم ليست « مشرقة » بالشكل الذي يحاول البيض أن يقذموا أنفسهم به . [م ، ١٤٣] .

وتؤكد تأملات ميردل احصائيات مستشفى نيويورك الحكومي للأمراض العقلية . فبين عام ١٩٢٩ – ١٩٣١ مثلاً ، كانت نسبة الزنوج أضعاف نسبة البيض الذين دخلوا هذه المؤسسات ، بالرغم من أن الزنوج كان معظمهم شباباً ولذلك كان يجب أن تكون نسبة الأمراض العقلية بينهم أقل . كما يجب أن لا يغرب عن البال أن الكثير من هؤلاء قد دخل هذه المؤسسات بسبب الشلل الزهري والإدمان على الكحول . ولكن التلامذة الأغبياء فقط هم الذين يعتقدون أن الادمان على الخمور والأمراض الزهرية من دلائل السعادة . أما الأمراض التي يربطها الناس باليأس والتعاسة ، فهي الشيزوفيرينا (الفصام) والجنون الهذياني الانقباضي . ونسبة اصابات الزنوج بهذه الأمراض تتراوح بين ٥٠ الى ١٠٠٪ من البيض . وقد لخص أحد الزنوج المسنين سعادته الشهيرة عندما سأله صاحب عمله لماذا تبدو عليه السعادة دائماً . فأجاب « إن لم أكن سعيداً فسأكون أكثر شقاء مما أنا عليه الآن » [م ، ١٣٤] .

ويخاف الأميركيون من سرعة تكاثر الزنوج . أنهم يتكاثرون بسرعة فائقة وهم لذلك سيقبضون على زمام الحكم في يوم قريب . ولقد هدد الراجمون بالغيب كل جيل أمريكي بهذه « اللعنة » . ولقد صدق كل جيل « نبيه » الخاص دون أن يحملوا أنفسهم عناء فحص سجلات « الأنبياء » السابقين . وتكفي ثوانٍ معدودات لتبديد هذا الذعر بعد قراءة الإحصائيات الحياتية في الولايات المتحدة. نعم لقد ازداد عدد الزنوج منذ تكوين الجمهورية وحتى الآن ؛ ولكن نسبتهم بالنسبة لمجمل السكان كانت في تناقص مستمر . فقد تضاعف عددهم ١٧ مرة ما

بين ١٧٩٠ – ١٩٤٠ بينما تضاعف عدد البيض ٣٧ مرّة . وهكذا قـــلت نسبة الزنوج الى مجمل السكان من ١٩٪ الى ٩٪ .

ومما لا شك فيه فقد ازدادت نسبة المواليـــد لديهم منها لدى البيض زيادة ضئيلة . فبـــين ١٩٣٠ – ١٩٤٠ ازدادت نسبتهم ١٠ و ٪ فقط . وهؤلاء الذين يخافون من تكاثر الزنوج ، ربما يشرح صدورهم ازدياد نسبة الوفيات بين الزنوج. ففي عام١٩٣٠ كان معدل متوقع حياة الزنجي٤٨ سنة مقابل ٦١ سنة للأبيض. أما الأطفال الزنوج الذين يولدون ميتين فقد كانت نسبتهم عـام ١٩٤٠ أعلى من نسبة البيض ٥٪ . كما أن نسبة الوفيات بـــين أطفال الزنوج في السنة الاولى من حياتهم هي ضعف نسبة وفيات البيض .

إن الشوفيني الأبيض الذي يهلع لفكرة تحسن وارتفاع مستوى الحيـاة لدى الزنوج ، تواسيه فكرة أخرى تتلخص بأن الارتفاع في مستوى الحياة يعني قلة نسبة المواليد . فقد حدث ذلك لدى جميع الشعوب . ولكن الغبطة الناجمة عن هذه المؤاساة لا تستمر طويلاً ؛ اذ إن نسبة الموت ستنخفض أيضاً . سيقل عدد المواليد وسيقل عدد الموتى أيضاً !!! ولكن ما العمل ؟ البركات على هذه الأرض يعوزها الكمال دائماً .

الفصل الثالث عشر

المتدهّون والشمس

يبـــدو غموض المفهوم الشائع للعرق واضحاً لدى ملاحظة استعمال الناس « للصفات العنصرية » و « الخصائص القومية » كمترادفات ، وكأن المؤثرات البيولوجية والمؤثرات الجغرافية هي الشيء نفسه . وهكذا نسمع أن الألمان يمتلكون عقولاً « منظمة » ؛ (بالرغم من أنهم كانوا آخر شعب في أوروبا وحد نفسه) . ونسمع أيضاً بأن الايطاليين يتصفون بحدّة المزاج ، (بالرغم من أنهم تحملوا حكم موسوليني دون مبالاة لعشرين عاماً) . وإن السويديين يتصفون بالبرود ؛ (بالرغم من أن العالم يعتبر جريتا جاربوا وإنجريد برجمـان من أعظم ممثلات المأساة وكلتاهما من السويد) .

تتضح حماقة هذه التعميمات لدى الرجوع الى الفكرة التي كونها الغربيون عن الروس . فقد ورد في مجلة التايم فرضية عـن « العقل الروسي » مفادها افتقاره الى القدرة على استعمال ما توصلت إليه الحضارة من الاختراعات الآلية ، (وكأن ديسفورسكي عاجز عـن قيادة الطائرات) . كما يحدثنا البروفسور هوتن عـن « القلق الانفعالي » الذي اتصف به المدافعون عن ستالين غراد . (م ١١٩) .

ومن الصور النمطية الشائعة مرح الايرلنديين ، والتزام اليابانيين بالتقليد ، دون فهم ، واستقامة الصينيين ، وميل « اللاتينيين » للغرام . اننا « نعلم » بأن الألمان يشربون كميات هائلة من البيرة ، وأن الصينيين يقتاتون على الرز وأن الفتيات في الهند يتزوجن ، قبل أن يبلغن الثانية عشرة من العمر .

يتصف بعض الايرلنديين بالمرح ولكن جورج برنارد شو (من أكثر الشخصيات مرحاً) يؤكد بأن الروح المرحة وسرعة البديهة والخيال هي من الصفات النادرة لدى الايرلنديين ، ولكنها أكثر ندرة عند الانكليز . إن المفهوم الشائع عن الرجل الايرلندي كما يقول شو ما هو الا وهم ابتدعه الانكليز لتُجَسَّم فيه صفات الانجليز الضعيفة أنفسهم . (م ٢٦) .

أما تقليد اليابانيين فيثبت لنا بقصة الجاسوس الياباني الذي سمح له بسرقة تصاميم السفن الحربية الأمريكية . وقد اعتقد الجاسوس أنه سرق التصاميم الأصلية ، ولكنه في الواقع حصل على تصاميم مزيفة تحتوي على تبديل بسيط وحيوي للغاية . وقد نقل اليابانيون التصاميم المزيفة بحذافيرها ولكنهم فوجئوا بأن السفينة الحربية التي بنوها انقلبت رأساً على عقب حالما نزلت الى الماء . ولم يتهم أحد الامريكيين بسرقة تصاميم مزيفة من اليابانيين المخادعين عندما وجدوا أن بعض السفن الحربية التي بنوها ناقصة أو عندما انشقت السفن التي انشئت في أثناء الحرب لتعبر الاطلسي مرّة واحدة حالما لمست الماء !!

كما لم يفترض أحد أن أمراء الاساطيل الأمريكان يفتقرون الى القدرة على اتخاذ القرارات المستقلة عندما تحطمت سبع مدمرات على شواطىء كاليفورنيا نتيجة لاقتباس ربابنة المدمرات الست الخلفية ، قرارات ربان المدمرة الأولى .

وإذا قارنّا اليابانيين بالصينيين لوجدنا الاعتقاد الشائع بأن الصينيين يتصفون بالاستقامة حتى أن اليابانيين المشهورين بخداعهم وعدم ثقتهم بكل منهم الآخر ، استخدموا الصينيين في بنوكهم ومصارفهم . ولعل استخدام الصينيين بالبنوك اليابانية يفسّر لنا ندرة النزيهين في الصين . إذ أن الفساد والابتزاز منتشران بصورة لا تصدق بحيث تكاد تخنق الحياة العامة . بل ويعتبر نظام العصابات

أمراً شائعاً ومقبولاً في تسيير الأعمال التجارية .[1] .

واذا كانت هناك فروق بين الصينيين واليابانيين فهي فروق غير مفروغ منها ولا تزال موضع الجدل . ولكن قبل أن تنطفيء نيران بيرل هاربور قدمت مجلة لايف لقرائها صفحتين تُبين فيهما كيفية التميز بين « الصينيين المخلصين واليابانيين المعادين » . وقد علقت النيويوركر على مجلة لايف بتصوير جنديين يابانيين أخذهما العجب حول نشرة يستطاع عن طريقها التمييز بين الالمان المخلصين والأمريكان والانكليز المعادين [م ٬ ٢٤٣ ص ٨١] .

هنالك وهم شائع ٬ يبين أن للشرقيين صفاتٍ أخرى علاوة على بشرتهم الصفراء وعيونهم « المنحرفة » . فهم يتصفون بالحكمة والغموض وبالخداع الشيطاني . كما تتصف نساؤهم بصدور مسطحة [م ٬ ١٨٨ ص ١٣٦] . ويبدو أن هذا الوهم محاولة للتعويض عن الأساطير الشائعة عن نساء بولونيزيا .

تكفي الملاحظة السطحية لتثبت أن عيون العرق الأصفر ليست منحرفة فعلاً . إن موضع عيونهم في رؤوسهم كموضع عيون أي عرق آخر . إن مظهر عيونهم الغريب (غريب طبعاً بالنسبة لنا بالرغم من أنهم يفوقوننا عدداً ٬ فنحن إذن غير الطبيعيين) يعود الى وجود طية جلدية في الطرف الداخلي من كل جفن.

وبما أن العيون « المنحرفة» تنذر بالشؤم والغموض – كما ظهر حديثاً في آخر الأزياء في الولايات المتحدة بارتداء نظارات « منحرفة الى الأعلى » وقد اقتبس هذا الزي طالبات الجامعات لتضفي على وجوههن الشابة الغضة البسيطة لمسة سحرية – والاعتقاد بأن الشرقيين يتصفون بهاتين الصفتين شائع ولا تكفي الملاحظة الموضوعية لتبديد هذا الاعتقاد . وبما أن عيون الشرقيين تعبر عن الغموض فمن « المعروف » اذن أن الشرقيين مخادعون . وقد كتب ادموند شافتسبري عام ١٨٩٧ فقال إن دراسته الدقيقة للصينيين تمخضت عن اثبات

---

١ – هذا الحديث مستمد من مقالات لرئيس تحرير جريدة مستقلة في الصين هو السيد تاكونك باو نشرها عام ١٩٤٤ واختصرت بالانكليزية في مجلة التايم الأميركية في عددها الصادر في تشرين الأول – ٢ – ١٩٤٤ .

حقيقة كونهم عرق مخادع قاسٍ ومجرم غريزياً بالغريزة . ولكن الخوف يردعهم لحسن الحظ . ولم تنسَ ذاكرتهم الموروثة التعذيب الذي ابتكره حكامهم لمعاقبة المجرمين . هذا الرعب من وسائل التعذيب الوحشية هو الذي يلوي عنان هـذه الصفات الشريرة . [م ، ١٦١ ، ص ٤١] .

وعند كتابة هذا التحليل كان الاميركان قد استوردوا ألوف الصينيين للعمل في شق الطرق وإنشاء السكك الحديدية في غرب الولايات المتحدة . وبالرغم من موت عدد هائل منهم نتيجة للمعاملة البربرية التي عوملوا بها فقد سُنّ قانون عزل الصينيين، وتوقفت هجرة الصينيين الى الولايات المتحدة . لأن الأقلية الباقية كانت تهديداً لتوازن العرض والطلب في العمل . ولقد كان رفع أجورهم أحد الحلول المعقولة ؛ ولكن استثارة العداء العنصري ، للتغطية على المشكلة الحقيقية، كان أرخص بكثير . وبما أن هؤلاء العمال غيرَ الماهرين من المخلوقات المسالمة التي لا ينجم عنها أي ضرر فقد كان من الضروري خلق صورة جديدة عنهم تناقض ما هم عليه في الواقع . هكذا أصبحت وجوههم المسالمة « أقنعة غامضة » . أما مرحهم فوراءه « خداع شيطاني » كما يـدعو سلوكهم الرقيق « المريبة » فأيديهم المكتفة على صدورهم بأدب تخفي الخناجر المسمومة . وما صبرهم الهائل إلا نتيجة «لفقدان الوعي الناشىء عن تناول المخدرات» . إنهم يقضون وقتهم بأحلام اليقظة التي تتألف من اجترار التعذيب الذي قاسوه على أيدي أباطرتهم ، بالرغم من أن بعض الأحداث التي كانت تجري في كاليفورنيا حينذاك تجعل من تعذيب أباطرة الصين أمراً هيّناً بالمقارنة .

أما بالنسبة للصدور المسطحة فإن النساء الصفر أو السمر لا يختلفن عن اخواتهن البيض لا وظيفياً ولا جسمياً . كل مـــا يعوزهن ، طبعاً ، حمـــالات الصدور والبـلوزات الضيقة . ولسوف يجد محبي الاستطلاع قناعة حول هـــذه النقطة الحساسة ، في الصور الفوتوغرافية العديدة التي نشرت في كتاب « المرأة » تأليف بلوس وبارتلز . [م ، ١٤٣] .

ولقد أكدت كاترين مايو في كتابها « الهند الأم » الاعتقاد القائل بأن الفتيات

في الهند يتزوجن ويلدن وهن مـــازلن في سن الطفولة . [م ، ١١٥] حيث ادعت أنه من المألوف والشائع أن تصبح الهنديات أمهات « بعــد تسعة أشهر من سن البلوغ » وهو حدث ، كما أشارت السيدة مايو ، يحصل في الهند بـــين السن السابعة والثالثة عشرة . وقد اعترفت أن سن السابعة هو حالة «شاذة » ولكنها عادت فأنقذت قراءها من خيبة الامل بلجوئها للتأكيد على أن السن الثانيةعشرة « فوق المعدل » . (م ، ١١٥)

وبالرغم من الاستياء الخلقي المشوب بطابــع الاستطلاع الشهواني الذي أثاره كتابها ، فإن نصيب « حقائقها » من الصحة كان ضئيلاً . فقد قام الدكتور بالفور بدراسة في بومبي شملت ٦٥٨٠ حالة . ووجد أن معدل أعمار الأمهات عندمــا يلدن أطفالهن البكر ثمانية عشر عاماً وسبعة أشهر . أما في مدراس فقد كان المعدل ١٩ سنة وأربعة أشهر . ولم تكن بين الحالات هذه أم واحدة يقل عمرها عن ١٣ سنة بل كان هنالك ٤٢ فقط تقل أعمــارهن عن ١٥ سنة . [م ، ٣٢٥ ض ٨] .

وقد بين التقرير الإحصائي الهندي لعام ١٩٣١ أن معدل سن الفتيات عنــد الزواج كان ٣٣ و ١٣ . يبدو هذا السن صغيراً بالنسبة لنـــا وبالنسبة لمقاييسنا ولكن الملحوظ أن الطفل البكر لا يولد إلا بعد مرور ثلاث سنوات على الأقل . ويشير نورمن دوجلاس الى أن الزيجـــات في سن الطفولة هي شكل من أشكال الخطوبة (حسب التقاليد الهندية) التي يرمي الى حفظ البراءة لا الى تحطيمها . [م ، ٥١ ص ٥١]

ومهما كانت غرابة العادات والتقاليد في الهنــد فإن الولايات المتحدة ليست بوضع يسمح لها باطلاق الأحكام الخلقية في هذا الموضوع . إذ توجد ستة ولايات تسمح للفتيات بالزواج قانونياً في سن ١٢ ، وولاية واحدة تحــدد العمر القانوني بثلاثة عشر عاماً ، وعشر ولايات تحدده بسن الرابعة عشر . وهــذا أمر استغله ١٢٥،٠٠٠ عروس كما ظهر في الاحصاء الذي جرى عــام ١٩٣٠ . هـــذا في الوقت الذي يحدد الاتراك العمر الادنى للزواج بالخامسة عشرة .

أما أن سجلات الولايات المتحدة ، في هــذا الصدد ، أسوأ (أو أفضل) حتى من سجلات ايطاليا فهو أمر يستحق التأمل . اذ يعرف كل من يذهب للسينما أو يصغي للمذياع أن اللاتينيين محبون مدلهون ويميلون بشكل خاص للفتيات الصغيرات السن .

وهذا جزء صميم من المعتقدات القومية الاميركية. بل أن تعبير « رومانس » نفسه ليس إلا تعبيراً سوقياً للمقدمات الجنسية بمعنى على « الطراز الروماني » .

ولقد اكتسب هذا التعبير معطياته الحديثة بطرق ملتوية ولكن القوى التي توجهه ما زال مفهولها سارياً .

إذا التزمنا الدقة في التعبير فــان اللاتينيين هم الشعوب التي تتحدث بلغات مستمدة من اللغة اللاتينية،ومن بين هذه الشعوب شعب رومانيا مثلاً. ولكن بما أن الرأي العام يجهل هذه الحقيقة اللغوية فان رعايا الملك كارل السابق (ولقد اشتهر جلالته بسوء السيرة) لا يعتقــد أنهم « مغرمون متدلهون » . ان هذه الصفة مقصورة على الطليان والفرنسيين والاسبان (مــنذ أن مثّل رودولف فالنتينو قصة فرسان الدمار الاربعة في السينما) ثم ضم ابناء امريكا الجنوبيــة إليهم بصورة خاصة .

ان الهنود الذين يشكلون أغلبية السكان في أمريكا الجنوبية لا تنطبق عليهم هذه الصفة . ففي عالم «الرومانس» يشير تعبير « الامريكي اللاتيني » إلى الشباب ذوي المظهر الصقيل الذين يرتدون الكمربند ويرقصون السامبا والرومبا في هافانا وريو وبوينس ايرس ، كما يضيف ذوو المعرفة أهالي الفلبين الى هــذه القائمة لأنهم يتكلمون الاسبانية أيضاً .

ولقد لاحظ الذين زاروا البلدان اللاتينية ان الحياة العائلية اللاتينية تتمسك بالخلق تمسكاً شديداً،وتبدو حياتهم للباحث عن المغامرات الغرامية مملة حقاً إذا قورنت بالحياة المتحررة في الولايات المتحدة. إن الفتاة الاسبانية، أو الايطالية، أو الفرنسية ذات خلق عالٍ فهي لا تحلم أو لا تفكر مطلقاً في الذهاب الى السينما مثلاً بصحبة الشبان . هذا مع العلم ان الاسباني أو الايطالي أو الفرنسي ، الذي

يتمسك بنفس هذه القيم الخلقية ، لا يقبل مطلقاً بالزواج من فتاة تبدي رغبة في أن يصطحبها شاب الى السينما مثلاً . ان النفاق لدى هذه الشعوب أقل منه لدى مجتمع الولايات المتحدة . فالمقاييس المزدوجة شيء بديهي لديهم وهم لا ينكرون وجـــود البغاء . ففي ايطاليا مثلاً كانت دور البغاء – تحت حـكم موسليني – تخضع لمراقبة الدولة ، وتتميز بلوحات الاعلان المضاءة واستعراض الموديلات مع البطاقات الموسمية والتنزيلات لمن يتعامل بالجملة وما الى ذلك من صيغ وصفات المعاملات التجارية الصرفة . يتصف الطليان بالواقعية والصراحة . ولعل ذلك أكثر براءة من النفاق واللف والدوران. ان افكار الامريكيين عن تدله اللاتينيين أصيل في القدم، ويرتكز على عوامل عديدة . ومن هذه العوامل الاعتقاد القديم بأن الشمس مثيرة جنسياً ، ممـا يسوق الى الاعتقاد بأن الشهوانية الجنسية تزداد كلما اقترب الإنسان من خط الاستواء . فالزنوج بالنسبة لهذه الفلسفة « مغرمون متدلهون » – وهكذا فان التوندليو يعتبر جزء من التراث العظيم هذا – ويـلي الزنوج، الطليان والاسبان لأن أوطانهم في الجنوب ومعرضة للشمس المثيرة وهي جزء من خطوط العرض المثيرة !!!

ولقد حوّر سلوك الشعوب ليتناسب مع هذه النظرية . فطلاقة الطليان المرحة والسهولة التي يعبرون بها عن عواطفهم ، أثبتت للجميع دون لبس وابهام النوع الذي ينتمون إليه . بينما ينم تعالي الاسبان وتحفظهم وبرودهم عـن الطاقة الهائلة التي يبذلونها لكي يكبحوا جماح عواطفهم ونزواتهم !!!

وإذا ربطنا هذه النظرية بنتائجها المنطقية فلا بـد ان التلقيح الذاتي هـــو السبب لعدم انقراض الاسكيمو . ولكن زار عـدد من الباحثين الاسكيمو في أكواخهم الثلجية ، وقدموا أبحاثاً مستفيضة منهم منهم روكويل كنت ، وتبير فرويخن ، وجونتران دي بونسنس وغـــيرهم آخرون وكانت تقاريرهم تجمع على نفي هذا المضمون .

ولا يسمح المجـال كما لا تسمح اللياقة باعطاء حتى ملخص لهـــذه البحوث ولكنها جميعاً تبيّن بوضوح أن الليـالي في المنطقة القطبية الشمالية ليست بطويلة

بالنسبة للاسكيمو . فاعتـــبر كنت (وهو امريكي وبالنسبة لهذه النظرية بارد نسبياً) عاداتهم وتقاليدهم مسلية ، واعترف أنه شاركهم في بعض فعالياتهم . بينما خجل بونسنس الفرنسي منها فأكد لقرائه انه كان متفرجاً فحسب .

ان ما ينسب من الطاقات الجنسية الخـارقة « للعرق » اللاتيني هو في الواقع أمنية تعكس انطوائية السكسون على أنفسهم جنسياً . وموقفهم نحو هـــذا الموضوح أدّى بالانجليز لقرون عدة أن يطلقوا على السفلس « المرض الفرنسي ». ويشيرون إلى طرق منع الحمـــل وكأنها تصنع في فرنسا فقط . ولكن كازانوفا يؤكد بان الانحلال الخلقي في انكلترا يفوق أي بلد آخر زاره وافتخر دائمـــاً ، بانه استعمل وسائل منع الحمل الانكليزية لانها أفضل ما يوجد في العالم . وحتى في الوقت الحاضر تأخـــذ الزوار الفرنسيين الدهشة عندما يشاهدون البضائع المعروضة في واجهات المخازن في ساحة ليستر والفتيات المنتشرات بين هـــذه الساحة وبيكادللي اللواتي يجعلن مثل هذا العرض مربحاً ومفيداً .

ولربما حمل الاميركان معهم هذا التحيّز كمستوطنين عندمـا هاجروا من انكلترة . أما في عصر مارك توين فقد كانت جذور هذا التحيّز قـد رسخت . وازدادت رسوخاً خلال الحرب العالمية الأولى ؛ وفي العشرينات في أوج موجـة السياحة عندما زار الاميركان باريس فشاهدوا فيهـــا أموراً جهلوا مخلصين وجودهـــا في بيوريا وبادوكا في امريكا . أما النساء فقد اندهشن حقاً عندما تسكعن وحدهن بوجوه مطلية بالمساحيق وقد علتها ابتسامات سخية ووجدن الأوروبيين يتقدمون إليهن بشوق .

ويعتبر العقل السوقي الخلاسين « عرقاً » منفصلاً تقريباً وهم بالنسبة لهـــذا العقل عرق أدنى من كلا العرقين الذين انحدر منهما . أما بالنسبة لبقية المخلوقات فقد استعمل التهجين كوسيلة فعـــالة لتقوية وتعزيز السلالة لا اضعافها . وليس هنالك سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن الانسان يختلف عن المخلوقات الأخرى في هذا السبيل .

بل على العكس فهنالك أدلة تشير الى أن السلالات المنحدرة عن اختـــلاط

القوميات المختلفة تمتلك صفات تتفوق عن عناصرها النقية الأصلية .

فقد تميّز مواليد اختلاط العرقين الأبيض والماوري في زيلندة الجديدة بأحسن صفات العرقين . كما تشير الدراسات الى أن السلالات الناتجة عن الزواج المختلط بين البولونيزيين واليابانيين والفلبينيين والكوريين والبورتوريكيين والأوروبيين في جزائر هاواي تمتاز بنسبة خصوبة مرتفعة وصحة أمنع من القوميات الأخرى الموجودة هناك . [م ٤]

والولايات المتحدة نفسها مسرح لاختلاط الاجناس والعروق في الوقت الحاضر . ولقد أخفيت هذه الحقيقة ، التي حاول البعض ابرازها ، عن الرأي العام بخدعة تعتبر جميع البشر زنوجاً اذا وجد دم زنجي فيهم . بينما يمتلك ما يزيد عن ٨٠٪ من الزنوج الأمريكان دماً من العرق الأبيض أو الهندي الأحمر أو كليهما . [٨٥] .

أما جمال وجاذبية الخلاسين فنتركه للملايين من البشر ليقرروا ذلك وهم الذين انفقوا أموالاً طائلة ليشاهدوا « ليناهو » الممثلة الشهيرة وكاترين دنيم . أو نتركه للملايين الذين ينفقون الأموال الطائلة على شراء المساحيق والمركبات التي تضفي سمرة على بشرتهن أو بشرتهم ؛ أو يعرضون أجسامهم للشمس أو يغمى عليهم فرحاً إذا شاهدوا ممثلي السينما الذين لا يعتبرهم أجداد الاميريكيين منتمين إلى العرق الأبيض .

ربما كان الكثير من الخلاسيين دون آبائهم فعلاً ، ففي المجتمعات التي تحرم اختلاط العروق لا يخرق التحريم إلا من كان مصاباً بالقلق أو عدم الاستقرار أو اليأس أو الشهوانية المفرطة .

هناك مئات الأسباب التي تعتبرها الجماعات المختلفة أسباباً مستهجنة للتزاوج بين العروق المختلفة ، وهكذا فإن احتمال ظهور «سلالة» دونية تتناسب مع عدد هذه الأسباب . ولكن دونية السلالة لا تعود للأسس البيولوجية للاختلاط العنصري . فلو تزوج مثل هذا الفرد من امرأة من عرقه لما اختلفت الحال .

وعلاوة على ذلك فإن الخلاسيين في معظم أنحاء العالم منبوذون وموضع احتقار . وهذا بدوره يجعلهم عدائيين مخــادعين ثائرين ضد المجتمع مهما كانت الظروف . فالخلاسي يجــابه وراثة سيئة وبيئة غير مناسبة . ولكن الاختلاط العنصري لم يثبت ضرره بعد .

الفصل الرابع عشر

اليك الهندي المسكين

لقد اكتشف هؤلاء الذين قبضوا على فتاة سونجي المتوحشة أنها بيضاء بعد أن غسلوها ثلاثة مرات. ولقد دخلت المخلوقة الغريبة قرية سونجي التي تبعد اربعة أو خمسة فراسخ من مدينة شالون في مساء يوم من أيام تشرين عام ١٨٣١ ، فقضت على كلب يتبعها بذباحه بحركة صغيرة من خنصرها ثم التهمت أرنباً نيئاً ، ثم تملكها السبات في أعلى شجرة في القرية . (م ١٤٧)

ويعود حبور مكتشفيها لدى اكتشافهم لونها الى عثورهم على مبتغاهم . إنهم أرادوها أن تكون فتاة بيضاء توحشت. ولقد أشارت الى ذلك قذارتها المفرطة وتذبذبها بين القسوة والرقة ، كما أشارت الى ذلك بساطة غذائها ولباسها وقدراتها البدائية على الحديث. ولو لم يتلاش لونها الأسود لكي يظهر لونها الحقيقي لاعتبرت زنجية ضلت طريقها ، او فتاة من الأسكيمو تاهت عن موطنها أو حتى عفريتاً صغيراً . وإذا كان القبض على أي شيء من هذه الأشياء يضفي على القرية قدراً ، فان الإمساك بمتوحش حقيقي في بداية القرن الثامن عشر كان مدعاة للفخر حقاً .

كانت الحاجة ماسة لأطفال الطبيعة حينذاك . فكان الفلاسفة يدفعون أثماناً باهظة لهم بالأمس كما هو الأمر اليوم، ولذلك فقد فتحت معظم القرى اعينهـــا بحثاً عنهم . وقبل هذه الحادثة بجيل اكتشف طفل ربّته الدببة في لتوانيا ، كما اكتشف اثنان آخران في بولندا ، ولمح أطفال عنز « بشر » في البرنيز وهي تقفز من صخرة إلى اخرى . وفي كاننبرج في كانون ١٧١٥ أمسكت فتـــاة متوحشة « بشعة للغاية » وعارية تماماً الا « من فوطة صغيرة صنعتهـا من القش » . وكان جلدها قوياً خشناً أسمر لا يتأثر بالماء، ولكن سقط جلدها تماماً بعد القبض عليها « ونما لها جلد جديد » . (م ٢٠٨) .

كانت هذه الكائنات ، وعشرات غيرها ممـــا ألقي القبض عليه في العقود التالية من السنين ، تتمتع بعدد من الخواص المشتركة : كانت قويـــة ، قذرة ، قاسية انفعالية ، لا تلتزم بالقواعد الخلقية ، تأكل طعامهـا نيئـــاً ، احتقرت كماليات الحضارة ، وتتكلم بجمل قصيرة لاهثة تتألف من كلمات ذات مقطـع واحد (هذا إلى أن قام مديرو اعلاناتهم بتعليمهم اعطاء تصريحات للصحف) . كانت تميل إلى المرح بطريقة طفولية، وإذا منعت عن أي شيء تملكهـا الغضب والعبوس . كانت تعشق الحرية وتخلص لهـــا . وكانت تناضل ضد أي عـائق يعوق من حريتها الفردية كالثياب والجدران. وما ان تذكر المسيحية أمامها حتى تبدو لها صحتها بوضوح فتعتنقها بشوق وإيمان . فما إن ذكر اسم الله امام طفل لثوانيا الدب حتى رفع يديه وعينيه الى السماء في عبادة خرساء بينما خلعت فتاة سونجي فوطتها وارتدت مسوح الراهبات .

هكذا كان المتوحش قبل قرنين مضيا . إن حياة الانسان في حالته الطبيعية حيـــاة وحدة وقسوة وشراسة ، وهي لذلك كله قصيرة الأمد ، هكذا يرى الفيلسوف هوبز الذي سادت آراؤه في القرن الثامن عشر . ولكن هـذا الرأي لم يسد تماماً على الرأي المنافس له، والذي يساويه في صعوبة الاثبات ؛ وذلك هو الرأي القائل بأن حياة الانسان في الطبيعة الأولى بقـــايا من عصر ذهبي تسوده البراءة والسحر واليسر .

وعندما تقدم العصر أخذ مدّ النظرة الرومانسية بالارتفاع ، وكسف الوحش النبيل توأمه الوحش القذر . والوحش النبيل كان يقتات على فواكه الطبيعة ويشرب من حليب جوز الهند باسترخاء لذيذ ، ويجمع قواه لغايتين هما الحب والفكر العميق . ولكن هذه الصورة لم تدم طويلاً بعدما ظهر الفكر الاشتراكي وتهددت الملكية الفردية ، وقد أدرك الأثرياء أصحاب المزارع الشاسعة في البلاد المستعمرة ، حيث يعمل هؤلاء المتوحشون أو حيث يؤخذ عمال السخرة من قبائلهم ، الخطر الجاثم في هذه الاسطورة فقرروا ان المتوحشين أدنى مستوىً من البيض ، وان حالة العبودية التي يرسفون بظلها في هذه المزارع هي في الواقع مكسب للمتوحشين .

أما مفهوم المتوحش في الفكر المعاصر فيستمد جذوره من هاتين الصورتين معاً (من الجدير بالذكر أن أية مناقشة حول قضايا التميز العنصري تتلون بمفهوم المتوحش) . وهكذا فإن صورة المتوحش خليط من الصورتين، بل وتميل الى الجانب المظلم نوعاً ما . فالمتوحش حسب المعتقد المعاصر قذر بدنياً واخلاقياً يكسوه الشعر ، ينقصه التدين، غبي تعوزه القدرة على التفكير ، كما يتضمن اسمه المتوحش قاسٍ وكاسر وتتصاعد قسوته ووحشيته حتى تصل مرتبة أكل لحم البشر والتي تتعدى صيغة البشاعة الى صيغة الفكاهة .

ولكنه يُظن بأنه ذو صحة ممتازة، وله غرائز لا توجد عند أخيه المتمدن ، واذا كان يقطن (أو تقطن) في جزر المحيط الهادي، فله (أو لها) جمال جنسي أخاذ. له عضلات كاملة وأسنان بيض بديعة، ويتحمل الألم دون أن يرفّ له جفن كما تلد زوجاته الأطفال، بالسهولة التي تعصر فيها النواة من زيتونة ناضجة. وهو يعرف الكثير من الأدوية الطبيعية العجيبة التي يجهل كل شيء عنها أخوه المتحضر ، وهو يتنبأ بالطقس ويتمتع بمعجزة ايجاد طرقه وسبله .

إذا حققنا في صحة هذه الأوصاف ، وجدنا ان العكس هو الأقرب للصحة سواء أكان الوصف مدحاً أو قدحاً في حق هؤلاء المتوحشين .

أما من حيث جسمه فهو على العموم أخف وزناً من الانسان المتمدن حيث

أن علماء الانثروبولوجي يأخذون أي دلائل على وجود عضلات ضخمة في أي هيكل عضمي يعثرون عليه كاثبات بأن الهيكل العظمي لا يعود الى مجموعة من البشر البدائي . وهذا لا يعني أن الانسان البدائي مترهل البدن ؛ بل ان طبيعة حياة البدائي لا تؤدي الى ظهور العضلات المتضخمة . فالبدائيون لا يقومون بالأعمال اليدوية المتعبة، ولا يأخذون من الرياضة ما يضخم العضلات. وعلاوة على كل ذلك ، فإن الانسان البدائي ينوء بامراض سوء التغذية ، كما يصاب بالأمراض التي تضعف طاقاته . (م ٩٢ ص ١٨٩) .

ولقد ظهر في مجلة التايم هذا المفهوم بشكل واضح عندما ناقشت مشكلة جنود الحلفاء في المحيط الهادي ، فأشارت « ان الرجل الأبيض بمعدته المتحضرة وانعدام مقاومته للديدان الحلقية والملاريا ومختلف الأمراض المشابهة ، كان في وضع لا يحسد عليه بالمقارنة لأهل البلاد الأصليين الذين تعلموا عبر القرون أن خير لباس هو العري ، وخير حذاء هو الحفاء ، وخير الأرزاق ما ينمو في الغابة » . ولكن سرعان ما ردّ عليهم أحد الضباط المحنكين الذين صادفهم سوء الحظ فقضوا سنين في تلك الربوع فقال « بالمقارنة إلى جيوش الحلفاء غير المتأقلمة يصاب السكان الأصليون بالملاريا بنسبة أكبر لعدم اكتسائهم بعد الغروب ، ويصابون بالديدان الحلقية بنسبة أكبر لأنهم يسيرون حفاة الأقدام وتنقصهم المناعة ضد السل وذات الرئة والأمراض الأخرى لسوء تغذيتهم » .
(م ٣١٩ ص ٩)

إن تحمل المتوحش سوء حظه بصبر ، قد يكون حقيقة ، إذ يفعل ذلك معظم البشر . ولقد أشار ثورو الى أن حياة الانسان العادي في كل مكان تتميز « باستكانة اليأس » . فإذا كان للمتوحش قدرات تفوق تلك التي يمتلكها بقية البشر ، فإنه أمر يدعو الى الشك حقاً . إن البشر أصلب مما كان يظن في الماضي. فما كان يعتقد من الاعجاز في الصلابة في الماضي ، يبدو اليوم بالنسبة للفكر المعاصر شيئاً اعتيادياً . يقول لنا الدكتور دفيز في عام ١٩٣٨ أنه لا يتوقع أن يصدقه أحد عندما يروي ما حدث : أجرى عملية على مريض في الكونغو

وإذا به ينهض ويترك المستشفى ليسير بضعة أميال الى قريته دون أن يصاحب ذلك أي آثار سيئة (م ٤٤ ، ص ١٥). ولكن ذلك لا يثير الاستغراب اليوم. ففي المستشفيات الحديثة ، يطلب من المرضى القيام والسير قليلاً ؛ إذ إن الدلائل المجتمعة تشير الى أن ذلك أفضل من أن يبقى المريض في سريره .

أما ان البدائيين لا يصابون بتسوس الأسنان فأمر يصرّ عليه الكثيرون ، ويعللون ذلك على أساس انهم ليسوا مدللين بالأطعمة اللينة . وهكذا قيل قبل مائتي عام، حينما لم تكن طبخات اليوم الرخوة شائعة ، قيل لنا إن فتاة سونجي الآنفة الذكر فقدت كل أسنانها عندما كفت عن تناول الضفادع النيئة طعامها المعتاد . (م ٢٠٨ ص ٢٥٥) .

إن هذا الأمر لم يبحث علمياً ؛ ولكن هنالك دلائل تشير بأن الأقوام البدائية المعاصرة تعاني من تسوس الأسنان . يقول لنا الدكتور دفيز إن الأسنان السليمة في الكونغو كانت هي الشذوذ بعينه (م ٤٤ ص ١٤٠) . أما جمجمة انسان روديسيا الغامض والتي تعود للعصر الحجري القديم فقد تميزت بعشر أسنان متسوسة . هذا وقد وجد من الحيوانات المتوحشة كثير مما عانى من تسوس الأسنان . يقول بولنجر إن تسوس الأسنان بين الحيوانات الكاسرة من أشيع أسباب الوفاة (م ٢٠ ص ٨٥) . كما يشير برادلي الى هيكل عظمي عثر عليه لأحد الخيول ذوات الثلاثة اظلاف ، والتي انقرضت منذ زمن بعيد ، فقد وجدت أدلة تشير إلى انها كانت مصابة بمرض البيوريا (أحد أمراض الأسنان) . (م ٢١)

أما الرأي القائل بأن النساء البدائيات يلدن بأسهل مما تلد المتمدنات فليس أفضل حظاً من المعتقدات الأخرى المارة الذكر . فعندما يقول لنا ريتشارد ليكون في كتابه « تاريخ جزر باربودوس الحقيقي والصحيح » ١٦٥٧ — لربما كان ذلك كتعنيف لأمهات أوربا الرقيقات — أن عبدته الهندية يريكو عندما جاءها المخاض استأذنت بأدب لبضعة دقائق ، وولدت طفلاً صحيح البدن ، غسلته في جدول قريب ثم استمرت في عملها في البيت كخادمة كأن شيئاً لم يحدث.

ولكن نساء اليوم لسن بحاجة للحسرة على عبيد الأمس إذ قد لا يوجدن إلا في مخيلات مؤرخي « الحقيقة والدقة » . ان تجارب اليوم وبحث العلم المعاصر لم يجد مثل هذه الحالات بكثرة وقد سجل ستفنسن : أن اهم أسباب الوفاة بين نساء الأسكيمو هو الولادة . ووجد هركوفتس ان الولادة من الامور التي تثير الرعب بين نساء داهومي . كما صرح ديفز بأنه لم يجد ولادة نساء الكونغو أسهل من مثيلاتهن في العالم المتحضر. وهكذا يتفق معهم شاينفلدومردوخ وبلوس وبارتلز وكثيرون غيرهم . (م ١٧٣ ، م ٤٤ ، م ٨٦ ، م ١٥٤ ، م ١٤٣) .

أما حاسة الاتجاه « السادسة » التي يعتقد بان المتوحشين يمتلكونها فقد أسندها الكثير من « المتضلعين » فيشير كاورد في كتابه حول هجرة الطيور إلى ان هذه الحاسة تبدو بوضوح لدى هؤلاء الذين نطلق عليهم اسم المتوحشين . اولاء الذين يعيشون بتماس مع الطبيعة بينما تختفي لدى هؤلاء « المنحطين » الذين يسافرون بالقطار والسيارة . (م ٤٠) .

من الواضح ان السيد كاورد لم يحاول أن يقود عربته في مدن اليوم المكتظة وطرقاتها المعقدة ولكن لا بأس فهو يعبر عن رأي شائع جداً .

شائع ولكنه خاطىء . فنحن اذا اعتمدنا على تقارير هؤلاء الذين قضوا زمناً طويلاً بين البدائيين في غاباتهم وبراريهم ؛ لوجدنا بان المتوحش كأي شخص آخر يعتمد على الملاحظة والعلائم والأدلة . والفرق الوحيد هو انه على معرفة أفضل بالمنطقة التي يقطنها اذا قورن بالزائر الغريب . فهو يستفيد من اشارات ومعالم معينة كالصخور والأشجار وقمم التلال والسواحل بنفس الطريقة التي يتعرف فيها زائره على منطقته بالبيوت المختلفة والدكاكين والتي قد تبدو متشابهة تماماً للمتوحش إذا تملكه الجنون يوماً ما وجاء ليكتشف مجاهل المدن . ولكن ما ان تأخذه بعيداً عن منطقته التي الفها ، كما يقول ستفنسن ، حتى تجد بأنه ليس أفضل من قرينه الأبيض، بل بالحقيقة أسوأ بكثير، لأنه لا يمتلك مفاهيم كالمثلثات والأقواس التي تسهل معرفة الأماكن وتقدير المواقف . (م ١٧٣) .

وبنفس الطريقة فان قدرة المتوحش الغامضة على التنبؤ بالفصول وتقدير

الحصاد عندما تكون أفضل من الحذر فهي تستند على استنتاجات مستمدة من ملاحظات معينة . فالفلاح في أي مكان في العالم يستطيع أن يتنبأ بأنه سيفقد أرضه المرهونة بعد ثلاثة أعوام من الجفاف. وليس هذا بالتنبؤ السحري، فعندما كان درايبرك يعيش مع قبائل الددنكا وتنبأ بأن الحصاد سيكون وفيراً بسبب الأمطار الكثيرة دهش عندما تنبأ القبليون بالعكس. وكان دهشته أعظم عندما ثبت له انهم كانوا على حق . ولكنهم طمأنوه بأنهم يعلمون بأن الأمطار الغزيرة تغرق النحل الذي يعتمدون عليه لتلقيح انتاجهم . (م ٥٢) .

ان هذه القوة الغيبية التي تنسب للمتوحش – وهذا من نافلة القول – تنسب لغرض اثبات دونية المتوحشين وانحطاطهم بالنسبة للرجل الأبيض . فهذه القوة الغيبية قد تؤدي إلى امتياز مؤقت ولكن في المدى البعيد تكون الغلبة للمنطق والعقل والتخطيط . وهكذا فان دونية العقل البدائي نتيجة لا مناص منها .

لقد تمت محاولات عدة لقياس الذكاء المقارن بين الشعوب المختلفة، ولكن لم تؤخذ النتائج بنظر الاعتبار لاستحالة انشاء مقياس عقلي يمكن ان يعتبر أساساً عادلاً في المقارنة . فالذكاء مفهوم حضاري وهو لذلك يرتبط بالعوامل الحضارية المعقدة ، ولم يتوصل علماء النفس إلى ابتكار مقياس عقلي خالٍ من العوامل الحضارية. ولكن النتائج العلمية التي يشير اليها علماء الأنثروبولوجي تدل على انعدام الفروق في الذكاء بين الشعوب المختلفة .

وتتعقد المشكلة ، أو على الأصح تصبح دون جدوى ، عندما نعلم بأن تعريف الحضارة والتوحش ليسا إلا مفاهيم مدح وقدح، وليس هنالك قياس موضوعي يحدد معطياتهما . وهكذا يشير مينل « ان كل الأجانب أغبياء » وهذه الملاحظة قد تثير ابتسامتنا ولكنها تقترب من شعور شامل يحس به الكل إن لم يقولوه .

انه لما يدعو إلى الأسف حقاً أن نجد عقولاً مدربة يغلفها التحيز . يسرد لنا المؤرخ برسكوت في فصله الرابع عن غزو المكسيك عن « منجزات الأزتيك البرابرة » فقد ابتكروا تقويماً سنوياً أفضل من التقويم الاوربي وأدق بأحد عشر

يوماً . كما يعترف في الفصل التالي ان نظام الأزتيك الغذائي أفضل من غـذاء غزاتهم الاسبان، كما ان معرفتهم الطبية تفوق تلك التي توصل اليها الاسبان . أمـا مصنوعاتهم الفضية والذهبية فهي تحف فنية رائعة ولكن لا يـدور بخلده ولو للحظة واحدة ان الاسبان كانوا هم البرابرة والأزتيك هم المتحضرون، وان تفوق الاسبان الوحيد كان في شراستهم وبارودهم .

وهؤلاء المحدثون الذين يشاركون برسكوت في وجهة نظره والذين يرون ان المشكلة تحتمل النقاش، يسندون وجهة نظرهم بالقول بأن المتوحشين تعوزهم القدرة على النطق فيتكلمون مقاطع بسيطة خالية من القواعد . انهم قذرون ، كفار ، وقساة . وكتتويج لكل هذه الاتهامات ... انهم يأكلون المبشرين .

لقد كان الاعتقاد سائداً ان المتوحشين لا يملكون أية لغة اطلاقاً . فعندمـا يتحدث الناس عن الهنود الحمر يشيرون إلى لغتهم بانها ليست سوى مجموعة أفعال كلها في الحاضر ومجموعة من التنحنحات والسعال المتقطع . ولقد اعتبر الاغريق ان كل من لا يتكلم اليونانية لا يفعل سوى الترديد بشكل غبيّ أصوات « بار ــ بار » وهكذا اطلقوا عليهم اسم الـبرابرة . وكلمة الهوتنتوت تعني في اللغـة الهولندية الفأفأة والتأتأة. وهـذا يعكس الاعتقاد السائد بين الرحالة الهولنديين الأوائل في جنوب أفريقيـا بأن الزنوج في تلك المنطقـة (جنوب افريقيا) لا يتكلمون بل يحاولون الكلام . ولقد غمر المرح مختلف المجتمعات وهي تسرد القصص المضحكة عن المتوحشين الذين يحاولون التفاهم مـع المتمدنين . ولكن لم يدر بخلد أي واحد من ساردي هذه القصص ان المتوحش هو اللغوي اذ انـه يحاول ، مهما كانت درجة سوء محاولته ، أن يتكلم بلغـة المتمدن وأنه ــ أي المتوحش ــ هو الذي يمتلك الدافع والذكاء لأن يحاول تعلم لغة أجنبية . قد يبدو الأمر له مضحكا حقـاً ولكن ماذا يفعل إذا كان المتمدن لا يفهم إلا هـذا الكلام ؟

أما بين قومه فيتحدث المتوحش بلغة بالغة التعقيد بأفعال متباينة ذات صيغ متباينة وتصريفات وقواعد وتأنيثات وتذكيرات . يقول ستفنسن : انـه من

الممكن أن يُصرّفَ فعل واحد في لغة الأسكيمو إلى عشرة آلاف صيغة (م ١٧٢ ص ٣٥٧) .

ويعتقد درايبرج ان لغة الددينكا تحتوي على مفردات تفوق في عددها مفردات اللغة الانكليزية . كما ينفي القول الشائع بأن المتوحشين لا يستطيعون استعمال التجريدات . ففي كل لغات البانتو ، ويُعطي أمثلة موضحة على ذلك ، هناك أصناف متعددة من الكلمات تعالج التجريد . (م ٥٢ ، ص ٦٦ — ٧١) .

ويميل البدائيون إلى الدقة في التعبير . فإذا قال الرجل الأبيض انه يسمع كلباً ينبح ، يقول الهندي الأحمر من قبيلة داكوتا انه يسمع كلباً بنياً يبعد حوالي المئتي ياردة ، يركض في اتجاه شمالي شرقي وهو ينبح بصوت عالٍ . إن الرجل الأبيض ليعتقد في مثل هذه الحالة ان الهندي الأحمر يبالغ في دقته ولكن الهندي الأحمر يعتقد بأن الرجل الأبيض يتكلم بغموض .

أما قذارة الشعوب البدائية فيحدثنا عنها السواح الذين سنحت لهم الفرصة لأن يزوروا هؤلاء الذين أخرجوا من مواطنهم فأصبحوا متسولين في مخيمات يناصبهم فيها أهل المنطقة العداء . ان هؤلاء يسكنون الأكواخ Slums وإذا حكمنا على الحضارة الأمريكية من مناطق السكن المتدهورة حيث يعيش عشرون شخصاً في غرفة واحدة مثل الجهة الشرقية من نيويورك وغربي شارع ماديسون في شيكاغو ، وعلى الحضارة البريطانية من قطاع بثنال كرين في لندن حيث يقيم مئات الملايين من « المتمدنين » الذين يعيشون في ظروف أقذر بكثير من أي متوحش معروف ، أدركنا أن أولئك البدائيين أنظف من المتمدنين .

والذين أتيحت لهم الفرصة في العيش مع أقوام بدائية ذات حضارات لم يمسسها الغرب يجمعون على الحكم عليهم بالنظافة . يشير مالينوفسكي إلى أن أهل ملانيزيا حساسون جداً لروائح أجسامهم . ووجد أن الاختلاط بمجموعة منهم أطيب الى النفس من الاختلاط بمجموعة من الاوربيين في هذا الصدد (م ١٠٨) . أما أليك وغ (م ١٨٩ ص ٢٢٤) فيقول عن جزر الهبرديز الجديدة « إن

مستوطني هذه الجزر كانوا يعيشون في حـــالة التوحش ، وكانت حياتهم عملية ونظيفة شأنها شأن أحوال المتوحشين دائماً ، كما أعتقد » .

هذا ويحتقر الرجل الأبيض البشر الذين يكسوهم الشعر، ويرى فيذلك دليلاً على انخفاض مستواهم في سلم التطور . ولكن ذلك يدعو الى الأسف إذ يكسو الشعر جسم الرجل الأبيض كما لا يكسو أي عرق آخر . وليس بـين ما يطلق عليهم اسم الأقوام المتوحشة سوى قوم آينوس في اليـابان الذين يكسوهم الشعر والذين يعجبون بالشعر الى درجـــة تدعو نسائهم أن يرسمن بالوشم شوارب على شفاههن العليا . هذا وللعلم فقط ، ينتمي الآينوس إلى العرق الأبيض أكثر من انتمائهم الى العرق الأصفر . وبدلاً من أن يكون المتوحشون كفاراً غير متدينين، كانوا في الواقع على العكس يبالغون في التدين ويتطرفون في العبادة . وإن عدنا الى الحقيقـة فإن « افضلية » التمدن هو أن الفرد المتمدن أقل التزامـــاً بالخلق من المتوحش !!

لا يعتبر المتوحشون طبعـــاً دون دين فيعترف الناس بشكل غامض أنهم يسجدون لبعض الأصنام الخشبية والحجرية بطريقة بربرية ولكنهم لا يتدينون « حقاً » كما يفعل رواد الكنائس المتمدنين . يقول الشاعر كبلنج « لم تعـد تهتم باصنامها ، عندما َقبّلتُها حيث كانت واقفة ، على الطريق الى مندلي». وهكذا يخبرنا السيد كبلنج أن آلهة هـذه الفتاة لا تستطيع أن تنافس قبـــلة الجندي البريطاني في قلب عذراء المتوحشين !!

ولكن بالرغم منأن البحوثالعلمية لم تجْرَ فيهذا الصدد نستطيع أن نفترض انها تستطيع فعلاً أن تتنافس مع قبلته . إذ ان المتوحشين متدينون بايمان شديد ولهم الكثير من الخرافات والمحرمات ، كما يعطون هـــذه المحرمات الكثير من الأهمية . ويشير ستفنسن الى الأمر كبديهية فيقول « كلما هبطت في سلم التمدن وجدت التدين أَشدَّ صرامة » .

ولكي ينور هؤلاء الذين يؤمنون ايماناً عابراً بالدين يسرد لنا عدداً ضئيلاً من المحرمات الدينية بين قبائل الأسكيمو التي تتعلق بأكل أضلاع الغنم فقط فيقول

« تستطيع الفتاة الصغيرة أن تأكل أضلاعاً معينة . وعندما تكبر قليلاً تستطيع أن تأكل أضلاعاً أخرى . وعندما تصبح امرأة فيجب عليها أن تمتنع عن أكل الاضلاع التي سمح لها أن تأكلها حتى ذلك الحين . وبعد أن تلد طفلها الأول تستطيع أن تأكل اضلاعاً اخرى وبعد طفلها الثاني تستطيع ان تأكل اضلاعاً أخرى . ولا تستطيع أن تأكل كل الأضلاع إلا بعد ان تلد طفلها الخامس . ولكن حتى في ذلك الحين يجب أن لا تمس الأغشية التي بين الأضلاع . وإذا مرض ابن اخيها فيجب أن تمتنع عن أجزاء معينة ، وإذا مات زوج اخيها يجب أن تمتنع عن أجزاء اخرى. وهناك محرمات اخرى تتعلق باضلاع الغنم من حيث صحة اطفالها وصحة اقربائها ، كما تعتمد هذه المحرمات على الشخص الذي قام بذبح الشاة . فإن كانت هي التي قامت بذبحها ، فالمحرمات تختلف عما إذا قام بذبحها شخص آخر . كما تعتمد على كون الذبيحة ذكراً أو أنثى » . (م ١٧٢ ص ٤١٠ — ٤١١) .

وإذا كانت هذه المحرمات مما لا يستطيع الرضوخ اليه الرجل المتمدن فيعتبرها مزعجات مثقلات ، فإن الاسكيمو كانوا على العكس يعتبرونها فرصة لإثبات فضيلتهم . كما يعتبرون هؤلاء الذين يعرفون محرمات أخرى أناساً يتمتعون بقدسية خاصة .

إن وحشية ، المتوحش مثل خنزة الخنزير ، جلية لكل من يقبل الكلمات كحقائق. ولقد أشار أستبروك مثلاً الى ان المتوحشين يستسلمون بيسر للضوضاء والفوضى (م ٥٩ ص ٥١) ، ولكنه تجاهل سلوك المتمدنين لدى توقف حركة المرور لازدحام الشوارع ، كما تجاهل سلوك الزوجات وهن يتدافعن أمام المخازن التي تعلن التنزيلات في الأسعار . ويشير البرفسور هوتن بغموض الى ان « المتوحشين هم الذين يدل عليهم اسمهم » (م ٨٩) .

ولكن الكثير من العلماء لايتفقون مع هذا الرأي، فقد وجد ستفنسن قبائل الأسكيمو في مضايق يونين الذين يعيشون في العصر الحجري القديم المعاصر ، وجدهم طيبين رقيقين وهو يقول « من الصعب ان تجد من يساويهم في الرقة

والعطف في أيّ درجة من درجات مجتمعنا » (م ١٧٢) . كما وجد مالينوفسكي في الجانب الآخر من العالم قبائل التروبرياند في درجة من المسالمة تبعث على السرور حقاً . فلم يشاهد مطلقاً أيّ شجار فيما بينهم كما لم يسمع كلمة نابية . أما العراك بالأيدي بين الزوجات والأزواج فكان شيئاً لا يخطر على بالهم مطلقاً. ولذلك استنتج بأن ضرب الزوجات هو نتاج للحضارة الحديثة وليس بجزء من تصرف البدائيين (م ١٠٨) .

وقد يُستَمَدّ مثل هذا الاستنتاج من تجربة محدودة في الحقل والبيت ، فهنالك أدلة بأن أكواخ البدائيين لا تنجو من الخلاف العائلي كما لا تخلو منها القصور . ولكن النساء البدائيات في كل مكان تقريباً يتمتعن بمركز اجتماعي مرموق ذي حصانات وامتيازات لا تزال اخواتهن المتمدنات يناضلن من أجلها بالرغم من ادعاءات الرجل المتحضر الفارغة بالفروسية . ويستمر اخوة النساء البدائيات وآباؤهن في دورهم بمثابة الحماة لهن حتى بعد الزواج . وما « سعر الزوجة » عملياً سوى رهن مادي يضعه الزوج كتأمين يضمن سلامة سلوكه بعد الزواج . فإذا غضبت الزوجة وعادت الى أهلها يبقى ثمنها ولن يعاد إلا اذا أثبت الزوج بأن الشقاق كان من صنعها . هذا وقد لا تحتاج الزوجة التي أسيء إليها أن تذهب الى دار اهلها . يقول شاينفيلد عن زوجة من قبيلة الايبو من نيجيريا انها قامت باقناع كافة زوجات القرية بالاضراب لأن زوجها انتقد طبخها ، وهكذا اضطر الزوج المدقق في طعامه الى الانصياع لضغط اصدقائه ومنذ ذلك الحين استمر في ابتلاع وجبات طعامه بصمت صبور متقزز . (م ١٥٤ ص ٣٤٠) .

أما فيما يخص ضرب الاطفال فيبدو أن الانسان المتمدن يفوق قرينه المتوحش بكثير . يقول دفيس أن شعب الكونغو يميل الى « تدليل اطفاله ولا اذكر أني رأيت كنغولياً يضرب طفلاً بالعصا » (م ٤٤ ص ٢٢٤) . ولقد اسند هذا الرأي العديد من المستكشفين والمبشرين في كل أصقاع العالم . وهذا لا يعني أن اطفال المتوحشين لا ينالون عقاباً ، بل يعني أن القسوة المتناهية التي تنتهي احياناً

بالقتل والتي يفرضهـــا المتمدنون على أطفالهم التعساء، تقل كثيراً عن ذلك بـين المتوحشين . ولقد قال المدافعون عن طريقة حياتنا بأن أطفال المتوحشين أكثر قيمة بالنسبة لهم من أطفالنا بالنسبة لنا . ولكن هـذا الدفاع أقبح من الذنب الذي وضع لتبريره وما هو إلا لعنة على حضارتنا .

ولقد أرعبت المبشرين « بذاءة » المتوحشين . ولكن تسعة أعشار هـــذه « البذاءة » هي في الواقع صراحة . تلك الصراحة التي كانت غريبـة عن مجتمع المبشرين إلى درجة انهم لم يستطيعوا التعرف عليها عندما التقوا بها. فلقد انفصمت التسلية في الفكر المعاصر عن فكرة إنجاب الأطفال وهكـذا فعندما شاهـــد المبشرون اللذة الواضحة في رقصات الخصب البدائية صدمهم هذا الاقتران بين إنجاب النسل واللذة فعمموا الأمر تعميماً خاطئاً .

ولكن الملاحظات الموضوعية التي تلت هذه الاحكام السريعـة دلت على أن المتوحش لا يفكر في الجنس دائماً، بل يأخذ الصيد والغزو والتجارة والعبـــادة الكثير من وقته . وإذا كانت رقصات خصوبته دليلاً على شيء، فلربما تكون دليلاً على الصعوبة التي يجابهها في تهيّج نفسه جنسياً . وإذا كان المتوحش يرقص رقصات الخصوبة الجنسية الطابع فما هذه الرقصات إلا جزء من مجمل رقصاتـه التي تتعلق بالصيد والدين والقتال والشجاعة ... الخ .. أما في المجتمع الغربي ، كما أشارت لجنة الكونغرس الأمريكية عام ١٩٤٣ في قضية جون بوفنكدون ، فليس ثمة رقصة أمريكية سوى الرقص الخدُ بالخدِ . وأي رقصة اخرى تشكل جزءاً من النشاط اللاأمريكي . فان يرقص الأمريكي ، حسب تعريف هـــذه اللجنة ، أية رقصة لا يلتقي فيها الخدان يمنع حالاً من تسنم المناصب الحكومية . (م ٣٠٨ ص ١٨ ، م ٣٠٩ ص ١٩ ، م ٢٥٠ ص ٢١٣ ، م ٢٦٩) ، (م ٢٧٠ ، م ٢٧١ ، م ٢٧٢) .

ولكن حتى الجنس بين المتوحشين لا ينتج من الإثارة ما تنتجه مشكلة أكل لحوم البشر . ففي الذهنية الشعبية كل متوحش هو من أكلة لحوم البشر ، وهـذا بالنسبة لهم دليل ناصع على انعدام الدين بين المتوحشين عـــلاوة على قـذارتهم

وشراستهم .

ويعتبر أكل لحوم البشر اليوم محصوراً بالزنوج. ولكن كانوا يظنون في الماضي ان هناك شعوباً اخرى تقوم بهذه الفعالية نفسها فيقول القديس جروم : كانت هناك فصيلة من الجيش الاسكتلندي الملحقة بالجيش الروماني رآها رؤية العين لم تكن لتأكل شيئاً سوى لحم البشر . كما يقول بأن هؤلاء الاسكتلنديين يمتازون بأربعة صفوف من الأسنان صفين في الفك الأعلى وصفين في الفك الأسفل . وذلك ليستطيعوا مضغ لحم البشر . (٧٣ ص ٤٠٧) .

ويرسم لنا « أوجلبي » صورة حية للهنود وهم يبيعون نساء الأزتيك كوارع البشر وأضلاعهم وشرائح من لحم أفخاذهم وأحشائهم (م ١٣٧ ص ٨٧) ، بينما يصرح الملك « رابا » أحد ملوك الددنجا في أفريقيا لدرايبرج بأنه من المعروف جيداً لكل الناس ان الاوربين يأكلون لحوم البشر . (م ٥٢) .

ولقد أدخل القرن التاسع عشر ما يمكن أن يدعى بالعصر الذهبي لأكل لحوم البشر . إذ كان أكلة لحوم البشر حتى ذلك الحين من النوادر التي لا يصادفها إلا من كان رحالة ضليعاً . ولكنهم الآن أصبحوا فرجة لكل صحفي يأخذ عطلة في نهاية الاسبوع ليتمتع بمشاهدتهم فيخبرنا ستانلي ان حوض الكونغو وحده يحتوي ثلاثين مليوناً من أكلة لحوم البشر . ولكن الاحصائيات الأخيرة تشير إلى ان نفوس أهل الكونغو هم خمسة عشر مليوناً فقط !! ولا بد ان نصفهم قد أكل النصف الآخر !! كما أشار شونفورث الى ان الهدف الأساسي من تجارة الرقيق في الكونغو ، تجهيز لحم البشر للمستهلكين ؛ وأضاف بأن المقترين منهم كانوا يستعملون الشحم للاضاءة . ولم تكن القارة المظلمة وحيدة بقصص الرعب هذه فيشير كارل لمبهولتز إلى ان قبيلة الماوري في زيلندا الجديدة كانت تذبح ألف ضحية بشرية لكل حفلة تطبخ فيها الجثث في أفران تحت الأرض . (م ٧٣ ص ٤٠٧) .

ولقد أثار المرحوم سيبروك الالوف بقصصه الممتعة عن « أكلة لحوم البشر الذين يحترمون أنفسهم ... ويتمتعون بشهية طيبة ، وضمائر مستريحة . »

والذين يجلسون حول مائدة تحمل أصنافاً من لحوم البشر « لأنهم يعتقدون انه لحم لذيذ » . ولقد قام هو نفسه كما يخبرنا بالجلوس إلى مائدة من هذا القبيل توفرت فيها شرائح الروست البشري علاوة على المقليات والمشويات . ولكي ينورنا أكثر يقول : إن طعمه يشبه لحم البقر الناضج . ولسوء حظ العلم لم يستطع أن يخبرنا عن موعد ومكان حفلة العشاء هذه خوفاً من الشرطة . كما غمره الكرم وحسن الضيافة فلم ينشر اسم مضيفه . انه لا يخبرنا بأنه رأى الشرائح تقتطع من جثة رجل مقتول، وقد يكون امتناعه عن ذكر ذلك أدباً ولياقة. أو لربما قدم اليه جزء من شريحة مقددة أو محفوظة لأنه يخبرنا انهم يقومون بحفظ اللحم الفائض بالملح والدخان لأيام الجوع لدى السلام . (م ١٥٦) .

ليس هنالك ما يقف أمام هذه القصص سوى تجارب المسافرين الآخرين الذين قنعوا بقصص اقل إثارة وتجارب مملة . ان أكل لحوم البشر موجود فعلاً كما يبدو . فكل الحيوانات تأكل لحوم بعضها أحياناً والانسان لا يختلف عن بقية الحيوانات في هذه السبيل . وقد توجد بعض القبائل التي تحب لحم البشر لطعمه ولكن هذه المجاميع أندر من النادر وظهورها شاذ في التطور الاجتماعي . على ان أكل لحوم البشر هو في الواقع طقوس ومراسيم تشبه التناول في المسيحية . فعندما يؤكل العدو أو الصديق أو الإله يؤكل الجزء منه الذي يعتقد انه يحتوي فضائله فيؤكل قلب الشجاع وعين الحكيم لاكتساب فضائلهم. وهناك جذور لمثل هذه المعتقدات في عالمنا اليوم . فينصح المرء بأكل المخ ليصبح أكثر ذكاء وبأكل لسان الطير ليصبح أطلق لساناً ... الخ ..

ولكن هذه السفسطة التي يشير اليها سيبروك – طباخون ممتازون ووصفات طبخ خاصة وبهارات ومشهيات – لم يجدها كل من بحثوا هذه المواضيع . لربما كان الباحثون الآخرون منطوين على أنفسهم، أو لربما اعتبرهم المتوحشون مختلفين عنهم . ولكن الحالة التي تبدو محتملة في هذا الشأن ان الخاصرة التي رأى سيبروك المتوحشين يلمزونها كانت خاصرته هو ، فالمعروف ان الشعوب البدائية تتمتع بالكثير من روح النكتة .

الفصل الخامس عشر

اقصوصة مغطس الحمام

صدر في جريدة بريد المساء النيويوركية في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٨ مقال كتبه السيد « منكن » يسلي فيه نفسه بإحياء عيد مهمل . فقبل خمسة وسبعين عاماً من نشر هذا المقال ، كما ادعى ، قام رجل يدعى آدم ثومبسن ، وهو مضارب قطن مغامر في مدينة سنسناتي ، بوضع جسده العاري في أول مغطس صنع في أمريكا . ولقد أثار فعله هذا عاصفة هوجاء من الاحتجاج فلقد اعتبر الاستحمام تفنناً ، وتهديداً للصحة العامة والأخلاق . فعبرت الجمعيات الطبية عن استيائها . كما فرضت المجالس التشريعية ضرائب باهظة لكي تمنع هذه العادة من الانتشار. ثم قوبل وضع الرئيس « فلمور » حوض استحمام ، في البيت الأبيض، باستياء عام وشامل ولكن بالتدريج حذا الناس حذو الرئيس « فلمور » ؛ وان لم يصبح الاستحمام مزاولاً ولكنه اعتبر أمراً اعتيادياً .

ولقد أضاف هذا الكاتب بأن هذه القصة كلها نسيج مخطط له من السخافات ومعظمها ظاهر للعيان . ولكن الناس تلقفوا هذه القصة بشوق هائل وسرعان ما أصبحت قصة مقدسة من قصص التاريخ الأمريكي . فاستعملها الدجالون

كدليل على غباء الأطباء . واستعملها الأطبـــاء كدليل على التقـــدم العلمي . واستعملها صانعو المغاطس كدليل على بعد نظرهم . واستعملها المصلحون كدليل على قصر نظر الشعوب . واستفاد منهـا رؤساء التحرير كوسيلة لبيان سعـــة اطلاعهم . وظهرت القصة كجزء من تقارير الحكومة على انجازاتهـــا من أجل المصلحة العامة . وغدت جزءاً من المصادر الهامة في المكتبات العامة . كما رددها المفكرون الكبار ، وظهرت في المجلات الطبية العلميـــة ، واذيعت من مختلف محطات الاذاعة . (م ١٢١ ص ١٩٤ ، م ١٧٥ الفصل ٨ ، م ١٠٦ ص ٣٠٢ — ٣٠٩) .

ولما جاء عام ١٩٢٦ كتب « منكن » مرة ثانية بأنه استيقظ ضميره وأحب أن يكفر عن خطاياه ، وان النكتة التي ألفها ذهبت إلى أبعد مما كان يرمي لها ؛ واعترف بأن القصة كانت تلفيقاً اختلقه لكي ينذر الناس حتى لا يقبلوا ما يقرأون كحقائق دون مناقشة . ولقد نشرت اعترافه هذا ثلاثون جريدة يبلـــغ مجموع توزيعها أكثر من مئتين وخمسين مليون نسخة . ولكن نسيـج هذه القصة الأصلي لم يمت . ففي خلال شهر من كشف زيفها أعيد نشرها في نفس الجرائد التي حملت تكذيب مؤلفها . فلجأ منكن إلى نشر اعتراف ثانٍ حولها ، ولكن ذلك لم يجدِ فتيلاً . فقد اصبحت اسطورة حوض الغسيل مثلا عامياً لا يمكن أن تقف أمامه عقبة تافهة كالحقيقة . فإذا كان النواب قد أقسموا بأنها حقيقة واقعة ، ونسجها الواعظون في مواعظهم ، وأعـــاد أساتذة العلوم الاجتماعية كتابة مؤلفـــاتهم حتى تتضمنها ، فما هي الفرصة التي يجدها مهرج هزلي أمام كل هذه القوى ؟

وهكذا استمرت اسطورة المغطس ، فلا يمر اسبوع دون أن نسمعهـــا على المنبر أو نقرأها في الصحف . لقد حاول منكن مرتين اخريين أن يزيل الضرر الذي أحدثه ، فهوجم بأنه كاذب دجال يتدخل فيما لا يعنيه . وهكذا انسحب من هذا الصراع غير المتكافيء . واحتلت هذه القصة مكانها إلى جنب أساطير واشنطن ولنكولن ، بالرغم من ان أي بحث لا يستغرق أكثر من خمس دقائق في أية مكتبة محترمة ، يكفي لنقضها . ولكن القضية تعدت حدودها فلم تعد

المسألة قضية حقائق بل مسألة ايمان . ان أسباب هذه الظاهرة واضحة نوعاً ما. فهذه القصة ، مثل قصة كون « بيكون » قـد كتب روايات شكسبير ، تظهر سارد القصة بمظهر العارف ببواطن الامور دون الحاجة إلى الجهد اللازم لاكتساب المعرفة . كما انها كسبت للكثير نقداً سهلاً ، إذ وضعت كمادة جديدة في الكتب المدرسية ، وفي التعليقات الصحفية والاذاعية فلا سبيل لزوالها .

ولكن مثل هذه الفوائد لا تعلل حيوية هذه القصة بشكل وافٍ . فقد عاشت قصص أفضل حياة أقصر . ولا بد ان قصة المغطس تمس شيئاً عميقاً في التركيب الاجتماعي الحديث . فإذا فهمنا مسببات سرعة انتشارها ، استطعنا أن نفهم الكثير من الامور عن الأخطاء الفاحشة .

يكمن أحد العوامل الأساسية لنجاحها في أنها تسند الفرضية القائلة بأن للتقدم مقياساً ، ألا وهو ازدياد وسائل الراحة المادية . فقد ساد الاعتقاد بأن كافة المبتكرات الميكانيكية تتحسن تلقائياً كل عام، ولذلك فقد ابتاع الملايين من البشر مئات الملايين من السيارات الحديثة كل عام كما جددوا ثلاجاتهم وراديواتهم .. الخ ، دون حاجة فعلية إلى تغييرها . كل ذلك لكي يكتنز هؤلاء الذين ابتكروا هذا الوهم المزيد من المال .

وتتعدى هـذه المغالطة حدود الدوائر التجارية والصناعية ، فتُصْرَفُ الملايين على « تحسين » المدارس والجرائد والاذاعات . وهذا جزء لا يتجزأ من عملية رفع المعنويات البشرية ، التي صنعت منا ما نحن عليه الآن بسوآتنا وحسناتنا .

ولأسباب لربما استطاع المؤرخ الاجتماعي توضيحها ، أصبح المغطس رمزاً خاصاً لا للتقدم المادي فحسب ، بل للتقدم الروحي ايضاً . فإذا كانت النظافة من الإيمان سابقاً ، فقد أصبحت النظافة أفضل من الإيمان لاحقاً . وهكذا فما أن تتهم أي شخص بانه يسيء الى مغطس حمامه أمام المترفهين المتنعمين حتى تضعه دون مستوى الاعتبار . ولقد استعملت هذه النقطة ضد مشاريع الاسكان الحكومية باستمرار . فقد قيل انك إذا أنشأت داراً للفقراء وبنيت فيها حماماً

حديثاً ، فلن يستعملوا هذا الحمام للاستحمام بل ليضعوا فيه النفايات . أمـا إذا أشرت بأن هؤلاء لا يمتلكون من المواد ما يمكن أن يعتبر نفايات، اعتبرك هؤلاء تافهاً لا تعرف عما تتحدث . فمن المعروف ، بشكل قاطع وجـازم ، أن كل من يسكن في الدور الحكومية يضع النفايات في الحمام ، وهم بفعلهم هـذا يثبتون بأنهم لا يستحقون ما تنفقـه الدولة عليهم . بل اذا أنشأت الدولة الدور لهم ، فهي تشجعهم على الانحراف الخلقي . فقد وُزِنَ الفقراء في ميزان مغطس الحمام فوجدوا ناقصين .

وهكذا تتضح لنا نوعاً ما أسباب استمرار مزحة « منكين » . إن في هذه القصة مديحاً للمترفين ، فمن معطياتهـا ان المترفين لم يحصلوا على وسائل ترفهم باليسر ، بل ناضلوا من أجلها ، ولذلك فهم يستحقون مـا حصلوا عليه . فهم وحدهم دون غيرهم رواد الماء الساخن الجاري . إنهم أبطال السجاد السميك الفاخر والمناشف الثقيـلة . ولم يحصلوا على صابونهم المعطر إلا عن طريق تحمل المشاق وبعد النظر .

وهناك اسطورة مشابهة أقل انتشاراً ، بالرغم من أنهـا ناجحة نوعاً ما ، ويتوقع لها مستقبل زاهر ، تلك هي اسطورة المظلة واختراعها . تدّعي هـذه الأسطورة أن الذين اخترعوا المظلة واستعملوهـا ، قاسوا الأمرّين من استهزاء الجمهور بهم ومضايقاتهم لهم ، الى أن اقتنع الجمهور بفائدتهـا أخيراً . فتخبرنا إحدى شركات التأمين على الحياة في اعلان لها : كانت المظـلة دليل تخنث أول ظهورها حتى انتشرت بعد أن نصح الأطباء باستعمالهـا « للتخلص من الحميات ودمامل الأعـين والخوف من السقوط من الأماكن الشاهقة » . وتضيف دائرة المعارف البريطانية ، والتي يبدو انها استمدت معلوماتهـا من « قاموس تاريخ الحياة القومي » ، كان أول من اعتاد استعمال المظلة هو السيد « جوناس هانوي » الذي عاش ليرى نصره على كل سائقي العربات الذين ضايقوه وأطلقوا صيحـات الاستهزاء به . (م ٢٤٤ ص ٢) .

وهنا أيضاً ، تظهر فكرة تمجيد الرفاهية ، حيث يوحى لنـا ، بأن البحث

عن الرفاهية والراحة يتطلب شجاعـــة لا تتوفر لدى الجميع . فإذا تملك الذين أمّنوا على حياتهم شعور بالخوف أو الجبن أمام الحياة ، فلهم أن يستمدوا الراحة من تقاليدهم البطولية . فهم من الروّاد ... رواد التأمين على الحياة .

ولكن الخطأ في هذا التشبيه يكمن في انه قائم أصلاً على الخطأ . فقد كانت المظلات شائعة لما ينوف عن قرن ونصف من الزمن الذي عاش فيـــه « جوناس هانوي » هذا (م ٣٣٠ ، م ٣٢٨) . حيث كان ينظر الى حاملي المظلات نفس النظرة التي تلقى عليهم الآن ، ألا وهي الحسد لدى سقوط المطر ، والاستخفاف لدى الصحو .

ولكن الأخطاء وحدها لا تصنع الأخطاء الفاحشة . إنها نقطـة الانطلاق فحسب . فالمغالطات دائماً نتاج لعمليات معينة في تفكير الناس . انهم يعبدون المصادفات، ويأخذون البلاغة كحقيقة واقعة دون الشك في الفرضيات الأساسية التي تصنع التحـيّز . وهناك قبـــل كل شيء ؛ الإعجـاب بالرومانسي لغرض الاعجاب بالرومانسي . وما أن يخلق الخطأ حتى يعيش وينمو بفضل التأثيرات الفكرية الراهنة ، والقوى الاجتماعية ؛ التي إذا أخذت بشكل سطحي ، تبدو وكأنها ليست على علاقة بالموضوع .

إن المنطق الشعبي منطق غريب . فإذا كان العقل المدرّب لا يضع ثقتــه إلا بالأدلة المقبولة، ولا يطلق الاستنتاجات والاحتمالات إلا من الحقائق المثبتة ، فإن العقل غير المدرب يؤكد على أن الفرضية صحيحة حتى يتم إثبـــات عكسها ، فالقول : « إنك لا تستطيع إثبات خطأ فرضيتي » يشكل خاتمة الجدل المنطقي حول أي مشكلة بفوز قائلها . كأنما عليك أن تقدم قطعة من القمر للتحليل الكيميائي لتثبت بأن القمر ليس مصنوعاً من الجبن الأخضر .

يعتبر الجدل عن طريق التشبيهات – أي الاستنتاج الى درجـــة أعلى من التشابـــه الملحوظ – أخطر الهفوات في التفكير . ولقد قاد هذا التفكير في الماضي ، في الطب مثلاً ، الى نظرية التشبيهـات . فوصف لبّ الجوز لأمراض الدماغ ، لأن لبّ الجوز يشبه شكلاً مصغراً للدماغ . كما وصفت رئات الثعالب

للذين يعانون من صعوبات التنفس ، لأن الثعالب حسب اعتقادهم تتمتع بقوى تنفسية متفوقة . كما وصف شحم الدببة لمعالجة الصلع لأن الدببة تتميز بفرو سميك. بكلمة أخرى ، استعمل الكثير من الوصفات العلاجية العقيمة، المستمدة من التشبيهات السطحية . والأدهى ، أن هذه الأدوية لم تنفض حتى الآن من رفوف الصيادلة بالرغم من أن ماتبقى منها الآن يحضّر بطرق « علمية » ويعلب بأغلفة جذابة. ولم يقتصر هذا الضرب من التفكير على الطب فقط ، فقد غزا كل مجالات الحياة ، فلبس أجدادنا ملابس داخلية حمراء طلباً للدفء لأن الأحمر يشبه لهيب النار . كما أعطى اختراع الراديو واكتشاف الذبذبات اللاسلكية مبررات للاصرار على إمكانية تحضير الأرواح وتوارد الخواطر !!

وتستمد هذه المغالطات جذورها من الاختلاطات اللغوية ايضاً . فيصرف الكثير من الناس الأدلة التي تناقض آراءهم بقولهم إن الشذوذ يثبت القاعدة وهم لا يدركون معنى ما يقولون . فالشذوذ لا يثبت القاعدة تلقائياً بل يعطي الفرصة لامتحانها . هناك ، في الواقع ، حاجة ماسة الى لغة جديدة بسبب عمق جذور الخطأ في اللغة الحالية . ولكي نتخلص من جذور هذه الأخطاء الآن يتطلب الأمر مئة قرن لكي يدرك الناس ما يقولون . ولكن بما أن معظم هذا الغموض وهذه الفوضى موجود في الكلمات نفسها ، وبما أن هذه الكلمات هي في الواقع تجريدات ، فإن اللغة الجديدة لن تحل المشكلة إلا إذا ترك البشر اللغة نهائياً وحملوا معهم الأشياء التي يتحدثون عنها . وحل هذه المشكلة المنطقية بهذا الشكل يخلق مشكلة نقليات لا أول لها ولا آخر ، وهكذا يفشل الاقتراح لانعدام إمكانية تطبيقه .

إن العقل البشري حرفي للغاية ويغرم البشر بالبلاغة . ولذلك ، فإن البشر يأخذ البلاغة كحقيقة مطلقة ، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج مؤلمة وبعيدة المدى. فمن المستحيل مثلاً أن نقدّر الألم الذي سببه مفهوم « الدم » والتعاسة البشرية التي أدى اليها باعتباره ناقلاً للوراثة. ولكن تعبير الدم كناقل للوراثة « تعبير » فحسب ، ولا علاقة له بالواقع .

إن طاقة هذا الاتجاه لخلق الأساطير تمثلت مؤخراً في التأكيد الشهير القائل

« لا ملحدين في الخنادق » . وإذا عدنا الى أصل هذه القاعدة وجدنا أن أول من فاه بها هو المقدم « ورن كلير » في قصته عن أسابيع « باتان » الأخيرة، والتي قدمها في برنامج الجيش في شركة الاذاعة القومية في الولايات المتحدة عام ١٩٤٢. فقد قال المقدم كلير بأنه سمع هـــذه الملاحظة الخالدة ، لأول مرة ، من عريف شاركه في خندق خلال إحدى الغارات اليابانية . هذا ولم يشر المقدم إلى اسم العريف ، كما لم ينوه عما إذا كان عالماً دينياً مدرباً ، أو أن هذا القول هو بيان رسمي من قيادة الجيش الأميركي . ولكن الذي قصده من هذا القول ببساطة ، هو أن البشر يبحثون عن الله في ساعة الضيق .

أما أن يفعل البشر ذلك أو لا يفعلوه فمشكلة لا تنتهي بمجرد إطـلاق قول بليـغ . هذا علاوة على المشكلة القيمية التي تتركز في السؤال التالي : هل يعتـبر هذا القول مدحاً في الدين كما يعتبره بعض رجال الدين ؟ ولكن هاتان المشكلتان لم يجرِ بحثهما . فبالقدر الذي يخص الجمهور ، كانت هذه الصياغة البليغة حقيقـة عسكرية لا يدانيها الشك . وأما بالنسبة للصحف اليومية ، فقـد كانت خبراً مثيراً مهما أعيد وكرر . ولقد كان الأمر أولاً محصوراً في خنادق « باتان » ؛ فهي وحدها التي كانت تتمتع بهذه القدرة على إرسال الايمان الى قلوب المنبطحين في أعماق الخنادق . ولكن مـــا إن انتشرت الحرب حتى اكتسبت كل الخنادق مثل هذه القدرة الجبارة ، من خنادق المحيط الهادي ، وحتى خنادق نورمندي وايطاليا. وبما انه لم يكن هنالك سبب يجعل العدل السماوي يرسل عنايته للمشاة فقط ، فقد ظهرت هذه البركة في كافة فروع الخدمة العسكرية . ففي كانون الأول ١٩٤٣ ، بناء على مقالة في مجلة المختار ، كان قد تم تطهير كل مقاعـــد الطيارين من الملحدين .. كما دخل نور الايمان قلوب القابعين في زوارق النجاة ، ولم يبقَ سوى بعض الملحدين في البحرية التجارية ، ولكن كان يكفي أول طوربيد يتجه نحو سفنهم ، لأن ينسف الحادهم مع سفنهم . (م ٢٨٣ ص ٢٦ — ٢٨ ، م ١٠٤) .

كان هناك ، طبعاً ، من خالف هذه القاعدة ، فقد قضى « بون ليم » الصيني

مائة وثلاثة وثلاثين يوماً على طوف في جنوب الأطلسي . وصرح عندما أنقـذ بأنه لم يحدث خلال تلك التجربة ما يقوده للاعتقاد بوجود عناية إلهية رحيمة . وقد كان كافراً في الأساس . (م ٢٦٧ ص ١٢) .

أما جمعية نشر الالحاد الامريكية فقد شعرت بأن هـــذا نيلاً من وطنية اعضائها . فعملت ما في وسعها لدحضها، وبعد جهد جهيد وجدت متشككاً في وجود الإله في صف المشاة ، هاجمته دبابة مرة، ولكنه أقر بأنه لم يدخل خندقاً في حياته . وبما أنه ليس ملحداً حقاً ، وبما أنه لم يكن في خندق ، فلا تنطبق عليه الشروط ، ولذلك لا يمكن الأخذ بأقواله !! (م ٣٢٥ ص ١٣) .

ولكن هذه الجمعية أهملت مرشحاً أفضل من ذلك هو السيد « كان » الذي كتب في مجلة نيويوركر بأنه لم يكن متديناً ، كما أعترف في مقال آخر بأنه ألقى بنفسه في المراحيض مرة حينما هاجمته الطائرات اليابانيـــة (م ٢٥٢ ص ٥٣ ، م ٢٥٣ ص ٣٤) . ولكن يمكن القول بأن غـــير مؤمن في مرحاض لا يساوي ملحداً في خندق ، بالرغم من أن المؤمنين يقبلون هـذا التشبيه . ولم يكن هذا لينفع الجمعية شيئاً . حتى ولو وجدت فرقة كاملة من الملحدين تمركزت في ألف من الخنادق – وكان هـــذا ما سيجدونه لو انهم التفتوا الى حلفـائهم الروس حينذاك – فقد كان المفروض في هذا التعبير تثبيت ايمـان راسخ لا وصف حالة حربية والإيمان لا يقبل الجدل .

أما من الجهة الثانية فالموضوع غير مقنع تماماً لحسن الحظ. إذ لا يزيح التحيز، تحيّز مضاد ؛ وذلك لأن الانسان لا يرى في معتقداته تحيزاً بل يعتبرها ، عادة، نتائج منطقية أو حقائق ناصعـة . ولعل أخطر التحيّزات هي تلك التي تؤثر في طريقة تفكيرنا نفسها ، والتي تكمن دون مستويات الشعور . إننـــا نفكر ضمن إطار من المفاهيم ، نجهل وجوده . ولذلك تكون أكثر أفكارنا اخلاصاً ، مجموعة من أسخف الأوهام . إننا نرى ما نريد أن نراه . وتؤكد ملاحظاتنـا بدورها افتراضاتنا . وهكذا فقد قيل بأن نظريـة دارون في الاختيار الجنسي لم تنبع من ملاحظاته كعالم طبيعة ، بل من معتقداته كسيد مهذب. فهو بصفته الأخيرة

يعتقد بأن للسيدات امتيازات خاصة لدى الذكور ، بالرغم من أن ملاحظة الدجاج لخمس دقائق فقط تكفي لدحض هذه الفرضية .

إن الطريقة التي تصير فيها مواقفنا اللاشعورية ، ومفاهيمنا ، طريقة تفكيرنا ، تتضح بشكل جلي عندما ننظر الى الطريقة التي يعبر عنها مختلف الشعوب عن موقعهم الجغرافي . فنجد بأن اليابانيين يعتقدون بانهم شرقيون . ولقد كان هذا المفهوم نتيجة للاطار الإدراكي الذي فرضه الاوربيون. فالشرق ، شرق بالنسبة لاوربا والغرب هو غرب بالنسبة لاوربا أيضاً . الاوربيين يطلقون على أمريكا اسم الغرب بينما يطلق الأمريكيون على الصين واليابان اسم الشرق أيضاً . أما اذا نظرنا الى الخارطة فنجد بأن الصين واليابان في الواقع هما غرب أمريكا وليس شرقها . وبناء على منطق الأمريكيين ، اذا كان ثمة منطق بهذا التفسير ، فكاليفورنيا في الواقع يجب أن تقع شرق نيويورك لا غربها .

إن الفكر الشعبي بالرغم من تحيزه ولا عقلانيته يحاول جهده أن يدرس الأدلة ويمحصها ولكنه لا يمتلك المعرفة عن طبيعة ما يبحث عنه ولا القوى العاملة لتشويشه وتضليله في بحثه هذا . فهو يعمم من الشذوذ وهو ينتقي من مجمل الأدلة التي تجابهه تلك التي تتوافق مع فرضياته القبلية دون أن يعي فعله هذا . ويطلق على معظم هذا اسم التفكير . ومعظم ما ينضوى تحت هذا الاسم خلال العمليات التدريسية ، منذ الابتدائي وحتى الجامعي ، لم يكن إلا بحثاً عن أدلة تثبت هذه المقتنعات المسبقة . أما الطريقة العلمية فتقود البشر لكي يصبحوا أكثر تشككاً في كل الامور . وهذا ما لا يستطيع إدراكه معظم البشر . فيقول لنا توبسل « لا بد من وجود عدو سري ، في طبيعة الانسان المنحطة ، يقوده الى الشك في وجود الحصان ذي القرن الوحيد » . وهكذا يتضح لنا من قول توبسل ، أن الشك شذوذ سلوكي مؤذ لا غير .

ويغلف البحث الأزلي لإثبات الغيبية معظم « الفلسفة الشعبية » حيث تعتبر المصادفة أهم دليل ممكن . إن الدهشة لحدوث المصادفات هي من خصائص الفكر السوقي . ولا تحتوي معظم الصدف ، في الحقيقة على عناصر الغرابة . فهؤلاء

الذين يفتقرون الى المعرفة أو الخيال لا يتوقعون شيئاً من الأحداث الاعتيادية، ولذلك يجدون المستغرب في الاعتيادي. يقول البرفسور جاسترو « من أشيع الصدف في العالم اليوم أن تلتقي رسالتان في البريد. ويحدث هـذا ألوف المرات كل يوم ولكن البشر يستثيرون أنفسهم بالدهشة والاستغراب كلما حدث هـذا الأمر. إذ يشكل ذلك بالنسبة لهم دليل قاطع ونهائي على وجود القوى الغيبية وتوارد الخواطر ونـداء الأرواح. ولكن اذا تمعّنا في الموضوع نجد أنـه من الطبيعي جداً أن يفكر الأحبة والأقارب بالكتابة الى بعضهم البعض، فيكتبون في نفس الوقت ».

إن الدهشة التي تصاحب الصدفة هي في الواقـع فعل ذاتي. فإذا أخـذنا بقوانين الاحتمال فوصول إعلان عن مادة تجارية في البريد، هو في الواقع أغرب من أن يكتب لك شخص يميل اليـك وتربطك به علاقة ما. ولكن بما أن الانسان لا يتمتع بأية علاقة انفعالية مع الإعلان المرسل في البريد، فهو لا يتأمل في معجزة وصوله اليـه. وحتى اذا حدث شيء يفوق العادة، بدرجة تـبرر التعليق على الموضوع، فإن اهتمامنا بذاتنـا وشؤوننا وتركيزنا الأناني على أنفسنا يمنعنا من التدقيق في طبيعته الحقيقية.

أما اذا حاول أحدهم أن يشير الى هذه الحقائق فستجابه محاولاته بالكراهية والنفور. اذ انها تنتقص من قيمة هـذا الفرد وأهميته. فهو يفضل أن يستمر في الاعتقاد بأن نظام العالم ومجريات أموره، غالباً ما تتوقف بسببه هو. وهكذا فإن التعلق بالمعجز، في الأساس، هو أنانيـة خالصة. ولهـذا السبب يسهل تشجيع الايمان به. وغالباً ما تفعل الصحافة ذلـك. فهي تنفخ في كل حدث عادي فتجعل منه معجزة. كما تختلق المعجزات اختلاقـاً. إن نصف المعجزات على الأقل في عصرنا هـذا ليست سوى اختلاق صحفي. ويتضح النجاح الذي يستطيعون الوصول اليه فيما حدث في تشرين الثـاني عام ١٩٢٩ حيث كتبت جريدة « الكرة الأرضية » في بوسطن، عن المعجزات التي تحدث في مقـبرة مالدن في ماساتشوستس، حيث أرسلت ما يزيد عن ربـع مليون من البشر،

عندما وصفت شفاء الناس من أمراضهم وعللهم فيها . وهكذا فان امرأة مصابة بالهستريا كان قد تمّ فحصها في أحد المستشفيات ولم يوجد سبب عضوي لشللها قامت من كرسيها في المقبرة وسارت فيا حواليها وهي تهزج تحت ومضات عدسات التصوير التي وجهها اليها مصوروا الصحف. ولكن طفلاً أعمى أصرّ على انه لم يشف من عماه ، بالرغم من أن الصحافة أصرّت على أنه شفى . ولقد حاول أبو الطفل المستاء من كذب الصحيفة أن يجعلها تسحب أقوالها حول الموضوع ولكن محاولاته قمعت حالاً . كما انتزعت العكازات من أطفال مصابين بالشلل والكساح ثم صوروا حالاً قبل أن يتهاووا الى الأرض بشكل مؤلم ويتمرغوا في الوحل والطين ، وقبل أن يعلو بكاؤهم وعويلهم . أما الصحف التي نشرت هذه الأكاذيب فقد بيعت بشكل منقطع النظير ، بينما ركع عمدة المدينة بخشوع أمام مصوري الصحف . (م ٢٤٩ ، م ٢٤٦ ، م ٢١٥ ، م ١٢١ ، م ٩٦ ، م ٢٩٨) .

وتقوم الصحف عبر العالم بتشويه الأحداث أو اختلاقها بشكل متعمد مقصود . فقد كتبت الصحف والمجلات عن لعنة « توت عنخ آمون » وأعيدت القصة وتليت مراراً وتكراراً وقيل لنا بأن لعنة الفواعنة تبعَت كل من كانت له علاقة بأي شكل من الأشكال باكتشاف قبر توت عنخ آمون . فيقول ادكار والاس في مجلة «مكال» إن حية كوبرا افترست ببغاء رئيس المنقبين ، ومنذ ذلك اليوم لاحقت لعنة الفراعنة كل من شارك في فتح القبر . لقد تبعتهم اللعنة في الصحف فقط . إذ يبدو إن أعضاء البعثة التنقيبية تمتعوا بصحة ممتازة ؛ كما إن معدل أعمارهم فاق معدل أعمار البشر بكثير .

ولكن ترديد هذه القصة جلب المال الوفير والشهرة الشاسعة لكثير من الرواة اذ يغرم البشر بالاكاذيب القديمة . بينما الحقيقة كما قال ملتن « تولد في هذا العالم كالنغل فتسيء الى سمعة من ولدها » . إن اللاعقلانية في الواقع هي من أكثر الاشياء ارتباطاً بالمصالح ، المشروع منها وغير المشروع . وهناك عشرات المراكز في كل مدينة من مدن العالم تشجع اللاعقلانية وتغذيها . ففي الولايات

المتحدة وحدها ، يزيد عدد المنجمين الذين يمارسون تنجيمهم عن خمس عشرة مجلة شهرية متفرغة للتنجيم ودوريتان سنويتان ضخمتان . وهذا لا يشمل الرسائل الشخصية التي يرسلها المنجمون الى من يكاتبهم من مدراء الشركات وكبار الموظفين . كما ظهرت في الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ موجة تطالب بتعيين منجم خاص لرئيس الجمهورية . [م ٢١٥ ، م ٢٥٦ ، م ١٩١] .

ولكن المنجمين وقراء البخت ليسوا وحيدين في هذا المجال المفتوح . فهنالك الملايين ممن يعيشون على الآمال والانفعالات البشرية غير المعقولة ، من صحفيين الى مضاربين بالاسهم والسندات الى دلالي الأراضي ومدراء شركات الاعلان والمحامين واساتذة الجامعات والاطباء والصيادلة والسياسيين ، الذين يستمدون جزأ من دخلهم من هذه الخرافات إن لم يستمدوه كله . وهؤلاء هم أما طفيليون على هذه الخرافات عن قصد وعمد واما أنهم يعيشون عليها من خلال جهلهم ومن خلال جهل الآخرين وأوهامهم .

ويتصف الكثير من هذا الاستغلال بكونه مكشوفاً لا خجل فيه ولا حياء. فلقد بيعت خلال الحرب العالمية الثانية ملايين من الايقونات ، التي ادعى بائعوها بأنها تحرف رصاص الاعداء عن أبناء من يشتريها . فكان الجنود يعلقونها في اعناقهم ،حتى قدمت لجنة التجارة الفدرالية تقريراً يقول بأن بيع هذه الايقونات يشكل خداعاً للجمهور . حيث اكتشف بأن المادة التي صنعت منها الايقونات تتفتت الى عشرات الشظايا المميتة اذا اصطدمت بها طلقة من طلقات الأعداء .

هناك الكثير مما يجري على هذه الشاكلة في هذا العالم فان كان الخداع صغيراً تافهاً فغالباً ما ينتهي صاحبة في سجلات السجن . اما اذا كان الخداع ضخماً وكبيراً وذكياً فغالباً ما ينتهي صاحبه الى سجل المشاهير أو في سجل الدعوات الاجتماعية . فهذا الصنف الأخير هم مديروا الاعلانات والدعاية الأنبياء الجدد . انهم لا يسرقون مباشرة ولكنهم يفسحون المجال أمام اللصوص الكبار . انهم لا يدافعون عن التفرقة العنصرية بل يسندون الفوارق الموروثة بين العروق . انهم لا يحاولون ان يثبتوا ان هذا الاصلاح أو ذاك خاطىء بل كل ما يحتاجون

لأن يفعلوه هو اطلاق شعار أو فبركة كليشة .

ولقد أصبح العلم مرتكزاً للكثير من الخطأ المتعمد . فما يجب أن تقول لكي تثبت صحة منطقك هو « قال العلماء » أو « يجمع العلماء » أو « أثبت العلم الحديث » . حتى أصبحت هذه المقولات تعويذات سحرية ورقى ، تضع أي جملة تطلقها فوق مستوى الشكوك ، وفوق مستوى النقد العلمي والتمحيص . انهم يسردون لك مختلف الاقاصيص عن الشك والهزء والسخرية الذي جابه العلماء منذ سنين خلت . انهم لا يوجهون التعنيف لمن يبدي الشك ؛ بل يوجهون التعنيف للشك نفسه .

فما يدافعون عنه في الواقع ليس هذا المعتقد أو ذاك ، ولكن سرعة التصديق . وهم يخلقون ضرباً من الغيبية الغامضة لهذا الغرض . فهم لا يمتلكون ايماناً دينياً عميقاً ، بل إذا قدّمت لهم معتقداتهم نفسها بصيغة جديدة ، فانهم سوف يعملون فيها نقداً وتجريحاً . ولكنهم يؤمنون بشكل قاطع ، ان هذه المعتقدات هي في « صالح البشر » . وإذا حاولت استجوابهم في الخصوصيات ، اعتبروا ذلك « قلة ذوق » . فهم يفترضون وجود تجريد اسمه « الدين » ينفصل عن أي معتقد ديني خاص ، ولكنه بنفس الوقت على درجة من القدسية بحيث يشكل أي حديث حوله خطيئة لا تغتفر . فهم يقولون ان الإنسان لا يجادل في الدين ، بالرغم من ان الرجال المتدينين حقاً لا يوافقون على هذه المقولة .

ليس هنالك خطأ بريئاً . ان البشر لا يستندون الى فرضيات خاطئة دون أن يستمدوا منها استنتاجات هامة وبالغة الخطر . قد يكون ثمة استنتاجات لا تبدو عليها الاهمية كأن تؤمن بأن الشعر يشيب للهول والرعب او ان الطيور تعيش حياة هانئة سعيدة او ان عيون الصينيين منحرفة . ولكن هنالك الكثير من الأذى في الجهل في الفسلجة وعلم الحيوان وعلم الانسان . والخطر الأكبر يكمن في تكوين اعتقاد دون أدلة . أو في تشويه الأدلة لتسند رأياً معيناً . يتلازم الغموض والاستبداد كما يتلازم الشك والديمقراطية . انه لمن المريح حقاً لكل من ينتفع من خنوع الجماهير ان يجعلهم يعتقدون بانهم ليسوا أسياد

مصائرهم ، وانهم يجب ان يخضعوا لما هو فوق طاقة البشر . ان ضباب الغيبية كان دائماً ستاراً بديعاً لهؤلاء الذين لا يودون ان يتفحص أحد ما يفعلون .

لقد دمغت كافة الثورات الديمقراطية ، منذ ثورة الفلاحين ، بأنها ثورات مناوئة للدين . ولقد كان هدف هذا الاتهام جزئياً الاساءة لسمعة هذه الثورات. كما أنها كانت نتيجة لادراك التسلطيّين بأن الدكتاتورية نقيض للديمقراطية . فالديمقراطية لا تطلب الحق في حرية التفكير فحسب ، بل تلقى مسؤولية التفكير على عواتق البشر . والايمان الأعمى نقيض الفكر . ويمكن اعتبار رفض أي إنسان شريف قبول أي نتيجة غير مسندة عنصراً هاماً من دينه . فمثل هذا الانسان يعتبر الدعوة للايمان الاعمى دعوة الى البربرية والعبودية. اذ تتضمن الدعوة للايمان دون إثبات ، دعوة للتنازل عن الكرامة . ليس هنالك معنى مطلقاً لحرية العمل وحرية القول دون حرية التفكير . وليس ثمة حرية تفكير دون عنصر الشك . إن الرجل المتمدن ملزم خلقياً بالشك . إنه ملزم خلقياً بأن يطلب البيانات اللازمة لكل جملة تدعى بأنها حقيقة . إن الرجل الشريف يرفض أن تضطهده فرضية. إذ أن كل استبداد يرتكز في جوهره على الخديعة ، يرتكز في جوهره على إجبار الناس على قبول فرضيات خاطئة وبذلك فإن أي انسان يتنازل عن الشك في أية لحظة ويمتنع عن التساؤل في أية ثانية يكون قد خان البشرية في تلك اللحظة نفسها .

المـراجع

REFERENCES

هذه هي مراجع الكتاب ، وقد اشير إليها في النص حسب ارقامها ، ويدل حرف م على المصدر ، وص على الصفحة .

Books and Journals

1. Ackermann, A.S.E.: Popular Fallacies Explained and Corrected (London: Old West Minister Press; 3rd. edition, 1924).
2 Adachi, Buntaro : «Der Geruch der Europäer», Globus, vol. 83, 1903,
3. Adams, John - The Dictionary of National Biography.
4. Adams, Romanzo : Interracial Marriage in Howaii (New York : The Macmillan Company; 1937).
5. Alverdes, F. : Social Life in the Animal World (London: Kegan Paul). ....
6. Akeley. Carl E. : Brightest Africa (London : William Heine - mann). ... .
7. Aldrich, C. A. and Aldrich M.M. : Babies Are Human Beings (New York : The Macmillan Company; 1943),
8. Alexander, Chester: School and Society, April 15, 1944,
9. Allee, W.C. : The Social Life of Animals (New York : W.W. Norton & Co., Inc.; 1938).
10. Allen, L.M. : «Preqnancy at the age of eleven years terminating in a natural delivery», Maryland Medical Journal, Baltimore, 1901, Xliv., ...
11. Alvarez, Walter C. : Nervousness, Indigestion, and Pain (New York : Hoeber; 1943).
12. St. Aquinas, Thomas : Summa Theologica, Question Xcii, Article 1, Reply Obj. 1. ... ...

13. Aviation Training Division «Shark Sense» Navy Bulletin, March 1944. ....
14. Bagley, W.C. : The Educative Process (New York: The Macmillan Company; 1910), ...
15. Bean, Robert Bennett : «Some Racial Peculiarities of the Negro Brain,» The American Journal of Anatomy, vol. 5, 1906.
16. Bemelmans, Ludwig: My War with the United States(London : Victor Gollancz; 1938).
17. Bernstein, R, Hospital Tidings Oct. 1936.
18. Borchard, Edwin M. : Convicting the Innocent (New Haven : Pale University Press; 1932).
19. Boulenger, E.G. : The Aquarium Book (London, Duckmorth; 1925).
20. Boulenger, E.G. : Searchlight on Animals (London : Robert Hale and Company; 1936).
21. Bradley, John Hodgdon : Patterns of Survival (London : G. Routledge and Sons; 1939).
22. Brogan, D.W. : The American Character (New York: Alfred A. Knopf, Inc.; 1944). ... ...
23. Brown, Alan : «Animals Don't Like Music», in the Etude, February 1943. ....
24. Browne, Sir Thomans : Works (Edinburgh: John Grant; 1927).
25. Buck, Frank : Animals Are Like That ! (London: Robert Hale; 1941). ....
26. Shaw, G.B. : John Bull's Other Island.
27. Butler, Samuel : Further Extracts from the Notebooks of Samuel Butler (London : Jonathan Cape; 1934).
28. Byron : « The Prisoner of Chillon»
29. Caldwell, Otis W. and Lundeen Gerherd E. : Do you Believe it ? (New York : Double-day, Doran & Co.; 1934).
30. Cannon, Walter B. : The Wisdom of the Body (London: Kegan Paul). ....
31. Carver, R.H. : «A case of early maternity», Providence Medical Journal, 1909, X.,
32. Cather, Willa : My Antonia (London : William Heinemann ; 1914).
33. Cattell, R.B. : General Psychology (Cambridge : Sci - Art Publishers : 1941). ... ...
34. Chapple, E.D. and Coon C.S. : Principles of Anthropology (New Anthropology (New Pork : Henry Holt and Company; 1942).
35. Chaucer: Prologue of the Pardoner's Tale, Line 27, Revelation ix. 10.
36. Boswell's, Johnson (Oxford: The Clarendon Press (Powell's revision of the Hill ed.), vol. iv.,
37. Coates, W.P. and Zelda : The Soviet - Finnish Campaign, 1939-40 (London : Eldon Press; 1941).

38. Cobb, Montague : «Race and Runners», Journal of Health and Physical Education, val. 7, 1936.
39. Cook, Albert S., (ed.) : The Old English Elene, Phoenix, and Physiologus, (New Haven : Yale University Press : 1919).
40. Coward, T.A. : The Migration of Birds (Cambridge: The University Press; 1929).
41. Cruden, Alexander : A Complete Concordance to the Holy Scriptures (London : F.C. and J. Rivington; 1810 6th. edition), «Inventions». Ecclesiastes, vii, 29.
42. Curwood, James Oliver: «The Lasting Bond», reprinted in Ernest Thompson Seton : Famous Animal Stories (London : John Lane; 1933), ...
43. Daglish, Eric Fitch : Life Story of Beasts (New Pork : William Morrow and Company; 1931).
44. Davis W.E. : Ten Pears in the Congo (New York : Reynal and Hitchcock; 1938), ...
45. Dickens, Charles : American Notes, Chapter 3.
46. Dickens, Charles : Bleak House, Chapter XXXII.
47. Dickens, Charles : David Copperfield, Chap. XXX.
48. Ditmars, Raymond L. : Confessions of a Scientist (New York : The Macmillan Company; 1936),
49. Ditmars Raymond L.: Reptiles of the World (London : Sir Issac Pitman and Sous).
50. Dockeray, F.C. : Psychology (New York: Prentice Hall; 1942).
51. Douglas, Norman : Goodhye to Western Culture (New York : Harper and Brothers; 1930).
52. Driberg, J.H. : The Savage as He Really Is (London: Routledge; 1929). ... ...
53. Dublin Louis I. : To be or Not to Be, A Study of Suicide (New York : Harrison, Smith and Robert Hass; 1933).
54. Dublin, Dr. Louis I and Lotka, Dr. Alfred J.: Twenty-five years of Health Progress (New York : Metropolitan Life Insurance Company; 1937). ....
55. Dugdale, R.L. : The Jukes (New Pork : Putman's ; 1888).
56. Elton, Charles : Voles, Mice and Lemmings (Oxford : The Clarendon ress; 1942). ... ...
57. Ellis, Havelock : Studies in the Psychology of Sex (Philadelphia : F.A. Davis Company; 1914). Vol. V.
58. Escomel, Edmundo : «La plus jeune mére du monde», La presse Médicale, Paris Vol. 47, May 31, 1939.
59. Estabrooks, G. H. Man the Mechanical Misfit (New York : Macmillan Company; 1941).
60. Fabre, J. H. : Social Life in the Insect World (London : T. Fisher

Unwin; 1932). ......

61. Fabricant, Noah D. : The Common Cold (Chicago, New Pork : The Ziff - Davis Company; 1945).
62. Fishbein, Morris : Shattering Health Superstitions (New York : Horace Liveright ; 1930). ......
63. Fleming, Peter : News from Tartary (London : Jonathan Cape).
64. Foly, J.P. «The Baboon Bay of South Africa» American Journal of Psychology. Jan. 1940.
65. Fox, Charles : Educational Psychology (New Pork : Harcourt, Brace and Company; 1927).
66. Galton, Francis : Inquiries into Human Faculty (Everyman's Librar; 1919). ....
67. Gesell, Arnold : Wolf Child and Human Child, (London : Methuen and Company). ... ...
68. Gesell, Arnold : «The Biography of a Wolf Child», Harper's Magazine, January 1941.
69. Gillespie, R.D. : Psychological Effects of War on Citizens and Soldiers (London : Chapman and Hall).
70 Goddard, Henry H. : The Kallikak Family (New York : Macmillan Company; 1912. Reissued, 1939).
71. Goddard, Henry H. : Feeble - Mindedness : Its Causes and Consequences (New York : The Macmillan Company; 1914).
72. Goddard, Henry H.: «In Defence of the Khallikak Study», Science, June 5 1942. ....
73. Gould, M. and Pyle Walter L. : Anomalies and Curiosities of Medicine (Philadelphia : Saunders & Co.; 1897).
74. Gunn, D. L. and Jenkin, P. M. and Gunn A.L. : «Menstrual periodicity», the Journal of Obstetrics and Gynaecology of the British Empire (Manchester), vol. 44. 1937.
75. Gerson, A. : «Die Menstruation, ihre Entstehung Und Bedeutung,» Zeitschrift für Sexual-wissenschaft, 1920. Band 7.
76. Guttmacher, Alan Frank: Life in the Making (London : Jarrolds; 1934). ....
77. Haggard, and Jellinek : Alcohol Explored.
78. Haggard, and Jellinek : «Of the Common foods, milk seems to have the greatest influence in slowing absorption». Article 408, Alcohol Explored. ... .
79. Haggard, Howard W. and Jellinek, E.M. Alcohol Explored (New York : Doubleday, Doran Company, Inc.; 1942).
80. Hahn, Emily : China to Me (New York : Doubleday, Doran and Company; 1944). ......
81. Haldane, J.B.S. : Science and Human Life (New York : Harper and Brothers; 1933).

82. Haldane, J.B.S. : Heredity and Politics (London : George Allen and Unwin). ... ...
83. Hamilton, Dr. James B. of the Yale University School of Medicine, Science News Letter, April 11, 1942.
84. Harris, Frank : Oscar Wilde : His Life and Confessions (New York: The Author; 1916).
85. Herskovits, Melville J. : The Anthropology of the American Negro (New York : Columbia University Press; 1930).
86. Herskovits, Melville J. : Dahomey (New York : J.J. Augustin; 1938).
87. Holbrook Stewart : Murder Out Yonder (New York: The Macmillan Company; 1941).
88. Holland, Philemon (trans.): The Natural Historie of C. Plinius Secundus (London : 1601).
89. Hooton, Earnest Albert : Apes, Men, and Morons (London : Allen & Unwin; 1938). ......
90. Hooton, Earnest Albert : Twilight of Man (New Pork : G.P. Putnam's Sons; 1939).
91. Hooton, Professor : Why Men Behave Like Apes and Vice Versa (Princeton : Princeton University Press : 1940).
92. Howells, William : Mankind So Far (New Pork : Doubleday, Dorman and Company, Inc,; 1944).
93. Hull, C.L. : «The Influence of Tobacco Smoking on Mental and Motor Efficiency», in Psychological Monographs, 1924.
94. Hutchinson's Dog Encyclopaedia. «Telegony».
95. Jackson, Gardner : «Miracles' at Malden», The Nation, December 4, 1929. ....
96. Jastrow, Joseph : Fact and Fable in Psychology (London : Macmillan and Company; 1901).
97. Kellogg E. C. : «New Evidence (?) for 'Extra-Sensory Perception',» Scientific Monthly, vol. 45, 1937.
98. Kerns W.W. : «A very young Mother», Medical World, Philadelphia, 1905, XXiii., ...
99. Klineberg, Otto : Race Differences (London: Harper and Brothers).
100. Kruger E. T. and Reckless W. C. : Social Psychology (New Pork : Longmans, Green and Co., 1931.
101. Lee, Alfred Mc. Clung : Race Riot (New Pork : The Dryden Press; 1943). ... ...
102. Levine, Maurice : Psychotherapy in Medical Practice (New York : The Macmillan Company; 1942).
103. Lewis, Julian H. : The Biology of the Negro (Chicago : The University of Chicago Press; 1942).
104. Lewis, Lloyd : Myths after Lincoln (New York : Harcourt, Brace and Company; 1940).

105. Loeser, Johann A. : Animal Behaviour (London Macmillan and Co., Ltd; 1940). ...
106. MacDougal, Curtis D. : Hoexes (New York : The Macmillan Company; 1941). ....
107. Maier, N.R.F. and Schneirla T. C. : Principles of Animal Psychology(London : MacGraw - Hill).
108. Malinowski, Bronislaw : The Sexual Life of Savages in North - Western Melanesia (London : G. Routledge and Sons; 1932). val. i.
109. Maloney, J. «The Shark is a Sissy». Collier's, Oct. 7. 1944.
110. Mann, A.J. : «Another case of Precocious Motherhood», American Journal of Clinical Medicine, Chicago 1910, XVii.
111. St. Mars, Frank : On Nature's Tail : (New Pork : George H. Doran Co.; 1914). ... ...
112. Marten, M. Edward : The Doctor Looks at Murder (New York : Doubleday, Doran & Company, Inc.; 1937).
113. Martineau, Harriet : Society in America (London : Slunders and Ottley; 1837). Vol. 2.
114. Mayer, Edgar (ed) : Radiation and Climatic Therapy of Chronic Pulmonary Diseases (Baltimore : The Williams and Wilkins Company; 1944). ....
115. Mayo, Katherine : Mother India (London : Jonathan Cape).
116. MacLean Dr. : American Journal of Obstetrics, Vol. 22.
117. The Mayor's Committee on Manihuana : The Marihuana Problem in the City of New York (Laucester, Pa. : The Jaques Cattell Press; 1945 . ...
118. McNeil C. : The Edinburgh Medical Journal. Vol. 1. 50, 1943.
119. Mc Roberts, Robert : New Republic, May 19, 1937.
120. Mencken, H. L. : «Journalism in America» Prejudices, Sixth Series (New York : Alfred A. Knopf; Inc.; 1927).
121. Menchen, H.L. : «Hymn to the Truth», Prejudice Sixth Series (New York : Alfred A. Knopf. Inc.; 1927).
122. Mendehall, W. L. : Tobacco (Cambridge : Harvard University Press; 1940).
123. Menninger Karl A. : Man Against Himself (New York : Harcourt, Brace and Company; 1938).
124. Milton, J. : Samson Agonistes.
125. Mitchell, Margret : Gone With the Wind (London : Macmillan and Company). ... ...
126. Mitchell, P. Charlmers : The Childhood of Animals (New York : Frederick A. Stockes Company; n.d. CC. 1912).
127. Montague M. F. Ashley : «Physiology and the Origins of the Menstrual Prohibitions», The Quarterly Review of Biology, June 1940.
128. Montague, M.F. Ashley : «The Myth of Blood», Psychiatry, Vol. 6,

1943. ....
129. Montague, M. F. Ashley : «The Physical Anthropology of the American Negro», Psychiatry, February 1944.
130. Montague, M. F. Ashley : «Physical Characters of the American Negro», Scientific Monthly. July 1944.
131. More, Henry : A Collection of Several Philosophical Writings (London : Joseph Downing; 1712), Scholia on Enthusiasmus Triumphatus, section 58. ... ...
132. Morris, Percy A. : They Hop and Crawl (Lancaster, Pa. : The Jaques Catteil Press; 1944.
133. Myerson Abraham : The Interitance of Mental Disease (Baltimore: The Williams and Wilkins Company; 1925).
134. Myrdal : An American Dilemma.
135. Mytton : The Dictionary of National Biography. Vol. XIV.
136. Nathan George Jean and Mencken H.L. : The American Credo (New York : Alfred A. Knopf, Inc.; 1921).
137. Ogilby John : America (London : Printed for the Author; 1671).
138. Pearson, Edmund : Studies in Murder (New Pork: Modern Library - Random House Inc.; 1938).
139. Pearson, Edmund : Murder at Smutty Noze (London : Heinemann).
140. Pearson, Karl : Grammar of Science (London : 2nd. ed., 1900; Revised reprint: Everyman's Library; (New York; E.P. Dutton; 1937).
150. Rowan, William: The Riddle of Migration (Baltimore : Williams (Spring field, Illinois; Charles S. Thomas; 1943).
142. Pittman, V.I.: 'Child birth at the age of nine' American Journal of Clinical Medicine, 1908.
143. Ploss, Herman : Heinrich and Bartels, Max and Bartels, Paul: (London: William Heine Mann, Ltd.; 1935).
144. Plutarch: Lives (London: Loeb Classical Library; W. Heinemann; 1919) vol. 7. ....
145. Poe, El, 'A Descent into the Maelstrom'
146. Potter and Adeir: Foetal and Neonatal Death (Chicago: The University of Chicago Press: 1940).
147. Rauber, August: Homo Sapiens Ferus, oder Die zustande der Verwildertem und ihre Bedeutung fur Wissenschalf Politi und Schule. Zweite Auflage, Leipzig, 1888.
148. Rawley John: «Life History of the Sea Lions on the California Coast», February 1929.
149. Romanes George J.: Animal Intelligence (London K. Paul, Trench R. Co.; 2nd. ed., 1882)
150. Rowan, William: The Riddle of Migration (Baltimore : Williams and Wilkins; 1931) .
151. Salter, Andrew: What is Hypnosis? (New York : Richard R. Smith;

1944). ....
152. Scheinfeld Amram : «The Kallikaks After Thrity Years», Journal of Heredity, September 1944.
153. Scheinfeld Amram : You and Heredity (London : Chatto and Windus). ....
154. Scheinfeld, Amram : Women and Men (New York : Harcourt, Brace and Company; 1944).
155. Schufeldt, Robert W. : The Negro a Menace to American Civilizathion (Boston : The Badger Press; 1907).
156. Seabrook, William : Jungle Ways (London : G.G. Harrap).
157. Seton, Ernest Thompson : The Natural History of the Ten Commandments (New York : Charles Scribner's Sons; 1907).
158. Seton, Ernest Thompson : Wild Animals I Have Known (London : Hodder and Stoughton; 1914).
159. Seton, Ernest Thompson : Wild Animal Ways (London : Hodder and Stoughton; 1916).
160. Seton, Ernest Thompson : (ed.) Famous Animal Stories (London: John Lane; 1933).
161. Shaftesbury, Edmund : Child Life (Washington, D.C. : The Ralston Press; 1897). ......
162. Shakespeare, Henry V, II, iii.
163. Shakespeare, W. : The Merchant of Venice, IV, i. Richard II, III, ii. A Midsummer Night's Dream, III, ii. Macbeth, III, iv, Antony and Cleopatra, V, ii, Henry VI (2), III, i. and ii. Henry VI (3), I, iv.
164. Shandy, Walter : The Life and Opinions of Tristram Shandy.
165. Shapiro, H.L. : Descendants of the Mutineers of the Bounty (Honolulu : The Berenice P. Bishop Museum; 1929).
166. Shapiro, H.L. : The Heritage of the Bounty (New York : Simon and Schuster; 1936).
167. Simon, Dr. C. : («Blanchement Rapide des Cheveux» in Nouvelle Pratique Dermatologique, Paris Masson & Cie; 1936; Vol. 5.).
168. Snyder, Le Moyne : Homicide Investigation (Spring-field, Illinois : Charles C. Thomas; 1944).
169. Spearman, C. : The Abilities of Man (London : Macmillan and Company; 1932). ....
170. Spearman, C. : Human Nature and the Social Order (New York : The Macmillan Company; 1940).
171. Stanley, Henry M. : In Darkest Africa (New York : Charles Scribner's Sons; 1890). Vol. 1.
172. Stefansson, Vilhjalmur : My Life with the Eskimo (London : G. G. Harrap). ... ...
173. Stefansson Vilhjalmur : The Friendly Arctic (London : G.G. Har-
174. Stein Gertrude : Wars I have Seen (London : B.T. Batsford).

175. Stefansson Vilhjalmur : Adventures in Error (New York : Robert M. McBride and Company; 1936).
176. Steinhaus, A. H. and Grunderman, F.M. : Tobacco and Health (New York : Association Press; 1941).
177. Strouse, S. The Modern Home Medical Adviser, 1942.
178. Sotton, Richard L. and Sutton Richard L., Jr, : Diseases of the Skin (London : Henry Kimpton).
179. Swan, John : Speculum Mundi (Cambridge : Printed by Roger Daniel, Printer to the University of Cambridge; second edition; 1643).
180. Tennyson, A. : Enoih Arden, Lives.
181. Tennyeson, A. Locksley Hall Stanza 34.
182. Thomen, Dr. August A. : Doctors Don't Believe It, Why Should you? (New York : Simon & Schuster; 1941).
183. Thoreau, Henry David : Writings (Boston : Houghton Mifflin Company; 1906). Vol. XV.
184. Timbs John : English Eicentrics and Eccentricities (London : Chatto and Windus; 1875).
185. Tinker C. B.: Nature's Simple Plan (Princeton : Princeton University Press; 1922).
186. Todd, T. Wingate : «Cranial Capacity and Linear Dimensions in White and Negro». American Journal of Physical Anthropology; Vol. 6, 1923. ....
187. Torre, Lillian de la : Elizabeth is Missing (London : Michael Joseph; 1947). ....
188 Trollope, M. Mrs. : Domestic Manners of the Americans (London : Whittaker Treacher & Co.; 1832), Vol. 2.
189. Waugh, Alec : Hot Countries (New Pork : Farrar and Rinehart; 1930). ... ...
190. Webster John : The Duchess of Malfi, Act 2, Scene 1.
191. Wecter, Dixon : «How Much News in a News Letter ?», The Atlantic Monthly, March, 1945.
192. Wheeler, William Morton : Social Life Amon the Insects (London : Constable and Company).
193. Wiggam, Albert Edward : Sorry But you 're wrong About It (Indianapolis : The Bobbs Merriel Company; 1931)
194. Wigmore, John Henry : Code of the Rules of Evidence in Trials at Law (Boston : Little, Brown & Co.; 2nd edition, 1935).
195. Williams, U.V. : «Another Precocious Mother», American Journal Clinical Medicine, 1911, XViii
196. Windle W. F. : Physiology of the Foetus Philadelphia : Saundus & Co.; 1940). ......
197. Woodworth, R.S. Psychology (London : Methuen and Co.).
198 Woolf, Virginia : Three Guineas (London : The Hogarth Press;

1938). ... ...
199. Wordsworth, W. : Lament of Mary Queen of Scots.
200 Wright, Richard : Black Boy (London : Victor Gollancz).
201. Yerkes, Robert M. : «Conjugal Contrasts Among Chimpanzees», Journal of Abnormal and Social Psychology, April 1941.
202. Yerkes Robert M. and Yerkes Ada W. : The Great Apes (New Haven : Yale University Press; 1929)
203. Yerkes, Robert M. : Almost Human (London : Jonathan Cape).
204. Young Hugh Hampton : Genital Abnormalities, Hermaphroditism, and Related Adrenal Diseases (London : Bailliere and Company).
205. Young, Kimball : Sociology (New York : American Book Company; 1942) ....
206. Young, W. E. Shark! Shark! (New York, Gotham House : 1933.)
207. Zingg R. M. American Journal of Psychology, July, 1940
208. Zingg Robert M. : Wolf Children and Feral Man (New York : Harper & Brothers; 1941).
209. Zuckerman S : The Social Life of Monkeys and Apes (London : Kegan Paul, Trench, Trübner & Co.; 1932).
210. Zuckerman S. : Functional Affinities of Man, Monkeys and Apes London : Kegan Paul, Trench, Trübner & Co.; 1933)

Magazines & Newspapers

211. American Mercury : «Menace of Marihuana », December 1935.
212. American Weekly May 18 1941
213. American Weekly Dec. 10 1944
214 American Weekly April 1 1945
215. The Atlantic Monthly, April 1930
216. The Medical Journal, Feb. 19, 1944.
217. Chicago Daily News May 17 1943
218. Chicago Daily News March 31 1944
219 Chicago Daily News Jan 13 1945
220. Chicago Daily News Jan 19 1945
221. Chicago Daily News Jan 26 1945
222. Chicago Daily News Jan. 31 1945
223. Chicago Sun Sept. 2 1943
224 Chicago Sun June 14 1944
225. Chicago Sun July 20 1944
226. Chicago Sunday July 28 1943
227. Chicago Sunday Sept. 2 1943
228. Chicago Sunday Sept. 14 1944
229 Chicago Sunday July 19 1944
230. Chicago Sunday July 20 1944
231. Chicago Sunday July 25 1944

232. Chicago Sunday July 29 1945
233. The Chicago Tribune : «Please, Folks, Don't Blame Me!» January 20, 1945. ... ...
234. Consumer's Guide, Vol 10, No. 9. August 1944, (A Publication of the War Food Administration, Washington, D.C.J.
235 Coronet, May 1943 ....
236. Good House Keeping July 1944
237. Harper, Jan 1941
238. Journal of the American Medical Assoc. Jan. 18 1941
239. Journal of the American Medical Assoc. April 28 1945
240 Lancet, London, 1889, ii., and October 15, 1910.
241. Life Jan. 29 1940
242. Life Feb. 12 1940
243. Life Dec. 22 1941
244 Life Jan. 29 1935
245. Litrary Digest Dec. 18 1927
246. Litrary Digest Dec. 7 1929
247. Litrary Digest Oct. 24 1936
248 National Geographic Magazine, November 1926.
249. The New Republic Dec. 4 1929
250. The New Republic, Aug. 16 1943
251 New Yorker Aug. 14 1937
252. New Yorker May 8 1943
253. New Yorker May 27 1944
254. New Yorker June 3 1944
255. New Yorker Aug. 26 1944
256. New Yorker May 12 1945
257. New York Times Oct. 22 1926
258 New York Times Oct. 23 1926
259. New York Times Dec. 26 1926
260. New York Times Jan. 30 1927
261. New York Times April 6 1927
262. New York Times April 27 1927
263 New York Times May 2 1927
264. New York Times July 17 1927
265. New York Times Jan. 8 1940
266. New York Times July 22 1940
267. New York Times April 23 1942
268. New York Times May 25 1943
269. New York Times Aug. 1 1943
270 New York Times Aug. 3 1943
271. New York Times Aug. 4 1943
272. New York Times Aug. 5 1943
273. New York Times Magazine. April 27, 1941

274. Notes and Querries Jan. 29 1916
275. Notes and Querries Feb 26 1916
276. Notes and Querries March 25 1916
277. Notes and Querries March 29 1941
278. Readers' Digest Feb. 1938
279. Readers' Digest March 1940
280. Readers' Digest Aug. 1940
281 Readers' Digest Nov. 1941
282. Readers' Digest Jan. 1942
283. Readers' Digest Dec. 1943
284. Readers' Digest Dec. 1944
285. Saturday Evening Post August 5 1944.
286. Saturday Home Magazine : August 30, 1941.
287. Science, March 22, 1940.
288. Science Digest, September 1944
289. Science News Letter : July 13, 1940
290. Scientific American March 1936
291. Scientific American March 1941
202. Speed of Edinburgh, J.G. : Science Digest, March 1942.
293. Thoreau's Journal, June 28 1857
294. Time June 28 1926
295. Time Aug. 16 1926
296. Time Nov. 1 1926
297. Time Feb. 14 1927
298. Time Nov. 25 1929
299. Time Jan. 9 1933
300. Time Jan. 21 1935
301. Time Jan. 22 1940
302. Time March 3 1941
303. Time Nov. 3 1941
304. Time March 2 1942
305. Time June 8 1942
306. Time May 31 1943
307. Time Aug. 2 1943
308. Time Aug. 9 1943
309. Time Aug. 16 1943
310. Time Feb. 21 1944
311. Time April 10 1944
312. Time April 24 1944
343. Time July 17 1944
314. Time July 31 1944
315. Time Aug. 14 1944
316. Time Sept. 4 1944
317. Time Oct. 2 1944

318. Time Oct. 16 1944
319. Time Nov. 27 1944
320. Time Dec. 4 1944
321. Time Dec. 25 1944
322. Time Jan. 8 1945
323. Time April 16 1945
324. The Times, London, February 1, 1943, and February 2, 1943.
325. Times of India : «Mother India, Conditions of Child-birth», (Calcutta), October 10, 1927.
326. The Truth Seeker, January 1945.

Encyclopaedias and Basic References

377. The Catholic Encyclopaedia:
328. Encyclopaedia Britannica:
329. Dictionary of National Biography :
330. The Oxford English Dictionary :
331. Talmud: ....

Books with no Auther Listed

332. The American Character 'Alfred Knopf inc. New York 1944
333. England, A History of British Progress, Crowell, New York 1928.
334. The First Aid Textbook of the American Red Cross, 1944.
335. On Natures Trail : New York George H. Doran Co. 1914.
336. Women and the Ministry, Some Considerations on the Report of the Archbishop's Commission on the Ministry of Women. (1936).

فهرست

هـذا الكتاب

« إذا اتفق الناس على معقول فليس أعقل مما اتفقوا عليه ».

ما هو « المعقول » وكيف « يتفق الناس عليه؟ » يريك هـذا الكتاب أن الكثير من « المعقول » ليس حقيقة. والكثير مما يتفق عليه الناس نتاج لنظام فكري خاطيء يعبّر عن مصالح فئات تنتفع من انتشار الخطأ. يريك هذا الكتاب أن الخطأ البريء نادر، وأن ما يبنى على الخطأ ضار، ولو كان هدفه طيباً وأن الانسان يخون انسانيته كلما قبل فرضية دون تمحيص.

هذا الكتاب للذين تضطهدهم الفرضيات والافكار التي يعوزها الاسناد، ولا يدرون كيف يقاومونها. كتب باسلوب فكه مرح، لكل قاريء مثقف.

كتاب جـدير بالقراءة

منشورات دار الطليعة - بيروت

الثمن : ٣٠٠ ق. ل.
٣٧٥ ق. س.